الثمر الداني

في شرح

المثل القرآني

وبيان ما فيه

من البلاغة والمقاصد والمعاني

تأليف

محمد جبّار خلف سالم العامريّ

دار ابن كثير

الثمر الداني

في شرح

المثل القرآني

وبيان ما فيه

من البلاغة والمقاصد والمعاني

- الموضوع: دراسات
- العنوان: الثمر الداني في شرح المثل القرآني
- تأليف: محمد جبار خلف سالم العامري

الطَّبْعَةُ الأُولَىٰ

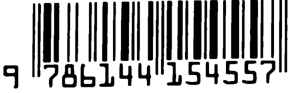
١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٤ م

ISBN 978-614-415-455-7

- الطباعة والتجليد: مطبعة أوسكار - بيروت
- الورق: بالكي / الطباعة: لونان / التجليد: غلاف
- القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 264 / الوزن: 400 غ







بيروت - لبنان
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 857 817 1 961+
701 705 1 961+
جوال: 459 204 3 961+

دمشق - سورية
حلبوني - جادة ابن سينا
بناء الجابي - طابق أول
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

إسطنبول - تركيا
كايا شهير - مجمع مافيرا 2
بناء T5 - 147
جوال: 17 28 827 552 90+
17 27 827 552 90+

الثَّمَرُ الدَّانِي

فِي شَرْحِ

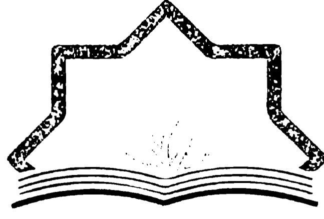
المَثَلِ القُرْآنِي

وبيانِ ما فيهِ
مِنَ البَلاغةِ والمَقاصِدِ والمَعانِي

تأليف
محمد جبّار خلف سالم العامريّ

دار ابن كثير

بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضلَّ له، ومَن يضلل فلا هاديَ له. وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فإنّ الحياة معَ كتاب اللهِ نعمةٌ عظيمة لا يُدركها إلا مَن أنعم الله بها عليه، وبداية لحياة متَّصلة بحياة الآخرة، وما أسعدَ الإنسان إذا جعل القرآن إماماً له، يهتدي بهديه، ويستضيء بنوره، ويعمل بآياته!

واعلمْ أنّ أكثر الأوقات بركة وأُنساً وفائدة تلك التي تُقضى مع كتاب الله، تلاوةً وتجويداً، وحفظاً وتفسيراً، وعملاً وتدبُّراً، إذ يعيش الإنسانُ مع كلام ربه ﷻ، يتنقل بينَ آياته، ينهل من معينها، ويرتشف من رحيقها غذاء روحه، ونور عقله، ودواء قلبه، لذة بعد لذة لا تنتهي بل تُوصل بلذة جنّة الله تعالى، حقيقة يشعر مَن عاش في كنف كتاب الله أنه قد خرج من ضَنك الدنيا إلى سعة الآخرة، فللهِ الحمدُ أولاً وآخراً.

ولا يخفى على كلِّ ذي لُبٍّ حكيم، وعِلْمٍ قويم، ما للأمثال من أهمية فائقةٍ، وآثار بالغةٍ، في تقريب البعيد، وتصوير الغريب، واختصار الكلام، وبيان الغامض، فكلُّ الناس يضربون الأمثال وخاصة العرب لأنهم أهل وصف ومدح وبيان، والأمثال تتوافقُ مع قريحتهم وبلاغتهم؛ لذلك

خصَّ الله تعالى كتابه بعلم الأمثال، هُدًى للناس وبينات من الهدى والفُرقان، كما أنّه كان من أسلوب دعوة النبيّ ﷺ.

قال الزركشي في البرهان: إنّ الحِكَمَ والأمثال تُصَوِّرُ المعاني تَصَور الأشخاص، فإنّ الأشخاصَ والأعيان أثبتُ في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس؛ بخلاف المعاني المعقولة فإنها مجردة عن الحسّ.

وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى على أهل الرأي، إذ الغرضُ من المثل تشبيه الخفي بالجلي والشاهد بالغائب، فالراغب في الإيمان مثلاً إذا مُثِّلَ له بالنور تأكد في قلبه المقصود، والزاهد في الكفر إذا مُثِّلَ له بالظلمة تأكد قبحه في نفسه، وفيه أيضاً تبكيت الخصم، وقد أكثر تعالى في القرآن من ضَرْب الأمثال.

وكتابنا هذا شرح مُيَسّر سهل العبارة، خالٍ من التعقيد إنْ شاء الله على أمثال القرآن الكريم، استقيته من أغلب التفاسير التي بين أيدينا، فلأصحابها الفضل، بعد الله جلّ وعلا. وكان في البداية عبارة عن دُرُوس رمضانية، ولَمّا كان العلمُ يُنسى، قيّدتها في كتابٍ، رجاءَ ثوابها والانتفاع بها.

واعلم أنّ الشرح إلقاءً وكلاماً يختلف عن التقيد والكتابة، فهناك كلامٌ يصلح سماعاً لا كتابةً، وخاصة التفسير، لِما فيه من التدبر والتذوق والحلاوة والإشارات والكنايات ونزول السكينة والرحمة، والتفاعل معَ المستمعين، فهذه أشياء تُستَشعَر ولا تُكتب، فقيدتُ في هذا الكتاب ما استطعتُ تقيده مِمّا وفقني إليه ربي من التفسير والتوضيح والتقريب لمعاني أمثال القرآن، وما فيها من الوقفات التدبرية والبلاغية، وللهِ الحمدُ والمنّة. وكانت طريقتي في شرح المثل كالتالي:

١ ـ بيان معنى بعض مفردات المثل.

٢ ـ بيان ما قبل المثل وما بعده لتمام المناسبة والمعنى.

٣ ـ شرح ظاهر المثل أحياناً، ثم شرح المقصود من المثل؛ لأنه أحياناً يكون الظاهر غير مراد.

٤ ـ بيان العبرة من المثل.

٥ ـ ذكر بعض الفوائد التدبرية والبلاغية والنحوية التي تتعلّق بالمثل، ولم تُذكرْ في الشرح.

احتجتُ في أول الأمثال أنْ أذكر ظاهر المثل، ثمّ الدخول في مقصوده ومعناه وتفسيره، والمراد منه، والتدبر فيه، حتى يعلم القارئ أنّ للقرآن ظاهراً ومقصوداً، فأحياناً يُكني سبحانه بالظاهر المتعارف عليه عن المقصود؛ وذلك بحسب التنزيل والزمان والقوم المنزَّل عليهم، واللغة التي دَرَجُوا عليها، وكذلك لِيحتمل اللفظُ جميعَ الأزمنة إلى قيام الساعة. ولا أقصد أنَّ الظاهر للعوام، والمقصود أو الباطن للخواص، لا وإنما أقصد بـ: (المقصود) المعنى، والمفهوم، والإشارة من المثل، والتدبر فيه، وإنزاله على الواقع.

فكما هو معلومٌ أنّ للقرآنِ عامّاً وخاصّاً، ومجملاً ومفصلاً، ومبيناً ومطلقاً ومقيداً، وظاهراً ومؤولاً، وفيه كنايات وإشارات، وفيه ما يقتضيه اللفظ، وكلها تُؤخذ بنظر الاعتبار.

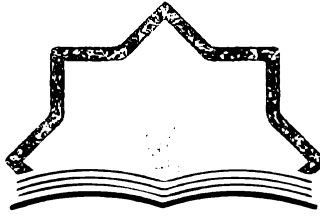
والأصلُ في التفسير وفي جميع الأحكام هو الأخذُ بظاهر الألفاظ إلا بقرينة تصرفها عن ظاهرها، فأردتُ تقريبَ معاني الأمثال ما استطعتُ، مع أنّ كلّ مثل بحر لا ساحل له، ومِن الله التوفيق.

واعلمْ أن الشرحَ إلقاءً وكلاماً يختلف عن التقيد والكتابة، فهناك كلامٌ يصلح سماعاً لا كتابة، وخاصة التفسير، لِما فيه من التدبر والتذوق والحلاوة والإشارات والكنايات، ونزول السكينة والرحمة، والتفاعل مع المستمعين، فهذه أشياء تُسْتَشْعر ولا تُكتب، فقيدتُ في هذا الكتاب

ما استطعتُ تقييده مما وفَّقني إليه ربي من التفسير والتوضيح والتقريب لمعاني أمثال القرآن، وما فيها من الوقفات التدبرية والبلاغية، ولله الحمدُ والمنّة.

فأسألُ اللهَ أنْ يكونَ هذا العملُ خالصاً لوجهه الكريم وأنْ ينفعَ به المسلمين، فما كان فيه من صواب فمِن الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمني والله ورسوله منه براء، وصلِّ اللهم وسلِّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

محمَّد جبَّار خلف سالم العامريّ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

الأمثال القرآنية: من أعظم علوم القرآن، وأساليبه العلمية والبلاغية، فيها البيان والفرقان والتعليم، ولها أهمية كبيرة في تقريب المعنى البعيد إلى ذهن المُخاطَب، وتصويره كأنه محسوسٌ مشاهَدٌ أمامه، وعِلمٌ مستقِلٌّ في توضيح الغامض، وإبراز الحقائق، وإقناع المعاند، وإزالة الإشكال والاشتباه، وإقامة الحجَّة، وبيان المحجة التي لا يزيغُ عنها إلا هالك.

كما في الأمثال من الجمال واللطائف والترغيب والاختصار ما يجعلُ القارئ ينبسط، ويسترسلُ معها.

قال الزمخشري في الكشاف: ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأنٌ ليس بالخفيّ في إبراز خبيّات المعاني، ورَفْع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقَّق، والمتوهم في معرض المتيقّن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألدّ، وقمعٌ لسَوْرةِ الجامح الآبِي.

قال الزركشي: ضَرْبُ الأمثالِ في القرآنِ يُستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وترتيب المراد للعقل، وتصويره في صورةِ المحسوس؛ بحيث يكون نسبتُه للفعل كنسبةِ المحسوس إلى الحس، وتأتي أمثالُ القرآنِ مشتملة على بيانِ تفاوتِ الأجر، وعلى المدح والذّمّ، وعلى الثوابِ والعقاب، وعلى تفخيمِ الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمرٍ أو إبطال أمر.

قال الرازي في مفاتيح الغيب: إنَّ في ضرب الأمثال زيادةَ إفهام وتذكير وتصوير للمعاني، وذلك لأنّ المعاني العقلية المحضة لا يقبلها الحسُّ والخيال والوهم، فإذا ذكر ما يساويها من المحسوسات ترك الحس والخيال والوهم تلك المنازعة، وانطبق المعقول على المحسوس، وحصل به الفهم التامّ والوصول إلى المطلوب.

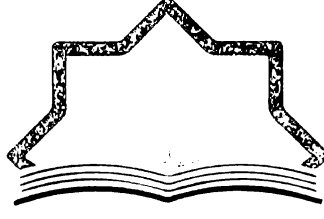
قال الشوكاني في فتح القدير: وقد تقرر عند علماء البلاغة أنّ لضرب الأمثال شأناً عظيماً في إبراز خفيات المعاني، ورفع أستار محجبات الدقائق؛ ولهذا استكثر الله من ذلك في كتابه العزيز، وكان رسولُ الله ﷺ يُكثر من ذلك في مخاطباته، ومواعظه.

مفهوم المثل: هو الشبيهُ والنظير، وهو عبارةٌ عن ألفاظ موجزة فيها حكمة بالغة، تُلَخِّصُ لك تجربةً طويلة بأحسن تشبيه، فالناسُ يحبون الاختصار والإيجاز في الكلام، وخاصة العرب، وكذا جاءت أمثال القرآن.

وأما تعريف المثل القرآني: فهو إبرازُ المعنى في صورة رائعة موجزة لها أثرها في النفس.

قال الشوكاني: وأصلُ المثل: جملةٌ من الكلام متلقاة بالرضا والقَبول، مُسَيَّرة في الناس مستغربة عندهم، وجعلوا مضربها مثلاً لموردها، ثمّ قد يستعيرونها للقصة أو الحالة أو الصفة المستغربة؛ لكونها مماثلة لها في الغرابة.

وقال أبو السعود في إرشاد العقل: يقال: مِثْل ومَثَل ومثيل، كشِبْهٍ وشَبَه وشبيه، ثم أُطلِق على القول السائر الذي يُمثّل مَضْرِبُهُ بمورده، وحيثُ لم يكن ذلك إلا قولاً بديعاً فيه غرابةٌ صيَّرَتْهُ جديراً بالتسيير في البلاد، وخليقاً بالقَبول فيما بينَ كلِّ حاضرٍ وبادٍ، استُعير لكلِّ حالٍ أو صفةٍ أو قصة لها شأن عجيب، وخطرٌ غريب من غير أنْ يلاحَظ بينها وبينَ شيءٍ آخرَ تشبيهٌ.



الأمثال موجودة في جميع الأمم

ضَرْبُ الأمثالِ: موجودٌ في جميع الأمم والشعوب والثقافات والديانات قديماً وحديثاً، وما زال الناسُ يضربون الأمثالَ في مجالسهم وأفراحهم وسَمرهم واجتماعاتهم، وفضّ خصوماتهم ونزاعاتهم، ويُكنون بها عن حاجاتهم.

كما هو أسلوب بديع من أساليب العرب الذائعة الشائعة بينهم والمحببة إلى نفوسهم، والتي تكثر في كلامهم وخطبهم وقصصهم، ولا تخلو منها مجالسهم؛ لذلك أكثر منها سبحانه في كتابه على ما تعوَّدتْ عليه العرب والناس، وألفوه في أنديتهم وأشعارهم، وجاء بها على أحسن الصور، وأبلغ البيان المتضمّن للحكمة البالغة، والمعاني العميقة الكثيرة الجميلة التي تؤثر في النفوس، وتستقر في القلوب؛ لِيبيّن لهم عن طريق الأمثال الحقّ من الباطل، والكفر مِن الإيمان، قَال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

لاحظ قوله: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، فلم يتركْ سبحانه مثلاً يحتاج إليه الناسُ لفهم دينهم ودنياهم وأُخراهم وعبادة ربهم إلا وضربه لهم، فقد ضرب أمثالاً للمؤمنين، وللكافرين، وللمنافقين، وللمشركين، وللموحدين، وللغافلين، وللمعرضين، ووضح لهم الأحوال، وبيّن لهم المآل، مع روعة التصوير، وبلاغة البيان، وسهولة العرض.

وكل الأمثال المضروبة في كتاب الله للناس، من الواقع المألوف

المُعاش عندهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

الغاية العامة من الأمثال القرآنية:

منها للتذكُّر والتفكُّر والاتعاظ، وبيان السَّبيل، وإصلاح النفوس، وتهذيب الأخلاق، وتصحيح الاعتقاد، وتنبيه الغافلين، وتحذير المعرضين، وللترهيب والترغيب، والمدح والذّمّ، والهداية إلى الصِّراط المستقيم. قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ومنها لإقامة الحجَّة البالغة على عباده، وأنه لم يعذب أمة بتكذيبها إلا بعد أنْ بيّنَ لها وضرب لها الأمثال، قال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٩].

الغاية المقصودة من ضرب الأمثال القرآنية:

أكثر الأمثال التي ضربها ﷻ في كتابه هي للدلالة على توحيده وعظمته والإيمان به، والإيمان باليوم الآخر، وإبطال الشرك والباطل، وإبطال دعاء غير الله، وبيان حقارة الدنيا، وسوء عاقبتها، وقلة أيامها.

وبيّنَ سبحانه أنه ضرب للناس الأمثال التي يتعرّفون بها على الهدى والضَّلال، والخير والشر، والحق والباطل، وما آل إليه أهلها من العواقب الحميدة، أو النهايات الأليمة، لئلا يكون للناس على الله حُجَّة بعد بيان الحقّ، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣].

وَذَكَرَ سبحانه أنّه لا يستحي أنْ يضربَ أيَّ مثلٍ للناس يهتدون به إلى

الحق وينجون به من الضَّلال، رحمة بهم، قَال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٦].

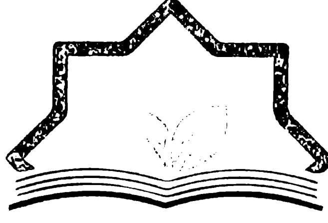
وأخبر سبحانه أنّ الأمثالَ التي ضربها للناس في كتابه أنّه مَن عَقَلها وفهمها وتدبرها كانَ من العلماء، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. ومَن عمل بها ودعا إليها كانَ من العلماء العاملين.

طريقة القرآن في ضرب الأمثال:

قاعدة المثل: نجد أنّ الله سبحانه يذكر قضية بينَ الحقّ والباطل أو قصة أو حادثة أو صفات قوم أو حواراً في الآيات التي تسبق المثل، ثم يضرب لتلك القضية المثل الموضح لها تمام التوضيح والبيان.

ويأتي بالمثل والوصف دون التعيين أو التخصيص؛ لأنّ القصد بالأمثال صرف المكلَّف عنه إذا كان قبيحاً، والدعاء إليه إذا كان حسناً، وذلك يتمّ به من دون التعيين أو ذكر الأشخاص، إلا من اشتهر بأمر عظيم مثل جالوت وقارون، ثم بعد المثل يُرشد سبحانه القارئَ أو السامعَ إلى ما ينفعه في دنياه وأخراه، فكلّ مثل متعلّق بما قبله وما بعده من الآيات.





أمثال القرآن
المثل الأول والثاني
في بيان حال المنافقين مع الإيمان والقرآن

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ
بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ
بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ
شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧ ـ ٢٠].

❖ **تمهيد:**

انقسم الناسُ في المدينة إلى ثلاثة أقسام: (مؤمنين، وكافرين، ومنافقين)، فالمؤمنون آمنوا بالله ظاهراً وباطناً، والكافرون كفروا بالله ظاهراً وباطناً، فهذانِ القسمانِ واضحانِ، أمّا الإشكال والخطر فكانَ مِن المنافقين إذ آمنوا ظاهراً وكفروا باطناً؛ لذلك ذكر الله أولَ خمس آيات من كتابه في حقّ المؤمنين، وآيتين في حق الكافرين، وثلاث عشرة آية في حق المنافقين؛ لِخطرهم ومكرهم، وخفاء أمرهم.

ذكر سبحانه صفاتهم وأحوالهم في الآيات التي سبقت المثلينِ، مِن انتفاء الإيمان عنهم، واستهزائهم بالمؤمنين، وتسميتهم بالسفهاء، ثُمّ ختم

صفاتهم القبيحة بضرب مثلين فيهم؛ لبيانِ حالهم، وكشفِ ما في قلوبهم، وهما أول مثلينِ يبتدئ بهما سبحانه الأمثال في كتابه.

لماذا بدأ سبحانه بضرب الأمثال عن المنافقين دون غيرهم؟

بدأ سبحانه بضربِ الأمثال عن حال المنافقين دون غيرهم من أصناف المُعارضينَ للإسلام؛ لِيبيّنَ سبحانه خطورة النفاق والمنافقين في كلّ زمان ومكان، فالمنافقون أشدّ خطراً وأعظم ضَرراً، على المسلمين من الكافرين والملحدين والمحاربين والمُعْرِضِين والمعارضين وغيرهم؛ لأنّ هؤلاءِ ظاهرون واضحون معروفون للمسلمين في كفرهم وعداوتهم، فالمسلم على حذر منهم.

أما المنافقون فيُظهرون الإسلامَ والحرص والحبّ للمسلمين، ويُخفون الكفر والكره والعداوة لهم، فالمسلم قد أمِنَ جانبهم على اعتبارهم مسلمين، فلا يكون على حذر منهم، فهو لا يعرف بنفاقهم ولا بمكرهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]. فإذا تمكنوا من الغدر والخيانة غدروا بالمسلمين، وأوقعوا بهم أشدَّ الوقيعة كما حصل في معركة أُحد وغيرها من أحداث التاريخ؛ لذلك كان عقابهم في الآخرة أشدّ من عقاب الكافرين، فهم في الدَّرك الأسفل من النار؛ لذلك بدأ الله بضرب الأمثال عنهم دون غيرهم، والله أعلم.

أنواع النفاق

النفاق على قسمين:

الأول: النفاق الأصغر، ويُسمَّى (النفاق العملي)؛ لأنّه يتعلّق بما يقوم به المسلم من ذنوب قولية أو عملية ظاهرة، لا تتعلّق بالقلب، وهو طريقٌ إلى النفاق الأكبر، فالنفاق العملي معصية إلّا أنّ صاحبها يبقى مسلماً وفي

دائرة الإسلام؛ لأنه في قلبه مُقِرٌّ بالإسلام، قال ﷺ: **«آيَةُ المُنافِقِ ثَلاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وعَدَ أخْلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ»** [متفق عليه].

الثاني: النفاق الأكبر، ويُسمَّى (النفاق الاعتقادي)؛ لأنّ محلَّهُ القلب، وهو الذي يُظهر الإسلام والإيمان، ويصلي ويصوم معَ المسلمين، ويُظهر لهم المحبة، ويُبطن الكفر والكره والعداوة للمسلمين، ويكيد بهم، فهو غير مُقِرٍّ بالإسلام في قلبه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]. وصاحب هذا النوع من النفاق كافر، وهو المقصودُ بالمثلين.





المثل الأول

ويُسمَّى (المثل الناري)

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧ ـ ١٨].

❖ شرح المفردات:

(مثلهم): صِفتهم وحالهم.

(استوقد): أوقد ناراً، أي: طلب ما يُوقِد به ناراً، فالسين والتاء تدلانِ على الطلب.

(حوله): المكان القريب.

(صمٌّ، بكم، عميٌ): لا يسمعون، ولا ينطقون، ولا يبصرون.

شرح ظاهر المثل

مثلُ المنافقين المطابق لهم في صفتهم ونفاقهم، كمثل رجل طلب ناراً من غيره، كان في ظلمة عظيمة، وحاجة شديدة إلى النار؛ ليبدد الظلمة ويُضيء المكان، فاستوقدها من غيره؛ لأنّ السين والتاء في (استوقد) تدلُّ على الطلب، فلما أضاءت النار ما حوله، ونظر إلى المكان الذي هو فيه، وذهبت الظلمة، وأَمِنَ الوحشة، وانتفع بتلك النار، وقرّت بها عينُهُ، واستقرت بها نفسُهُ، فبينما هو كذلك يظنّ أنّ الحالة مستقِرةٌ ومستمِرةٌ، إذ

ذهبَ الله بنوره، فذهب عنه النور، وذهب معه السُّرور والحبور، وبقي في الظُّلمة المعتمة، فذهب ما في النار من الإشراق والضياء، وبقي له ما فيها من الإحراق والعذاب؛ لأنه سبحانه قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقلْ بنارهم، فعبّر بالنور؛ لأنه المقصودُ من الاستيقاد، فبَقِيَ في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السَّحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، وعاد إليه الخوف والحيرة.

التدبر في المثل

مثلٌ ضربه الله لِمَن آمَنَ وعَلِمَ، ثم نافق ورجع، قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، مثل المنافق في المدينة مع المسلمين وفي كلّ زمان ومكان إلى قيام الساعة، كمثل الذي استوقد نار الإيمان والإسلام من المؤمنين، كي يُنير قلبه وطريقه، ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾، فلمّا أضاء نورُ الإسلام حياتهم مع المؤمنين، وعرفوا وعلموا وأبصروا، وانتفعوا بإسلامهم الظاهر، وحُقِنت به دماؤهم، وسَلِمَت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا، وعرفوا الحلال من الحرام، والخير من الشرّ، بل وأخذوا يُشاركون المسلمين المغانم والمكاسب والمنافع والمواريث.

فبينما هم على ذلك يعيشون في حُبور وأمان مع المؤمنين في إسلامهم الظاهر يظنّون أنهم قد خدعوا المسلمين، واحتالوا عليهم، وأخذوا نصيبهم، فبينما هم في هذه الحالة إذ ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، إذ هجم عليهم الموت، وانتزع أرواحهم، فسلبهم الانتفاع بذلك النور الظاهر الذي شاركوا به المسلمين المنافع؛ لأنه لم يرسخ في قلوبهم، ولم يعتقدوا به صدقاً، بل كان لمصلحة ظاهرة، فكشفهم الله وفضح حالهم وما في قلوبهم، وحصل لهم كلُّ همٍّ وغمٍّ وعذابٍ، ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

فكان بقاء المستوقِد في ظلمات لا يبصر كبقاء المنافِق في حيرته

وتردّده، وآلوا إلى ظلمة القبر، ودخلت معهم في قبورهم ظلمات الكفر والنفاق؛ لأنه هو الذي رَسَخَ في قلوبهم وطُبِع فيها، وكذلك ظلمة المعاصي على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمة النار خالدين فيها، كما أخبر تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

فلهذا قال تعالى عنهم في ختام المثل: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾، أي: صُمٌّ عن سماع القرآن وصوت الإيمان والحق والخير، وبُكْمٌ عن النطق بالحقِّ، وعُمْيٌ عن رؤية الحقّ، وإلا هم في الحقيقة يسمعون ويبصرون ويتكلمون في كلّ شيء إلا في الحقّ، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ﴾ [المنافقون: ٤].

فـ(السمع والبصر والنطق) وسائل العلم إلى القلب، ومعرفة الحق، فهم جعلوا هذه الوسائل للباطل، ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، أي هم بسبب اتصافِهم بالصِّفات المذكورة لا يعودون إلى الهدى والإيمان والحقّ والقرآن بعد كفرهم ونفاقهم؛ لأنهم عطّلوا وسائل العلم عن علم، وختم الله على قلوبهم فلا يدخل الحق إليها ولا يخرج الباطل منها، فتركوا الحق بعد أنْ عرفوه، فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال، فقد يكون معذوراً، وهو أقرب رجوعاً منهم.

وهكذا مَن عرف الحق ثم جحده، وعرف الدنيا والآخرة فركن إلى الدنيا، وترك الآخرة، يُوصف بأنه أصمُّ أبكمُ أعمى عن كلِّ خير وحقٍّ وهدى؛ إذ ما فائدة السمع والبصر واللسان إذا لم يستعملها في معرفة الحق، وطُرق الخير، والوصول إلى مرضاة الله، والفوز بجنته؟! فحاله كحال الأصمّ الأبكم الأعمى.

فهذا المثل يصوِّر تمثيلَ إيمانهم أوّلاً، ثم كفرهم ثانياً، فيكون إذهاب النور في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ [المنافقون: ٣].

فلما آمنوا أضاء الإيمان في قلوبهم، كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا ناراً، ثم لمّا كفروا ذهب الله بنورهم كما ذهب بضوء هذه النار، وعلى هذا فالتمثيلُ مرتبط بما قبله.

فإنهم لَمّا وُصفوا بأنهم اشتروا الضَّلالة بالهدى مثّل هداهم الذي باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد والضَّلالة التي اشتروها، وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم، وتركه إيّاهم في الظُّلمات، فهذا حالُ الذين اشتروا الضَّلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة.

التدبر والبلاغة

التدبر: هو فهمُ الآية ومعرفةُ المقصد منها، ودلالتها، وما تؤول إليه، وعاقبة الأمور منها، بالنظر فيها والتأمل والتفكر في معانيها. والتدبر هو المقصود الأول من إنزال القرآن، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

أما البلاغة في كلام الله سبحانه فهذه تحتاجُ إلى فرسانها مِن أهل اللُغة والعرفان، والفصاحة والبيان، ومَن لهم باع في النظر في كتاب الله وتدبُّره، ومَن مَنَّ الله عليهم بعلم وافر، واطّلاع واسع في قواعد اللغة العربية وعلومها وتراكيبها ولهجاتها، والغوص في أسرارها.

ولا أقصدُ بالبلاغة هنا حَصْرها في علم (المعاني والبيان والبديع)، وإنما أُريد الغوص في إدراك الغاية من الكلام، وجمال الأسلوب، واستخراج المعاني الدقيقة، والإشارات واللطائف.

نسأل الله أنْ يرزقنا الصدق والإخلاص في القول والعمل، وفهمَ العلمِ وحفظَه، وأنْ يجنبنا الشرك والرِّياء والغلو والجهل والفتن، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: قوله: ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾، مادة (استفعل) تدلّ على الطلب دائماً، إلا إذا كان الخطاب من الله، فيكون لها معنىً آخر، كقوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ﴾ [التغابن: ٦]. (استغنى) ليس معناه طلب الغنى، وإنما معناه الترك، أي: تركهم لا يبالي بهم.

الثانية: قوله: ﴿نَارًا﴾، نكرة، وتنكيرها للتفخيم.

الثالثة: قوله: ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ﴾، وُصِفت هذه النار بالإضاءة مع كونها نارَ باطلٍ؛ لأنّ الباطل تعلو ناره لحظة ثم تخفت فكذلك الباطل. ومنه المثل: «للباطل صولة ثم يضمحلّ».

الرابعة: قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، تعديةُ الفعل بالباء في (بنورهم) دون الهمزة لِمَا فيه من معنى الاستصحاب والإمساك والأخذ، أي: أخذ الله نورهم، فهو أبلغ وأعظم من قوله «أذهبَ اللهُ نورَهم» فهنا ليس فيه معنى الأخذ والإمساك.

الخامسة: قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، خالف سبحانه بين الإضاءة والنور، والفرق بينهما: أنّ الضوء فيه عموم وزيادة على النور ومساحة وحرارة واتساع للرؤية، بخلاف النور إذ ليس فيه حرارة، وقد يكونُ انعكاساً للضوء، تأمل قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

فالفرق واضحٌ بين ضوء الشمس ونور القمر، فقوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، حتى لا يبقى معهم شيء يُبصرون به، ولو قال: (ذهب الله بضيائهم)، لبقي معهم أصل الضياء وهو النور.

فعبّر سبحانه عن القرآن والإسلام بالضياء لقوة الإضاءة في القلب وما حوله، وعبَّر عن النفاق والكفر بذهاب النور، حتى لا يبقى مع المنافق لا أصلٌ من النور ولا تبعٌ من الضياء في الدنيا ولا في الآخرة.

فالنورُ أصلُ الضوء، فالذهاب بالنور هو ذهاب للضوء أيضاً، لكن لو عبّر بذهاب الضوء لذهبت الزِّيادة دون الأصل، فقد يُتوهم أنّ النور موجود، وأنّ ما ذَهَبَ إضاءته فقط، كما أنّ الله تعالى وصف نفسه بالنور، فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]. كما وصف القرآن بالنور، قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

ووصف الدِّين بالنور، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وكذلك الصلاة نور. فهؤلاء المنافقون محرومون من كلّ أنواع النور.

السادسة: قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، في الآيات التفات من المفرد إلى الجمع، فـ (حوله) مفرد، وأعاد عليه الضمير في ﴿بِنُورِهِمْ﴾ بالجمع، فالضمير يعودُ على جمعٍ من المنافقين، لا على المكان؛ لأنّ الضمير في ﴿حَوْلَهُۥ﴾ يُشير إلى المكان، والله تعالى يُريد إذهابَ النور من قلوب المنافقين لا من المكان المضاء. بدليل ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ أي: المنافقين. أو على تقدير: استوقدها مستوقِد لهم فأطفأ الله النار من المستوقِد، فبقي أي: الذي جاء بالنار هو وأصحابه المنافقون في ظلمات لا يبصرون، وهذا تصوير حسيٌّ للمثل، والله أعلم.

السابعة: قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، وحّدَ النور، ثم قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾، وجمع الظُّلمات؛ وذلك لأنّ الحق واحد هو الصِّراط، بخلاف طُرق الباطل؛ فإنها متعددةٌ متشعبةٌ، ولهذا يُفردُ سبحانه الحق، ويجمع الباطل في كتابه، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

الثامنة: قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، أي في الدنيا والآخرة، ولو كان

لهم نور في الدنيا لَمَا كانوا منافقين، فهم كذلك في الآخرة يريدون أنْ يستوقدوا النور من المؤمنين كما فعلوا في الدنيا ليبصروا الصِّراط، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٣ ـ ١٤].

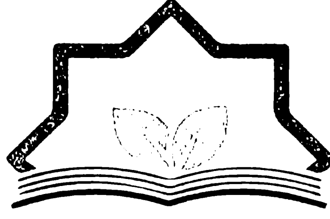
التاسعة: قوله: ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾، تنكير ظلمات وجمعها يدلّ على التفخيم والتكثير والتهويل؛ لأنّ التنكير والتنوين في اللغة يدلانِ على العموم والشيوع.

العاشرة: قوله: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ عدم البصر لا يتحقق إلا بعد ألّا يبقى من النور عينٌ ولا أثر، أي: لا يبصرون أيَّ شيء من نور الإسلام؛ لأنّ (لا) النافية إذا دخلت على المضارع أفاد العموم، أو قل: الفعل في سياق النفي يفيد العموم.

الحادية عشرة: قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، جملة اسمية تفيد الثبات بخلاف الآية قبلها ختمها بجملة فعلية؛ ليدل على ثبات حالة الخوف وتشتت المشاعر فيهم، وعدم رجوعهم إلى الهدى.

الثانية عشرة: قوله: ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾، (يرجعون) أفاد العموم والاستمرار؛ لأنه في سياق النفي، يدلّ على استمرارهم في الكفر والنفاق وعدم رجوعهم.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبينا محمد، والحمد لله ربّ العالمين.



المثل الثاني

ويُسمّى (المثل المائي)

وهو قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٩ ـ ٢٠].

❖ **شرح المفردات:**

(**الصيّب**): المطر الغزير.

(**الظُّلمات**): جمع ظلمة، وهي ظلمة الليل، وظلمة السَّحاب، وظلمة المطر.

(**الرعد**): الصوت القاصف يُسمع حال تراكم السحاب ونزول المطر.

(**البرق**): ما يلمع من نور حال تراكم السَّحاب ونزول المطر.

(**الصواعق**): جمع صاعقة: نارٌ هائلةٌ تنزل أثناء قصف الرعد مع صوت شديد. ويقال لكلّ عذابٍ مهلكٍ: صاعقةٌ.

(**حَذَرَ الموت**): توقياً للموت.

(**محيط**): المحيط: المكتنف للشيء من جميع جهاته.

(**يكاد**): يقرُب.

(**يخطف**): يأخذه بسرعة.

(أبصارهم): جمع بصر، وهو العين المبصرة.

شرح ظاهر المثل

مثلٌ آخر ضربه الله لحال المنافقين تمثيلاً بعد تمثيل، ليعمّ البيانُ منها كلَّ دقيق وجليل، ويوفي حقها من التفظيع والتهويل، فمَن تفننَ في الكفر والضَّلال حقيقٌ بأنْ يُضرب في شأنه الأمثال، فهذا مثلٌ آخر معطوف على المثل السابق، فيه بيان ما في قلوب المنافقين من جواذب ودوافع عند سماع القرآن، وفساد وشرّ وسخرية بالمسلمين.

ومعناه: أنَّ مثل المنافق كمثل رجل نزل عليه الصَّيب الكثير من السماء، و«الصَّيب» المطر الغزير الذي ينزل بشدة، من جميع جهات السَّماء في ظلمة الليل، والسَّحاب، ومع المطر رعد قاصف يكاد يذهب بالأسماع، وبرق خاطف يكاد يذهب بالأبصار من قوتهما وشدتهما، يجعلون أصابعهم في آذنهم خوفاً من المطر والظلمة والرعد والبرق أنْ يقصفَ أدبارهم، ويأخذَ أعمارهم، كلّما أضاء البرق في تلك الظُّلمات، مشوا فيه بعض الخطوات، وإذا ذهب نورُ البرق وقفوا من شدة الخوف حائرين قَلِقين. هذا حالُ المنافق في دولة الإسلام القوية، في خوف وقلق وذلة، ويجب أنْ يكون هذا حاله جزاء نفاقه وخسته.

التدبر في المثل

مَثَلٌ ضربه الله للقرآن وصنيع المنافقين والكافرين معه، فـ(المطر) الإيمان والقرآن؛ لأنهما حياةُ القلوب كما أنّ المطر حياة الأرض والأبدان، و(الظُّلمات) ما في القرآن من ذكر الكفر والشرك والمعاصي والفواحش، و(الرعد) ما خوّف به سبحانه من الوعيد، وذكر النار والحساب، و(البرق) ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة، و(الصواعق) قوة آيات القرآن في حثّها وبيانها وزجرها، تنزل على

المنافقين كالصَّواعق التي تفضحهم وتكشف نفاقهم، قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾، المنافقون والكافرون يجعلون أصابعهم في آذانهم عند قراءة القرآن وسماعه؛ لأنه ينزل عليهم كالصَّاعقة يقرع أسماعهم، ويدمي قلوبهم بحقائقه الواضحة، التي تكسر غطرستهم، وتُبيّن مكرهم وكيدهم وسوءة نفاقهم. كما قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

وقيل معناه أنّ المنافقين إذا رأوا في الإسلام بلاء وشدة هربوا حذراً من الهلاك، كما قال تعالى عنهم: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٧].

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، مدركهم لا يفوتونه، جامعهم لا ينفعهم هربهم، وأنّ ما أصابهم بسبب كفرهم، وكذلك كلّ كافر في زماننا وإلى قيام الساعة يُصيبه ما أصاب الكفار قبله.

ثم قال سبحانه: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾، أي: يكاد القرآن يبهر قلوبهم، ودلائله تزعجهم؛ لأنها تُبيّنُ ضلالهم وحالهم ومصيرهم، ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾، إذا أصاب المسلمين خير قالوا: نحن مسلمون، وطالبوا بنصيب.

وقيل معناه كلما نالوا غنيمة وراحة في الإسلام ثبتوا، وقالوا إنّا معكم، ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾، وإذا أصاب المسلمين شرٌّ وقتلٌ، قالوا: قد أنعمَ اللهُ علينا إذ لم نكن معهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]. وكما قال الله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٥٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾، أي: بأسماعهم ﴿وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ الظاهرة كما ذهب بأسماعهم وأبصارهم الباطنة، وقيل: لذهب

بما استفادوا من العزِّ والأمان الذي لهم بمنزلة السمع والبصر، أو لَمّا كانَ المنافقون والكافرون مبتلين بالصَّمم، والبكم، والعمى المعنوي عن الحقّ، ومسدودة عليهم طرق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي: الحسية، ففيه تحذيرٌ لهم وتخويف بالعقوبة الدنيوية، ليحذروا، فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم، ولكنّهُ سبحانه لم يُذهب سمعَهم وأبصارهم؛ لِيعيشوا العذاب، ولِتبقى عليهم الحجَّة قائمة، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ مؤكداً سبحانه قدرته على ما تقدّم وغيره، فلا يعجزه شيء، ومن قدرته أنه إذا شاء شيئاً فعله من غير ممانع ولا معارض. ولقد نوَّه الإمام البغوي في تفسيره (معالم التنزيل) على معنى ما تقدّم من التأويل.

قال أبو السعود: شُبِّه (القرآن وما فيه من العلوم والمعارفِ التي هي مدارُ الحياة الأبدية) بـ: (الصَّيب الذي هو سببُ الحياة الأرضيةِ). وشُبِّه (ما عَرَض لهم بنزوله من الغموم والأحزان وانكساف البال) بـ: (الظُّلمات)، وشُبِّه (ما في القرآن من الوعد والوعيد بـ: الرعدِ والبرقِ، وتصامِّهم عمّا يقرَع أسماعَهم من الوعيد) بـ: (حال مَن يَهُولُهُ الرعدُ والبرق فيخاف صواعقَه فيسدُّ أذنه عنها)، ولا خلاصَ له منها، وشُبِّه (اهتزازُهم لِمَا يلمع لهم من رَشَدٍ يدركونه أو رِفد يُحرِزونه) بـ: (مشيهم في مَطْرَحِ ضوء البرق، كلّما أضاء لهم، وتحيُّرهم في أمرهم حين عَنَّ لهم مصيبةٌ) بـ: (وقوفهم إذا أظلم عليهم).

فلمّا ضرب سبحانه المثلَ المُبيّن لحال المنافقين مع القرآن والإسلام والمسلمين، وبيّنَ أمرهم، وفضح فعلهم، أرشد الناس إلى عبادته بيقين وإخلاص لعلهم يتقون عذاب الله بفعل ما أمر وترك ما نهى، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

العبرة من المثلين

إنّ الله ﷻ فاضح المنافقين ومعذبهم ومخزيهم في الدنيا والآخرة،

وساتر المؤمنين الموحدين المخلِصين، ومكرمهم في الدنيا والآخرة، ففي هذين المثلينِ يوضح سبحانه حال المنافقين، وبيان شناعة أعمالهم وسوء أفعالهم، تنكيلاً بهم، وفضحاً لأمرهم، في مرحلة قوة الإسلام، وعزة المؤمنين، وتطبيق أحكام الدين، فهذانِ المثلانِ يصورانِ حالة القلق والحيرة والاضطراب والخوف عند المنافقين، وسرعة انكشافهم، وتخبطهم في ظلمات النفاق والكفر والشك، حين ظهر الإسلام، كما قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٦٤]. خائفون من الفضيحة أنْ تنزل بهم في أيّ لحظة، لعلمهم بأنّ هذا الدين حقّ.

فهم يسمعون القرآن، ويفهمون معناه، ويرون المسلمين والحقَّ الذي معهم، ولكن نفوسهم خبيثة لئيمة حاقدة حاسدة، وأخلاقهم سيئة، لذا انعدم إيمانهم؛ فصدّهم الله عن الهداية بسبب أعمالهم ونفاقهم وأصحاب السوء الذين يُلازمونهم؛ لأنهم إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم ورجعوا إلى النفاق.

لم يستطع المنافقون أنْ يدخلوا الإسلام بصدق؛ حسداً للمسلمين، وتكبراً عليهم، وغيظاً منهم، وهذا هو المرض الذي ذكره الله أنه في قلوبهم؛ وذلك أنهم كانوا يظنّون أنّ النبي مبعوث منهم فلمّا بُعِث من العرب حسدوهم وأضمروا لهم العداوة والغدر، وما استطاعوا الكفر البواح خوفاً من القتل والسلب، وذهاب منافعهم؛ لذلك صاروا منافقين مزدوجي الشخصية، باطنهم غير ظاهرهم.

فقد يضيء النفاق لصاحبه الدرب حيناً قصيراً في هذه الدنيا، ويستطيع خداع المسلمين وغيرهم بنفاقه وتملّقه وتزلّفه، وحلاوة لسانه ويعيش معهم على اعتبار أنه واحد منهم، كما هو مشاهد في كثير من الناس في عالَمِنا وزماننا، ثم سرعان ما ينكشف المنافق وينطفِئُ كما تنطفئ النار إذا صُبَّ عليها الماء، مِمَّا يجعل النفاقَ لا دوامَ له ولا استمرار، وحتى لو لم ينكشف أمرُ المنافق في الدنيا فهو يعيش في قلق دائم؛ لأنه قد ينكشف في

أيّ لحظة وهو حتماً في الآخرة مكشوف مفضوح لا محالة؛ لأنّ النتيجة ذهب الله بنورهم، وأبقى لهم النار في الآخرة، فأيّ فائدة بقيت لهم؟.

النفاق في زماننا

قد يجد المنافق الأمل في نفاقه لتحقيق غرضٍ أو مكسبٍ مادي رخيص، ثم تتبدد آمالهم، ويبقى في قلق واضطراب وفقر روحي وكره من الناس، طبعا هذا إذا كانت عزّة الإسلام ظاهرة، أما اليوم فكثير من المنافقين خرجوا عن أصول النفاق المعروفة وهي الاختباء وإظهار الإسلام والخير، وإبطان الكفر والشرِّ، وغيروا من ستراتيجيتهم بحسب الظروف ومتطلبات المرحلة، وأخذوا يُظهِرون نفاقهم وعداوتهم وكيدهم وحقدهم وكرههم على الإسلام وأهله علناً جهاراً نهاراً بكلّ وقاحة واستهتار في مناسبات كثيرة وبكلّ الوسائل في كل زمان ومكان، يُخَذِّلون المؤمنين في أشد الأوقات حاجة إلى النصرة، وقد يكون منافقو زماننا شرًّا من منافقي زمان النبي ﷺ بكثير، أولئك كان يُسرّون ويتملقون ويصلون، وإذا التقوا بالمؤمنين قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليهم الأنامل من الغيظ، وهؤلاء يعلنون ويتبجحون، وإذا خرجوا على القنوات قدحوا في المسلمين ولمزوهم وخدعوهم، ولهم نظامهم الذي يحميهم، وقانونهم الذي يُبيح لهم الطعن بحجة حرية الرأي وكفالة الحريات، وفي الظاهر يقول أنا مسلم، وقد يُخرج غيضُهم بعضَ ما في صدروهم من النفاق. فالنفاق شرٌّ كلُّهُ ولكن بعضه أهون من بعض.

أصبح المنافقون مقدمين ومؤيدين ومحترمين ومبدعين، ولهم الكلمة والسطوة ولهم كلّ الدعم؛ لأنّ النفاق أصبح صنعة يُتقنها كثير من الناس باحترافية ومهارة كبيرتينِ، ومهنة يُدَرَّسُ في أماكنَ كثيرةٍ من العالَم؛ وصار النفاق الاجتماعي ظاهرة منتشرة لها قانونها وأسلوبها، وقنواتها التي تبث فيها سمومها؛ بسبب ضعف الإيمان ومرض القلوب، وحبّ الدنيا، وغلبة الفكر المادي، والخدر والهوان الذي أصاب الناس، وسطوة الأعداء،

وذهاب الأخلاق، وانتشار الظلم وتطبيق القانون على الضعيف دون غيره، بل وأصبح التافه والمنافِق مُرَوَّجا له؛ لأنّ هذا زمان التافهين والساقطين والمنافقين، وأصبح الرجل الصالح المحافظ، والعالِم الناصح كالشامة بين الناس، بل يتطاول عليه السفيه الجاهل.

كَثُرَ المنافقون والتافهون في المجتمعات وصار «أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع» ولا رادع لهم بل يوجد مَن يؤيدهم ويُحرِّضُهم بل إننا نجد دعمَ التافهين والفارغين والفاسدين والمحرفين مادياً وإعلامياً وفكرياً وأخلاقياً دعماً مُتعمَداً وبقوة، وصنعوا منهم رموزاً كي يُقتدى بهم إلى كلِّ عملٍ تافهٍ، وخلقٍ فاسدٍ، وفكرٍ منحرفٍ، وبالمقابل إهمال المبدعين والكفوئين والمنضبطين وإقصاء أهل العلم والقيادة؛ وذلك لقلب الموازين وخلط الأمور، وإفساد أخلاق الناس، ونشر الفوضى والفقر؛ لِتسهل السيطرة على المجتمعات وخاصة الإسلامية، وقيادهم إلى حتفهم، وبالنهاية يريدون إنتاجَ أمةٍ تافهةٍ فارغةٍ، وجيلٍ جبانٍ ضاعٍ مفككٍ مخدرٍ مبتعِدٍ عن دينه وأخلاقه وأُصوله، كغثاء السيل، غير مدركٍ ولا واعٍ، لا يرتبط بماضٍ تليد، ولا يفكر بمستقبلٍ مجيد، يعيش حياة اللامبالاة، حياة اللهو واللعب ليس له رغبة في العلم ولا في النهضة ولا في الجهاد ولا في عزائم الأمور، وإنما همّه الأكل والسفر واللعب والعبث والرقص وكرة القدم وصغائر الأمور، حياة كحياة الأنعام بلا قضية، يُريدون منه أنْ تكون أعظم أهدافه أنْ يجد وظيفة مريحة.

ويُصَوِّرون للمرأة الإسلام بغطاء الرأس فلها أنْ تمارس كل المفسدات من اللعب والرياضة والرقص والغناء والعلاقات المحرمة، والملابس الضيقة ولكن فقط عليها أنْ تضع على رأسها غطاءً، إسلامها وأخلاقها في غطاء بعض رأسها، هذا ما يُراد بأمة الإسلام وشبابها. رجالا ونساءً، وهذه هي الخطة التي تُطبق بقوة واحترافية على العالَم الإسلامي، أنْ يكون

المسلم مسلماً نظرياً في الاسم والظاهر فقط، مناسبا لهم بلا مضمون ولا تطبيق على أرض الواقع، فما أعظم البلية! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد أخبر بهذا رسول الله ﷺ قال: «**سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**»، [رواه أحمد، وابن ماجه].

تطور النفاق بشكل كبير ولم يَعُدْ محصورا في دائرة النفاق الديني، بل صار اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً ودولياً وعالمياً وقلْ ما شئتَ.

ضرب النفاق بأطنابه سلوك الناس أفرادا وجماعات وعلاقات ومؤسسات إلا مَن رحمه الله، وصار مرضاً فتاكاً، وعُقَداً نفسية، تؤثر بقوة في مجتمعاتنا، فتجد الواحد أو الجماعة منهم يكرهون أخلاقاً ويحذرون منها وهم يطبقونها تمام التطبيق على أرض الواقع، ويعرفون أنها خطأٌ، كملابس أولادهم وبناتهم التي لا تمتُ إلى الثقافة والحضارة والدين بصلة، وانشغالهم بالأمور التافهة وتضيع الأوقات والصلوات والعبادات، وترك الكُتب والعلم والمصاحف والعكوف على الهواتف والقنوات، ومن النفاق الاجتماعي: الأعراف العشائرية في أخذ الدية، والرياء والخيلاء في العزاء وصنع الطعام، والتملق والتزلف لذوي المناصب والجاه والسلطان والمال وهم يتكلمون في أعراضهم ونزاهتهم، وإذا رأوا واحداً منهم صفقوا له وفسحوا له المجال وصوروا معه.

المنافقون عموماً من شرِّ الناس مكروهون مزيفون مخادعون، يكثرون عند الطمع، ويهربون عند الفزع، لكل واحد منهم وجهان ولسانان أو أكثر، جاء في صحيح البخاري، قال رسول الله ﷺ: «**تَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَيَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ**». كَثُرَ هذا النوع في

الناس، فالمنافق ما عاد يخاف فغيّر من خطته وأسلوبه وتحوّل إلى متلون ومتزلف ذي وجهين، يأتي كل طائفة وكل حزب وجماعة وكل مسؤول وشخص بما يرضيه فيظهر له أنه منها ومخالف لضدها، وأنه متسامح ووسطي ومعتدل ومنفتح وما هو إلا منتفع متزلف رخيص جاهل في أعين مَن تملق لهم قبل أنْ يكون رخيصاً في أعين قومه ومعارفه ساقطاً من عين ربه، ليس له مبدأ ولا ولاء ولا براء يريد تحقيق مصلحة ذاتية ضيقة، سرعان ما ينقلب عليه أسيادُهُ الذين يمجدهم ويحاول أنْ يرضيهم بسخط الله.

أظنُّ أننا نعيش في أقذر حقبة تاريخية وأخلاقية وفكرية، فكثير من الناس قد غمرتهم الفتن وركبتهم الشرور وطغى عليهم الفساد، وساءت أخلاقهم تماماً، إلا مَن رحمه الله واجتباه، نسأل الله العافية.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾، (أو) للتنويع وتخيير السامع، أي: المثل الأول، أو المثل الثاني فكلاهما يُبيّن لك صفة المنافقين.

الثانية: قوله: ﴿صَيِّبٍ﴾، جاء نكرة؛ لأنه أُرِيد به مطر هائل شديد الانسكاب كتنكير النار التي جاءت في المثل.

الثالثة: قوله: ﴿ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾، التنوين في الكل للتفخيم والتهويل، كأنه قيل: فيه ظلماتٌ شديدة داجية، ورعدٌ قاصفٌ، وبرقٌ خاطف، وجاء الجميع بالرفع للدلالة على القوة، ولتحقيق شرط العملِ بالاتفاق.

الرابعة: قوله: ﴿يَجْعَلُونَ﴾ عبَّر بالمضارع المستمر ولم يعبّر بالماضي كي يعطي إشارة أنّ الجعل مستمر، وأنّ المنافقين في كلّ زمان ومكان يهربون من سماع القرآن.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾، المقصود هو (الأنامل) رأس الأصبع الذي يدخل في الأذن، أما إدخال جميع الأصابع

فلا يمكن، ولكن الله أطلق الكُلّ (الأصابع) للمبالغة في تصوير خوفهم ورعبهم، وأراد الجزء (الأنملة رأس الأصبع) أي: كأنّما لو استطاعوا أنْ يُدخلوا أصابعهم كلّها في آذانهم لَفعلوا من شدة الخوف، وهو غير مغنٍ عنهم من قدر الله.

السادسة: قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، عبّر بالجملة الاسمية الحالية لثبات الإحاطة بالكافرين في كلّ زمان ومكان، وقال «الكافرين» أي أنّ المنافقين بفعلهم هذا كفروا بالله ورسوله واستحقوا العذاب، والسياق يتكلم عن المنافقين، فكلّ منافق كافر، وليس كلّ كافر منافقاً.

السابعة: قوله: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾، (كلما) تفيد التكرار، أي كلما تكررت عليهم الغنائم والمنافع ثبتوا وكلما قلّتْ رجعوا، وهكذا أهل المصالح الذاتية، يكثرون عند الطمع، ويقلّون عند الفزع.

الثامنة: قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾، (لو) الامتناعية، امتنع الشرط فامتنع الجواب، أي: لم يشأ الله أنْ يذهب بأسماعهم وأبصارهم، لتبقى الحجّةُ قائمةً عليهم.

❖ هل في القرآن الكريم مجاز؟

المجاز: اللفظ يُقصد به غير معناه الحقيقي، بل هو معنى له علاقة غير مباشرة بالمعنى الحقيقي. أو هو استعمال اللفظ في غير ما وُضِع له لعلاقة معيّنة ما بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي.

وقد اختلف العلماء في وجود المجاز في القرآن على أقوال:

القول الأول: أنه لا مجاز في القرآن ولا في اللغة العربية، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم. قالوا: إنه لا يُصار إلى المجاز إلا بعد العجز عن التعبير باللفظ الأصلي الحقيقي، وهذا محال في حق الله تعالى أنْ يعجز عن التعبير باللفظ الأصلي، ثم إنّ القول بالمجاز

يلزم منه العلم بأنّ اللفظ بداية وُضع للدلالة فقط على ما يُقال عنه حقيقة، ثم استُعمل بعد ذلك فيما سُمّي بالمعنى المجازي، وهذا لا دليل عليه.

القول الثاني: المجاز ثابت في القرآن وفي اللغة العربية، وهذا قول جمهور العلماء، وهو قولُ أكثر البلاغيين والمتكلّمين.

والقول الثالث: المجاز موجودٌ في اللغة العربية دون القرآن، وهذا قول اختاره جماعة منهم: الشنقيطي محمد الأمين صاحب تفسير «أضواء البيان».

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: واعلم أنّ مِمَّن منع القول بالمجاز في القرآن، ابن خويز منداد من المالكية، وأبا الحسن الخرزي البغدادي الحنبلي، وأبا عبد الله بن حامد، وأبا الفضل التميمي، وداود بن علي، وابنه أبا بكر، ومنذر بن سعيد البلوطي وألّف فيه مصنفاً، وقد بينا أدلة منعه في القرآن في رسالتنا المسماة: «منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز».

ومِنْ أوضح الأدلة في ذلك: أنّ جميع القائلين بالمجاز متفقون على أنّ من الفوارق بينه وبين الحقيقة: أنّ المجاز يجوز نفيه باعتبار الحقيقة، دون الحقيقة، فلا يجوز نفيها، فتقول لِمَن قال: رأيتُ أسداً على فرسه، هو ليس بأسدٍ، وإنما هو رجل شجاع.

والقول في القرآن بالمجاز يلزم منه أنّ في القرآن ما يجوز نفيه، وهو باطل قطعاً، وبهذا الباطل توصل المعطلون إلى نفي صفات الكمال والجلال الثابتة لله تعالى في كتابه وسُنَّة نبيه ﷺ، بدعوى أنها مجاز كقولهم في (استوى) استولى. وقسْ على ذلك غيره، من نفيهم للصفات عن طريق المجاز. [المذكرة: ٨٤].

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبينا محمد، والحمد لله ربّ العالمين.





المثل الثالث

بيان حال الكافرين من القرآن ودعوة النبيّ ﷺ

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

❖ **تمهيد:**

قبل الدخول في شرح المثل نُبيّن بإذن الله معنى الكفر وأنواعه باختصار حتى تكتمل الصورة، ويتّضح المعنى.

أنواع الكفر

الكفر نوعان (أكبر وأصغر)

أولاً: الكفر الأكبر: وأنواعه كثيرة، منه كفر الجحود، والتكذيب، والإعراض، والاستكبار، والعناد، والنفاق، والشك، وكفرٌ باستحلال ما حرّم الله.

والكفر الأكبر هو الذي يناقض الإيمان، ويُخرج صاحبه من الإسلام، ويوجب له الخلودَ في النار، ولا تناله شفاعةُ الشافعين، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

ثانياً: الكفر الأصغر: وهو ما كان دون الكفر الأكبر، كقوله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ».

وقوله ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ».

وقوله ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ».

وقوله ﷺ: «لا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ، فَإِنَّ كُفْراً بِكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ»

وقوله ﷺ: «مَنْ قَالَ لأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا».

وكالرِّياء في العبادات ونحو هذه الأحاديث، وهذا النوع من الكفر يوجب لصاحبه الوعيدَ دون الخلود في النار، ولا ينقل صاحبه عن ملّة الإسلام، لكنّه من كبائر الذنوب.

الفرق بين التقليد والاتّباع

أولاً: التقليد: هو وَضْعُ الشيء في العنق مع الإحاطة به، ويسمَّى ذلك قلادة، وهو قَبولُ القول بغير دليل. وقيل: هو عبارةٌ عن اتّباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل، معتقداً للحقيقة فيه، من غير نظرٍ وتأملٍ في الدليل. أو هو طاعة فلان في أمر الله وعبادته بلا دليلٍ أو بلا سؤالٍ عن الدليل الصَّحيح.

ثانياً: الاتّباع: هو اقتفاء الأثر وتتبعه، وهو أنْ يتبع ما جاء في كتاب الله، وسُنَّة رسوله الله ﷺ، ولا يتبع ما خالفهما أو أحداً غيرهما مهما بلغت رُتبتُهُ، لقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]. بمعنى كلّ عبادة أُمرنا أنْ نتعبد بها لله يجب أنْ تثبتَ بدليل محكم من كتاب الله، أو من صحيح سُنَّة رسول الله ﷺ؛ لقوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ». [متفق عليه].

بمعنى: مَن قال لك افعل كذا من العبادات، قلْ له: ما الدليل عليها من كتاب الله وسُنَّة رسوله؟ فإذا ذكر لك الدليل من القرآن فانظرْ هل هو مطابق للعبادة أو للمسألة التي يتكلم فيها، وإذا ذكر دليلاً من السنة فانظر أولاً هل الحديث صحيح، ثم هل الحديث موافق للمسألة التي أنتم بصددها؟! وهكذا يكون الاتباع وإعمال العقل.

مثاله: لو قال لك: اعبد الله في الوقوف تحت الشمس، أو بترك أكل اللحم مثلاً، فقل له: ما الدليل من الكتاب والسُّنَّة؟ وهل فعله رسولُ الله ﷺ؟ وهل تعبَّد الصَّحابة بهذا؟.

فلو قيل لك: اطلبْ حاجتك من الولي الفلاني، قلْ له: ما الدليل من كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ على جواز طلب الحاجات من غير الله أو من فلان وفلان؟ لأنّ هذا يُعارض الكتابَ والسُّنة، فإنْ ذكر الدليل الصَّحيح الصريح الواضح كوضوح الشمس، فَرضاً يعني، فانظر في الدليل الذي ذكره هل يناسب المقصود، وليس له معارض؟ فتمسك به، وإنْ لم يذكر لك دليلاً واضحاً بيناً، أو مناسباً للمقصود، وهو حتماً لن يجد دليلاً من الكتاب والسُّنَّة يدلُّ على جواز دعاء غير الله، فاضربْ بكلامه عرض الحائط، وإنما هذا ضالٌّ يريد أنْ يُضلَّك معه، ويعطّل عقلك، ويجعلك كالبهيمة يجرّها حيث شاء.

وأعجب للناس يجادلون في أمر السُّنة إذا أمرتهم بها، أو بينتها لهم، ويسكتون ويسلِّمون في أمر البدعة، فإذا قلتَ لأحدهم: هذا لا يصحّ، ولم يردْ في السُّنة، وليس عليه دليل، أخذ يناقش ويُرادد بغير عِلْم ولا هُدًى ولا كتابٍ منير ويقول: كيفَ؟ ولماذا؟، والناس يفعلونه. ولا يناقش في البدعة التي يفعلها، فلا يقول: ما دليلُها؟ ومِن أين جاءت؟ وهل فَعَلَها رسول الله ﷺ؟... إلخ. ويسلّمون وينقادون لأهل الشرك والبدع كما تنقاد البهيمةُ إلى المسلخ، ولا يسألونهم عن دليل البدعة. وما ذاك إلا

لأنهم تربّوا على العادة والتقليد وطاعة الأشخاص لجهلهم وصغر أنفسهم، وتربيتهم على العادة والتقليد وسماع القصص، وطاعة الأشخاص والتعصب لهم، بعيداً عن أدلة الكتاب والسُّنَّة.

وهذا ليس بالشيء الجديد، فالذين رضوا بالجهل والوثنية والتخلُّف هم أنفسُهم قديماً وحديثاً. فالمشركون قديماً كانوا يطالبون الأنبياءَ بالمعجزات، بينما لم يطالبوا أوثانهم وأصنامهم وأمواتهم بأيِّ معجزة، فقد عبدوها بلا دليل، وكذلك اليوم أهل الباطل يطالبون أهل الحقِّ بالدليل، ولا يطالبون زعماءهم بأيِّ دليل!

فصرنا في زمان أصبحت البدعة سُنّة، فمَن خالف البدعة قيل عنه خالف سُنّة، واتُّهِمَ من قبل أهل الباطل، بل وكُفِّرَ وأُخرِج من الإسلام، وأصبحت السُّنّة بدعة، فمَن أقام السنّة قيل عنه: أقام بدعة واتُّهِم بالتشدد. فيا لَغربة أهل السنّة! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

❖ **تمهيد:**

لَمّا أمر الله الكفارَ باتّباع ما أنزله على رسوله ﷺ، وهو الحق الواضح الذي يعرفونه، ويعرفون صدق الرسول الذي جاء به، بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠]؛ رفضوا الاتّباع، ومالوا إلى التمسك بتقليد الآباء، واتّباع الهوى في عبادة الأصنام والأوثان والأنداد والأموات، وردّوا الحقَّ لمجرد تقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان وبالأنبياء والقرآن؛ كفراً وأنفةً وحميّةً وتعصّباً وجاهليةً، بلا دليلٍ ولا علم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. يُصِرُّون على التقليد الأعمى للآباء، معَ أنّ الله أخبرهم أنّ آباءَهم الذين يقلّدونهم أجهلُ الناس، وليس لهم فهمٌ ولا هداية ولا دِراية، فلمّا أصرّوا على

التقليد ولم يستجيبوا ضرب الله لهم هذا المثل في بيان حالهم من الله ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

❖ **شرح المفردات:**

(**مثل**): الصفة والحالة المشابهة لهم.

(**ينعق**): يصيح، يُقال: نعق الراعي بغنمه، أي: صاح بها وزَجَرها.

(**الدعاء**): طلب القريب كدعاء المؤمن ربه، يا ربّ، يا ربّ.

(**النداء**): طلب البعيد كأذان الصلاة.

(**الصمّ**): جمع أصمّ، فاقد حاسة السمع، فهو لا يسمع.

(**البكم**): جمع أبكم، فاقد حاسة النطق، فهو لا يتكلم.

(**لا يعقلون**): لا يدركون معنى الكلام، ولا يميّزون بين الأشياء؛ لتعطل آلة الإِدراك عندهم وهي العقل.

شرح ظاهر المثل

مَثَلٌ ضربه الله تعالى في ذمّ تقليد الكفار لآبائهم، بلا علمٍ أو برهان، فوصفهم بعدما أمرَهم ونَهاهم فلم يأتَمروا ولم ينتهوا بصفة الدوابّ؛ لأنهم عطّلوا عقولَهم وفهومَهم ومداركهم التي أنعم الله بها عليهم وميّزهم بها عن الدواب، وتركوا التفكر والنظر والاعتبار فيما يسمعون من القرآن، وسلّموا أمرهم إلى آبائهم تقليداً بلا علم، وعناداً وعصبية عمّيّة، أي: إنّ هؤلاء الكفار فيما هم فيه من الغي والضّلال والعناد والجهل كالدواب السَّارحة من الإبل والبقر والغنم التي لا تفقه ما يُقال لها، بل إذا نعقَ بها راعيها، وصاح بها أيّ صوت لتنزجر، أو لِتقف عن السير، أو تُقبل عليه امتثلتْ

تعويداً لا فهماً وطاعة، فهي تسمع صوتاً ودعاء ونداء ولا تفهم القول والمعنى، ولو كانت تفهم الخطاب لكانت مِن أهل التكليف.

فهذا حالُ مَن سمع القرآن ومواعظ النبي العدنان ﷺ فانصرف عنهما إلى التقليد والعصبية القبلية أو المذهبية، ومع هذا فإنّ هذه الحيوانات على الفطرة لا تُشرك بالله سبحانه، بل تُسبِّحه وتعبده، وتستجيب للراعي معَ أنها لا تفهم كلامه.

التدبر في المثل

إعمال العقل والتفكر والتَّدبر والتصور وترك التقليد نعمةٌ عظيمة، فقد ذمَّ الله تعالى تقليدَ الآباء، وضرب مثلاً للذين كفروا في عدم انتفاعهم بالقرآن وحُجَجه الساطعة البيّنة، وفي عدم إعمال عقولهم وفهومهم فيما يسمعون عن الله ورسوله ﷺ، وسُوء قَبولهم لِمَا يُدعَون إليه من توحيد الله وعبادته، وما يُوعظون به مِن اتّباع رسوله ﷺ، فصاروا كمثل الحمار والبعير والشَّاة وسائر البُهْم والأنعام التي تسمعُ الصوتَ إذا نُعِق بها، ولا تعقِلُ ما يُقال لها؛ وذلك أنهم حَجَروا عقولهم على تقليد الآباء والأجداد، كما حجرت الدَّواب والأنعام عقولها على صوت الرَّاعي الذي يتحكَّم بها كيف شاء، ومتى شاء.

فمثل رسول الله ﷺ في دعوته للكفار وقراءة القرآن عليهم كمثل راعٍ ينعق في غنمه، فتسمع صوته الذي تقومُ به الحجَّةُ عليهم ولا تفهم كلامه. فكما أنّ البهائم تسمع صوت الراعي ولا تفهم ولا تعقل ما يقال لها، كذلك الكافر يسمع صوتَ رسول الله ﷺ حينما يدعوه، ويُقرأُ عليه القرآن، ويفهم منه، ولا ينتفع بالوعظ ولا بالآيات ولا بالدَّعوة؛ لأنه لا يريد أنْ ينتفع، ولا يُريدُ أنْ يسمع سماعَ انتفاع؛ وذلك لأنه مُصِرٌّ على تقليد الآباء عناداً وحمية، ورافضٌ للاتباع الذي جاء به رسول الله ﷺ من عند الله، ولو

أعمل عقله قليلاً لعلم الحق والفرق بين تقليد الآباء بلا علمٍ ولا دليل وبين الوحي المنزل على رسول الله ﷺ، وَلَاتَّبع الهدى وترك التقليد؛ لأنه باطلٌ، ومعارضٌ لكتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، بل ومعارضٌ للعقل والفطرة؛ لِذلك وصف الله سبحانه مَن كانت هذه صفته في ختام المثل: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾، أي: هم صمٌّ عن الخير لا يسمعون الحقَّ، والعربُ تقول لِمَن يسمعُ ولا يعملُ بما يسمعُهُ: كأنه أصَمُّ، ﴿بِكُمٌ﴾ أي خُرْسٌ لا يتكلمون بخيرٍ، ﴿عُمۡيٌ﴾ لا يبصرون الهدى، ولا يعقلونَ ما يُؤمرون به. والمراد بصممهم: صممهم عن سماعِ قَبولٍ واعتبارٍ لِمَا ينفعهم من دعوة الله لهم دون غيرها، فهم يسمعون كلَّ شيء إلا صوت القرآن لا يسمعونه، كما قال تعالى: ﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ﴾ [الجاثية: ٨].

وكذلك في البصر والكلام، فقد قال فيهم: (صمّ بكم) مع شدَّة فصاحتهم وحلاوة ألسنتهم، كما صرَّحَ به في قوله تعالى فيهم: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ [المنافقون: ٤]. أي: لفصاحتهم وقوة منطقهم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾ [الأحزاب: ١٩]. فهؤلاء الذين «إنْ يقولوا تسمع لقولهم»، «وإذا ذهب الخوف سلقوا المسلمين بألسنة حداد»، هم الذين قال الله فيهم: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾، وما ذلك إلا أنّ صَمَمهم وبُكْمهم وعماهم بالنسبة إلى شيءٍ خاصٍّ، وهو ما يُنتفع به من الحقّ والقرآن والإيمان، فهذا وحده هو الذي صمّوا عنه فلم يسمعوه، وبكموا عنه فلم ينطقوا به، وعموا عنه فلم يروه، مع أنهم يسمعون غيره، ويبصرونه، وينطقون به، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

لذلك قامت عليهم الحجَّة، وانتفت عنهم المحجَّة، ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾،

فمَن علِمَ الحق وتركه، ورأى الهدى فاجتنبه، وترك جنات النعيم، وسار برجليه إلى الخلود في النار فهو والمجنون سواء، بل المجنون خير منه؛ لأنه غير ملوم ولا مُؤاخَذ.

فوصف الله المقلِّدين لغيرهم بلا علمٍ ولا هدى ولا كتاب منير بوصفين وتشبيهين قبيحين قادحين قاذعين لاذعين في هذا المثل:

الأول: شبّههم بالدواب السارحة تسمع صوت الراعي فتستجيب له ولا تدري معناه، كذلك المُقلِّدُ يستجيب للآباء تعصباً وحمية ولا يدري ما يقولون؛ لأنه ألغى عقله، وقَصَره على تقليدهم.

والثاني: شبّههم بإنسان أعمى أصم أبكم لا يعقل؛ وذلك أنهم لَمّا لم ينتفعوا بنعمة السمع والبصر والنطق والعقل، وعطلوها تماماً، أصبحوا كمَن وُلِدَ بلا سمعٍ وبصرٍ ونطقٍ وفهمٍ، فكيف يتعلم هذا المعدوم؟ هذا حال المقلِّد الذي عطل وسائل العلم والمعرفة عنده.

وقد ذكر ابن حزم في «الإحكام» إجماعَ الأمة على بطلان التقليد: هو قَبول ما قاله قائلٌ دون النبي ﷺ بغير برهان؛ وذلك لأنّ الاعتقاد لا يتحقّق إلّا مع العلم، وقول المجتهد لا يفيد العلمَ اليقيني، ولا يغني عن المقلِّد إذا أدخله الله النار، قال تعالى عن المقلِّدين لغيرهم بلا دليلٍ: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَـٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ [إبراهيم: ٢١]؛ فقد ذمَّ الله الكفار بتقليدهم سادتهم وكبراءهم وآباءهم، وتركهم اتّباع الرسل.

فالأصلُ أننا مأمورون بالاتّباع في أصول الدين وأركان الإيمان، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]. لأنّ التقليد ليس علماً، والمقلِّد لا يكون على بصيرة من دينه.

ففرضٌ على كلّ مكلف (بالغ عاقل) تعلّم أمر التّوحيد والقطع به، والتعليم لا يحصل إلا من جهة القرآن والسُّنة النبوية. أمّا تقليدُ المجتهدين والعلماء بعد معرفة دليلهم في التّوحيد والفقه، فهو جائز، لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

فلمّا لم ينتفعِ الكفارُ بكلام الله ولا بدعوة النبي ﷺ، وجَّه سبحانه الخطابَ إلى المؤمنين؛ وذلك أنهم هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي، بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه، باستعمالها بطاعته، والتقوي بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

العبرة من المثل

أمر الله تعالى بالعلم والاتّباع ومعرفة الحق بدليله، وخاصة العلمُ الذي تسلم به العقيدة من الشرك، وتصحّ به العبادة من البطلان، كما أمر الله بإعمال العقل والفِكر، والتعبد لله على بصيرة، وذمّ تقليد الآباء والأجداد وغيرهم، الذي كان سائداً في بداية الإسلام.

فالكافر الذي يرى الحق ويعرضُ عنه، ويصرفُ نفسه عن دلائل القرآن وآياته فلا ينظر فيها، فهو رَضِيَ أنْ يكون كالحَيوانِ، ورَضِيَ بألَّا يكونَ له فهمٌ ولا علمٌ ولا عقلٌ، ولا تحرر.

فلو جئْتَ إلى (حمار) وقلتَ له: يجبُ عليك أنْ تؤمن بالله وتصلّي وتصوم، وتعبد اللهَ، وتدعوه، وتنصحه، وتُبيّن له، فالحمار لا يستجيبُ ولا يفهم، ولا يطبق ممّا قلتَ له ونصحتَ به، كذلك الإنسان إذا قلتَ له: عليك أنْ توحّد الله، وتقيم الصلاة، وتعبد الله، وتتلو عليه القرآن وتُسمعه آيات الله، ثمّ بعد ذلك لا يستجيب، فهذا صار كالحمار في عدم

الاستجابة وتحكيم العقل والنظر في عاقبة الأمور، بل الحمار خير منه، فالحمار غير مؤاخذٍ ولا محاسبٍ، ولكنّ هذا الإنسان برفضه الخير والهدى نزل بنفسه أسفل من الحمار في القدر والمقام والرتبة.

ثم يوم القيامة يتبرأُ المُقَلَّدُ مِن المُقَلِّدِ في الشرك والبدع، وهو ومَن قلَّدَهُ من الضَّلالِ في النار، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧].

فهذا المُعرِضُ عن الخير والحقّ فهو معَ مَن قلَّدهم من الرؤساء على الجهل والضَّلالة كالغنم مع الراعي تُقْبِلُ بدعائه وتنزجرُ بندائه، مسخّرة لإرادته وقضائه، ولا تفهم لماذا دعا؟ ولماذا زجر؟ فدعوتُها إلى الرعي وإلى الذبح سواء. وكذلك شأن كلّ مَن يُسْلِمُ اعتقاداً بلا دليلٍ، ويَقْبَلُ تكليفاً بغير فقهٍ ولا تعليلٍ، ويقلّد المشايخ والمذاهب تقليداً أعمى، فقد عطَّل عقله، وسلَّمَ نفسه، وسيَّرَهُ غيرُهُ حيثُ شاء، وإذا جاؤوا يوم القيامة لعن بعضهم بعضاً، كما ذكر تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧ ـ ٦٨].

فهل يشكُّ العاقل أنّ مَن دُعي إلى الرشاد، وذِيدَ عن الفساد، ونُهي عن اقتحام العذاب، وأُمِر بما فيه صلاحُهُ، وفلاحُهُ، وفوزه، ونعيمه، فعصى الناصح، وتولّى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتّبع الباطل، ونبذ الحقَّ، فهل هذا إلا كالأنعام بل أضل سبيلاً؟! كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والآية صريحةٌ في أنّ التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين المعاندين، وأنّ المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عَقلَ دينه وعرفه بنفسه حتى يقتنع به، ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل في اعتقاده، فلا يأخذه بالتسليم لأجل آبائه وأجداده وتعصبه لمذهبه ومشايخه إلا الجهل والتقليد الأعمى.

ولذلك وصف الله الكافرين بعد تقرير المثل بأنهم ﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون الحق سماع تدبّر وفهم، ﴿بُكْمٌ﴾ لا ينطقون به عن اعتقاد وعلم، ﴿عُمْىٌ﴾ لا ينظرون في آيات الله في أنفسهم.

فالعاقل لا يقلِّد عاقلاً مثله، فأجدر به ألَّا يقلد جاهلاً ضالاً هو دونه. بل يتّبع ما أنزله الله على علم كما أمر الله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]. فكلّ مَن عطل سمعه وبصره ولسانه عن الحق فهو يُوصف بالبهيمة؛ لأنه عطل الوسائل التي يفهم من خلالها العقل، ويعي بها القلب، وهكذا كلُّ مَن بلغتْهُ دعوةُ الله تعالى فلم يتفكر فيها، ويقف عندها، ويتأملها، ينطبق عليه المثل.

فكل الذل والهوان والتخلف والخسران والجهل الذي أصاب المسلمين، وخاصة في زماننا هذا، هو بسبب عدم اتّباع النَّبي ﷺ؛ لأنّ الرفعة والتقدم والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: قوله: ﴿يَنْعِقُ﴾، ﴿يَسْمَعُ﴾، فعلان مضارعانِ يفيدان الاستمرار، أي هذا حال كلّ مَن أعرض عن الحق إلى قيام الساعة كحال الدواب السارحة.

الثانية: قوله: ﴿دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، الفرق بين الدعاء والنداء: أنّ الدعاء للقريب، والنداء للبعيد. وقيل: الدعاء طلب الفعل، والنداء إجابة الصوت.

الثالثة: الإيجاز البليغ الذي جاء به المثل، فقد جاء بتمثيلين في مثل

واحد. فكأنّ وفاء اللفظ: (مثل الذين كفروا ومثل داعيهم كمثل الراعي ومثل ما يرعى من البهائم).

الرابعة: قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، جملة بدايتها اسمية، تدلّ على ثبات عدم التعقل عند مَن يسمع الحق ولا يتبعه، ونهايتها فعلية تدلّ على العموم والاستمرار في عدم التعقل فيهم إلا أنْ يرجعوا إلى إعمال العقل وترك التقليد إلى الاتّباع.

نعمة العقل

العقل جوهرةٌ ثمينةٌ لا تُقدر بثمن، وهو مِن أفضل نِعَم الله على عباده، فلولا العقل لما عرَف الإنسانُ دينَ الإسلام والنبوة، والخيرَ والشر، والحقَّ والباطل، والمعروفَ والمنكر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

فالله تعالى فضَّل بني آدم على غيرِهم منَ الجمادات، والحيوانات، والنباتات بهذا العقْل وأناط به التكليف، قال تعالى مادحاً عبادَه أصحاب العقول السليمة: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

قال ابن كثير: أي العقول التامة الزكية، التي تُدرك الأشياء بحقائقِها على جلياتها، وليسوا كالصمِّ البكم الذين لا يعقلون، الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥ ـ ١٠٦].

وقد ذمَّ الله تعالى أصحابَ العقول الغافلة عن دينهم؛ فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

فإذا فَقَدَ الإنسانُ العقلَ السليم الذي يقوده إلى الخير، ويُبعده عن الشر، فقد أصبح كالبهيمة التي تأكل وتشرب ولا تعقل شيئاً؛ بل إنها خيرٌ منه.

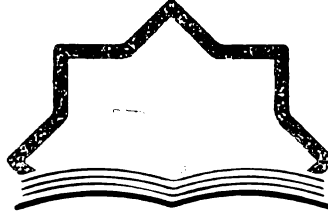
ويُعتبر التفكير والإبداع أعلى مراتب الإدراك للعقل، وقد ميّز الله ﷻ الإنسان بالعقل المدرك والمميّز والواعي والمبدع والمفكر.

والعقل في الشريعة الإسلامية له دوره في تقبّل الأحكام الشرعية وفهمها والالتزام بها، بل يقول عنه فقهاء الإسلام: إنه مناطُ التكليف، إذ من دونه لا يصحُّ التكليف، ولكن للعقل حدوده وضوابطه التي رسمها له الشارع الحكيم.

فالإسلام يدعو إلى استعمال العقل استعمالاً صحيحاً سليماً بما لا يخالف الدين؛ فالنصوص الواردة في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهَّرة تحضُّ على النظر والتأمل، والتفكر في خلق السموات والأرض، واكتشاف ما يكون مُعيناً للإنسان على عمارة الأرض وخلافته فيها.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبينا محمد، والحمد لله ربّ العالمين.





المثل الرابع
ثواب الإنفاق في سبيل الله

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

❖ شرح المفردات:

(مثل الذين ينفقون): صفتهم المستحسنة العجيبة الجميلة.

(أموالهم): المال: كلّ ما يتموّله الإنسانُ، وينتفع به.

(في سبيل الله): في طريق الله وكل ما يوصل إلى مرضاة الله تعالى من الإِيمان والعمل الصَّالح. و(في سبيل الله) إذا أُطلِقت يُراد بها الجهاد.

(يضاعف): يزيد ويكثر حتى يكون الشيء أضعافَ ما كان.

❖ تمهيد:

مرَّ في الآيات المتقدِّمة لهذا المثل الكلام عن الحياة والموت والبعث، وأنّ الإنسانَ لا ينفعه بعد الموت إلا ما قدَّمَ من عمل صالح. وإنّ من أفضل الأعمال التي ينتفع به المسلم عند ربه هو الإنفاق في سبيل الله، فندب الله الناس إلى الإنفاق بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وفي هذا المثل بيّن سبحانه شرفَ النفقة والدَّعوة إلى الإنفاق والكرم،

وبيان تضعيف الثواب لِمَن أخرجها في سبيل الله وابتغاء مرضاته؛ وذلك لِمَا للإنفاق من فوائد على الفرد والمجتمع، ولِمَا لإخراجِ المال من مشقة على النفس تسمو وتزكو بإخراجه؛ وذلك لأنّ المال عزيز، به قوامُ الإنسان وقوته.

التدبر في المثل

مَثَلٌ حسيٌّ مشاهد، ضربه الله تعالى يُبيّن فيه صفة ثواب المنفقين أموالهم في طاعة الله تعالى، وابتغاء رضوانه، وحسن مثوبته، كنشر العلم والجهاد وإعداد السلاح والمعامل والصناعات والمختبرات والمدارس وغيرها، فهذه الصَّدقةُ مثلها في نموّها وبركتها وخيرها وفائدتها وكثرتها كمثل حبة زُرِعت في أرضٍ خصبةٍ طيبةٍ، فأنبتت سبعَ سنابل، في كلّ سنبلة مئة حبة.

فكما أنّ الفلاح يضع في الأرض حبة واحدة فتُخرِج سبعَ سنابل، في كلّ سنبلة مئة حبة، فيكون العدد سبعمئة حبة، كذلك الصَّدقة الواحدة في سبيل الله بعشر حسنات إلى سبعمئة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء. وهذه الكثرةُ الكاثرة في الحبوب من حبة واحدة زُرِعت في أرض طيبة، فكيف إذا زرع الفلاحُ حقلاً كاملاً أو أرضاً كبيرة؟. كذلك الصَّدقة كلّما كثُرت وزاد نفعها وسُقِيت بماء الإخلاص لله زاد أجرها وضعفها.

وفي المثل: أنّ الأعمالَ الصَّالحةَ ينميها الله ﷻ لأصحابها ويباركها، كما ينمي الزرع لِمَن بذره في الأرض الطيبة، ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾، والله يضاعف هذه المضاعفة لمَن يشاء من عباده؛ لأنه حكيم جواد كريم، خيره كثير، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، واسع العطاء لا ينقصه نائل، ولا يحفيه سائل، فلا يتوهم المنفِق أنّ تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة؛ لأنّ الله تعالى لا يتعاظمُهُ شيءٌ، ولا ينقصه العطاء على كثرته، ومع هذا فهو عليمٌ بمَن أنفق ابتغاء وجه الله، فيستحق هذه المضاعفة، وبمَن أنفق رياء وسمعة

فلا يستحق شيئاً من الثواب، فيضع سبحانه المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته. بحسب حال المنفِق وإخلاصه وصدقه، وبحسب حال النفقة وحِلّها ونفعها ووقوعها موقعها.

فلمّا حثّ الله تعالى على الإنفاق في سبيله، نبّه إلى الإخلاص لله في النفقة، وعدم الْمَنّ والأذى على المُنفَق عليه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢]. وذلك أنّ عدم الإخلاص أو المنّ والأذى يبطلانِ أجر النفقة، ويكشفانِ أنّ المنفِق ما أراد وجه الله، وإنما أنفق لمصلحة دنيوية.

العبرة من المثل

فضلُ الصَّدقةِ عظيمٌ لا يدركه إلا مَن جرَّب الصَّدقة، وذاق حلاوتها، واستشعر سعادة العطاء عبرها، فإنّ الله يدفع بها البلاء، ويعافي بها من الأمراض، ويُنزل بها البركة، ويضاعف الأرزاق، ويبارك الأموال وينقيها، كما قال ﷺ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ**»، ويزكي بها النفوس ويطهر القلوب، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. ويمحو الله بها الخطايا، وكل إنسان تحت ظل صدقته يوم القيامة حتى يُقضى بين الناس، وغيرها الكثير من فوائد الصَّدقة وأسرارها؛ لذلك جاء الترغيب العظيم في الإنفاق؛ لأنه وسيلة إغناء وتحقيق الرفاهية للجميع، وواسطة متعيّنة لصون عزّة الأمة وكرامتها، ودحر عدوان المعتدين عليها، فما بخلت أمة بمالها إلا حاق بها الذُّلُّ والاستعباد، وتكالبت عليها الأمم؛ لذلك كان الإنفاقُ في سبيل الله مِن أول الصِّفات التي وصف الله بها عباده المؤمنين في كتابه، حيث قال في أول كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]. ومِن أول أمنيات الميت

الذي يُريد أنْ يرجع إلى الدنيا، ليتعبد بعبادة التصدق في سبيل الله تعالى لا غير، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

أفضل الصَّدقة

أفضلُ الصَّدقة أنفعها في وقتها وحال حاجتها، ومِن أعظم الصَّدقة عند الله أنْ يتصدق الإنسانُ وهو خفيفُ الظهر، قليل المال والمتاع. جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْراً؟ قَالَ: «**أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ**» [متفق عليه].

وجاء في الحديث: «**سبقَ دِرهمٌ مئةَ ألفِ درهمٍ**» قالوا: وَكَيفَ؟ قالَ: «**كانَ لرجلٍ درهمانِ تصدَّقَ بأحدِهما، وانطلقَ رجلٌ إلى عُرضِ مالِهِ، فأخذَ منهُ مئةَ ألفِ درهمٍ فتصدَّقَ بِها**» [أخرجه أحمد: ٨٩٢٩].

وليس للإنسان من ماله إلا ما أكل أو لبس أو تصدَّق به، فهذه الثلاثة ينتفع بها، وباقي المال يذهب للورثة، قال رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا بْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ**» [صحيح مسلم: ٧٦٠٩].

وأختم بهذا الفضل العظيم الذي ذكره الله تعالى للمنفقين وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

تلاحظ أنّ الله تعالى ذكر أنّ المنفقين ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في آيتين متقاربتين وفي السورة نفسها، بمعنى: إذا خاف الناسُ

من الفقر فإنّ المنفقين لا يصيبهم الخوفُ، ولا يفتقرون أمناً من الله، وإذا حزن الناسُ بسبب الفقر، فإنّ المنفقين لا يحزنون اطمئناناً من الله؛ لأنّ الله يُغنيهم من فضله ويزيدهم.

واعلمْ أنّ فضلَ المتصدِّق وأجره هو فضل الشهيد في سبيل الله وأجره نفسه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠]. فقد قال الله تعالى للمنفقين والشهداء في سبيله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: مثَّلَ سبحان النفقةَ بالحبة؛ وذلك لأنها تُخفَى في التراب، وتُسقى وتُرعى فتُنبت وتُثمر، كذلك الصَّدقة إذا أخفى صاحبها نيتها وأخلصها لله تعالى؛ فإنّ الله تعالى يربِّيها لصاحبها حتى تكون كالجبل العظيم.

الثانية: قوله: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، (ينفقون) بصيغة المضارع، أي: مستمرّون في الإنفاق، كما أنّ الفلاحَ مستمرّ بالزراعة؛ لأنّ ترك الإنفاق في سبيل الله فيه مهلكة للنفس، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

الثالثة: قوله: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾، نسب الأموال إلى أصحابها تكريماً لهم، مع أنّ الأموالَ لله والأرزاق منه سبحانه؛ وذلك لأنّ أصحابَ المال مُخوّلون فيها، متصرفون فيها، محاسبون عليها، كما جاء في الحديث: «**مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ**» [سنن الترمذي: ٢٤١٧].

الرابعة: قوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾، فيه إشارة إلى صدقة السر؛ لأنها جاءت من (النفق)، والأنفاق عادة تكون تحت الأرض للاختباء. والله تعالى قدّم

نفقة السر على نفقة العلن، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤]. فأحياناً يشعر المنفِق في نفسه بفخر على الفقير، بإعطاء الصَّدقة، وقد تدفعه نفسه كي يُرى وهو يتصدق؛ لِيُمدح بذلك؛ لأنّ المال عزيز، فلا يُخرجه كلّ أحد، لأنه ليس من المفروضات كالصلاة والزكاة والصوم والحج التي يتساوى بها الناس؛ فلهذا، والله أعلم، أكد سبحانه على الإخلاص في النفقات، وضرب لها الأمثال بخلاف الواجبات كالصلاة والصوم.

فعلى المتصدِّق أنْ يُخلِصَ لله في صدقته، وأنْ يدفعَ التعالي والتفاخر الذي يجده أحياناً، وينكسر لله، ويشكر الله أنْ جعله اليد العليا لا اليد السفلى، ووفّقه للإنفاق؛ لذلك وغيره قدّم سبحانه نفقة الليل على نفقة النهار، ونفقة السرّ على نفقة العلن؛ لأنّ نفقة السّرِّ أدعى للإخلاص، وأرجَى للقَبول، وأبعد عن حظِّ النفس.

أما إذا كانت نفقةُ العلن فيها مصلحة راجحة وقد أَمِنَ الرياء فلا بأس، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وأيضاً في هذه الآية قدّم سبحانه السرّ على العلن؛ لأنه أخلصُ للمنفِق، وأسترُ للفقير.

الخامسة: قوله: ﴿أَنۢبَتَتْ﴾، عبّر عن الإنبات بالماضي؛ ليدل على استمرار أجر الصَّدقة في سبيل الله حاصل وواقع ومحقق الثواب، وقوله: ﴿يُضَٰعِفُ﴾، عبّر عن مضاعفة الأجر بالمضارع، ليدل على استمرار أجر النفقة ومضاعفته إلى ما لا نهاية.

السادسة: الفائدةُ في تخصيصِ السبع في الآيةِ، قالوا: إنّ السبع أشرف الأعداد كما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (كادت الأشياء تكون كلّها

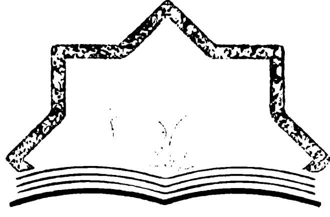
سبعاً، فإنّ السموات سبع، والأرضين سبعة، والكواكب السيارة سبعة، والبحار سبعة، وأيام الأسبوع سبعة، وسجود العبد على سبعة أعضاء).

السابعة: قال تعالى في سورة البقرة: ﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١]. وقال في سورة يوسف: ﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ﴾ [يوسف: ٤٣]، فالعدد واحد وهو (سبع) والمعدود واحد وهو (سنابل) ويجب بحسب القواعد أنْ يُضاف العدد إلى جمع قلة كما في آية يوسف، فلماذا العدد في سورة البقرة أُضِيف إلى جمع الكثرة وهو دون العشَرة؟، والعدد في سورة يوسف إلى جمع القلة بحسب الأصل؟ وذلك لأنّ آيةَ البقرة سِيقتْ في بيان المضاعفة والزِّيادة في الأجور، فناسب العددَ صيغةُ جمع الكثرة، وآية يوسف تتحدث عن زمنٍ يأتي بالجدب والقحط، فناسب العدد جمع القلة.

الثامنة: إسناد الإنبات إلى الحبة مجاز؛ لأنها سببٌ للإنبات، والمُنبِت في الحقيقة هو الله تعالى، وهذا التمثيل تصوير للإضعاف كأنها حاضرة بين يدي الناظر، فهو من تشبيه المعقول بالمحسوس.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبينا محمد، والحمد لله ربّ العالمين.





المثل الخامس

مَثَلُ نفقةِ المنّانِ والمرائي

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

❖ **شرح المفردات:**

(إبطال الصَّدقة): الحرمان من ثوابها.

(الصَّدقة): من الصدق، أي: يصدق في إخراج المال.

(المنّ): ذِكْر الصَّدقة وتعدادها على من تُصُدِّق بها عليه على وجه التفضُّل عليه.

(الأذى): التطاول على المتصدَّق عليه، وإذلاله بالكلمة النابية، أو التي تمس كرامته، وتحط من شرفه.

(رئاء الناس): يعمل العمل من أجل مدح الناس، أو دفع ذمهم.

(صفوان): حجر صلب أملس.

(وابل): مطر غزير شديد. ومنه قوله: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ [المزمل: ١٦]، (وبيلاً) أي: شديداً.

(صلداً): أملس ليس عليه شيء من التراب.

(لا يقدرون): يعجزون عن الانتفاع بشيء من صدقاتهم الباطلة.

شرح ظاهر المثل

بعد أنْ رغّب ﷻ في الصَّدقات في المثل السابق، نبّه عباده المؤمنين بأنّ المنّ والأذى يبطلُ الفائدة المقصودة من إعطاء الصَّدقات، كما يبطلها إعطاء الصَّدقة للتباهي والمراءاة أمام الناس بها، كمَن يتصدَّق متظاهراً بأنه يريدُ وجه الله، وتخفيف بؤس المحتاجين، وهو إنما يريدُ مدحَ الناس، والاشتهار بينهم بأنه من المحسنين.

وهؤلاء المراؤون مثل أعمالهم مثل ذرّات ترابٍ على حجر أملس، فهطل عليه مطر غزير شديد، فغسل الحجر، ولم يترك عليه شيئاً من ذلك التراب، وأصبح الحجرُ أملسَ أجردَ نقياً لا ترابَ عليه، فكذلك حالُ هذا المرائي، قلبه غليظ قاس بمنزلة حجر الصَّفوان، وصدقته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصَّفوان، إذا رآه الجاهل ظنّ أنه يتصدَّق لوجه الله، فإذا انكشفت حقيقةُ حاله زال ذلك التراب، وتبيّنَ أنّ عمله بمنزلة السَّراب، وأنّ قلبه غير صالح للإخلاص، كما أنّ الحجر غير صالح للزرع والنبات، بل الرِّياء الذي فيه، والعُجب الذي انطوى عليه يمنع من انتفاعه بشيء من عمله.

التدبر في المثل

مَثَلٌ ضربه الله تعالى تنبيهاً للمؤمنين بأنّ المَنّ والأذى يُبطل الصَّدقة، وتمثيلاً لهم بحال الذي ينفق ماله أمام الناس ليروه طالباً مدحهم، وحسن ثنائهم، وصرف وجوههم إليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، خاطب الله المؤمنين دون غيرهم؛ لأنهم أهلٌ للخطاب والامتثال، فقال: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾، نهاهم سبحانه عن إبطال صدقاتهم بالمَنّ

والأذى، ونبَّه إلى خطورة المَنّ في العطية وأذية مَن أعطيتَهُ بإحراجه وكسره بتذكيره بالعطية في مجامع الناس أو بين الفترة والأخرى أو كلّما حدثت مناسبة ذكّره وآذاه بما أعطاه، وقال له: ألم أعطِك؟! ألم أنفعك؟! على وجه المَنّ والإحراج والتطاول والأذية له وحتى لو كان بالإشارة والنظرة أو في غيابه يقول: أعطيتُ فلاناً، وغيرها من أساليب المَنّ والأذى، وهذا في الحقيقة إذلال وإهانة للمُعطَى له وهذا الفعل من المَنّ والأذى يُبطل الأجر والثواب، كما أنّ هذه الأخلاق لا تليقُ بالمؤمن، فحال الذي يمُنُّ مِن المؤمنين، ويؤذي في صدقته، كحال: ﴿ٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، فشبَّهَ سبحانه بطلان صدقات المؤمنين بالمَنّ والأذى ببطلان نفقة المرائي الذي يُنفق ماله طالباً مدحَ الناسِ وثناءهم عليه، وفوق هذا فإنّ المرائي: ﴿لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، ما عنده إيمان بالله أن يُضاعف له ما تصدق به في الدنيا، ويجزل له الأجر في الآخرة، وأنّ الله أمره بالنفقة، ولا يؤمن بأنه مبعوث ليوم عظيم، فيجازيه الله على إحسانه، ويعاقبه على ريائه؛ لذلك هو يُرائي في صدقته؛ لأنه لا يؤمنُ بالآخرة، ولا يعتقد أنه ينتقلُ إليها، ولا ينتظر ثوابها ولا يخاف عقابها، فكما أنّ الرِّياء وعدم الإيمان والإخلاص في العمل لله مبطل للأعمال، كذلك المَنّ والأذى في الصَّدقات والأُعطيات والهِبات مبطل للأعمال؛ لأنّ المنّان والمرائي كلاهما ما أرادا وَجْهَ الله، فأبطل الله صدقاتهم، قال تعالى في الحديث القدسي عند مسلم وغيره: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ**».

ثم ضرب سبحانه مثلاً لبطلانِ أعمال المنافق المرائي في صدقاته وأُعطياته، بحجر كبير أملس عليه تراب، نزل عليه مطر غزير، فأذهب عنه التراب، فقال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾، أي المرائي، ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ كمثل

حجر أملس، ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ قليل ليس فيه فائدة، ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ نزل عليه مطر غزير، ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾، فترك الحجر بلا تراب كما كان أملسَ مِن قبلُ، فكما أنّ المطر أزال التراب عن الحجر وتركه أملسَ أجردَ نقياً لا شيء عليه، كذلك المرائي إذا جاء يوم القيامة، وكشف الله عن النيات والأعمال، ووُجِدَ أنّ عمل هذا المرائي لم يكن لوجه الله وابتغاء مرضاته، لم يجد شيئاً من حسناته، فقد أحبطها الرِّياء، كما ترك المطرُ الحجرَ بلا تراب، كذلك ترك الرِّياء المرائي بلا حسنات، بل وعليه إثمُ نفاقِهِ وريائه وعدم إيمانه.

(فشبَّه الله أعمال المرائي بـ: التراب القليل الذي لا قيمةَ له)، (وشبَّه قلبه القاسي بـ: الحجر الذي لا يُنبت زرعاً ولا يُعطي ثمراً)، (وشبَّه الرِّياء بـ: المطر الغزير الذي أزال التراب عن الحجر).

فلهذا قال في المرائي والمنّان: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾، أي: لا يقدر المراؤون والمنانون يوم القيامة على الانتفاع بشيء من أعمالهم التي كسبوها في الدنيا رياء وسمعة وتفاخراً ومنّاً؛ لأنها لم تكن لوجه الله، فأحبطها الله تعالى. أو يكون المعنى: فلا تمنّوا ولا تؤذوا ولا تنافقوا ولا تراؤوا، فإنكم إنْ فعلتم ذلك لم تقدروا على شيء مِمَّا كسبتم من أعمالكم؛ لأنكم وضعتموها في غير موضعها، وجعلتموها لمخلوقٍ مثلكم، لا يملك لنفسه ولا لكم ضرراً ولا نفعاً، ولا يُعطيكم أجراً، وانصرفتم عن عبادة الله تعالى، فصرف الله قلوبكم عن الهداية؛ فلهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وفي الحقيقة أنّ الله تعالى ضرب مثلاً بعد مثل في هذه الآية، ضرب مثلاً للمنان بالمرائي، ثمّ ضرب مثلاً بالحجر للمرائي، فسبحان مَن كان هذا كلامه!

فلمّا نهى سبحانه في هذا المثل عن المَنِّ والأذى والرِّياء في الصَّدقات، بيّنَ سبحانه بعدها فضل الإخلاص وثمرته في الصَّدقات، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. وهو المثل التالي إنْ شاء الله.

العبرة من المثل

المَنُّ لله وحده، ومن أسماءه المنّان؛ لأنه خلق ورزق ابتداءً، أما الإنسان لا يصلح له المَنّ؛ لأنه سببٌ في إيصال الخير وليس الخير منه ابتداء، بل الفضل لله وحده أنْ جعله سبباً في إيصال الخير؛ لذلك نبَّه سبحانه إلى خطورةِ المَنّ والرِّياء في الصَّدقة، وأنهما من الصِّفات السَّيئة القبيحة التي تُذهب بالأعمال، وتزري بالرجال؛ لذلك الدَّعوة إلى الإخلاص لله في العمل والنفقة وكتمانها بل ونسيانها هو الذي أمر الله به، وهو الذي يُثابُ عليه العامل، ولا يحفظُ الأعمالَ إلا الإيمان بالله والإخلاص له فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]. وإنّما يجوز للمرء أنْ يُذكّرَ بحسناته، إذا قوبل بالإساءة، وجُحِد فضله، أو نُسِب إلى غيره.

ثمّ الحذر من الرِّياء أشد الحذر، وترويض النفس على الإخلاص؛ لأنّ صاحب الرِّياء مفضوح يفضحه الله في الدنيا والآخرة، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ**» [أخرجه مسلم: ٧٦٦٧]. وهو أول مَن تُسعر بهم النار، كما جاء في الصَّحيحين.

فمِن شروط الإنفاق وآدابه لاستحقاق هذا الثواب في الآخرة، هو الإيمان والإخلاص، وألّا يتبعوا ما أنفقوا أو بذلوا منّاً على الفقير، ولا أذى، أو ضرراً به، أو رياء.

وكذلك مِن صُوَرِ المَنّ، هو المنُّ على الزوجة والأولاد بأنه أنفق عليهم وأعطاهم، وفعل لهم كذا، وفعل، إذ النفقة على الزوجة والأولاد واجبة لا مَنَّ فيها.

فلا يكفي عمل الخير والصَّدقة، وإنما يجب المحافظةُ عليها من الرِّياء والشرك والمنّ والأذى، ومن جميع مبطلات الأعمال، حتى يَرِدَ بها على الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

كما أنّ الصَّدقةَ شُرعت للأخذ بيد الضعيف، وتخفيف حدّة الحسد والحقد على الأغنياء، ولتحصين مال الغني من السرقة والنهب والضياع والمنّ والأذى والرِّياء، الذي يخرجها عن هذه الغاية السامية التي شُرعت لها.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: تصدير الآية الكريمة بـ: (يا) النداء للبعيد، وفيه إشارةٌ إلى مكانة المؤمنين عند الله إذ وصفهم بصفة الإيمان الموجبة للجنّة، وفي ذلك فضلٌ من الله على المؤمنين، وفي هذا إشعارٌ بأنّ المنّ والأذى في الصَّدقات ليس من صفات أهل الإيمان ولا مِن أخلاقهم، إنما هو من صفات أهل الفخر والكبرياء الذين يمنّون على الله وعلى الناس بفعلهم.

الثانية: مثَّلَ الله أعمالَ المرائين وقلوبهم بالحجر الأملس القاسي، وذلك أنّ الحجر فيه قسوة وقوة، ولا يصلح للنبات ولا للزراعة، بل ولا ينبت عليه زرع، كذلك قلب المرائي فيه قسوة لا ينبت فيه إيمان، ولا أعماله تُثمر؛ لأنها ليست لِوجه الله.

الثالثة: جمع الله بين المنّان والمرائي في مرتبة واحدة، وحكم واحد، وهو إبطال صدقاتهم، مع أنّ الرِّياءَ شركٌ بخلاف المنّ والأذى في الصَّدقة فإنه معصية، والجامع بين المنّان والمرائي أنّ كليهما ما أراد وجهَ الله في صدقته، وإنما أرادا مصلحة نفسه، فالفرقُ بينهما: الأول: قَصَدَ الخيرَ

واحتسبه، ولكنه أفسد عمله بما خالطه به مِن مَنٍّ وأذى؟ أما الثاني: وهو المرائي فلم يقصدْ خيراً قط، حتى يبطله سواه.

فشبَّه سبحانه حالَ قاصد الخير وهو المنّان في إبطال عمله، بحال مَن لم يقصد خيراً قط، وهو المرائي، وهو من فعل الشرك الخفي؛ لأنّ النتيجة واحدة وهي بطلان الصَّدقات. ولهذا الفارق الجوهري بين المنفِق المنّان، والمنفِق رئاء الناس، هو ما ذكره الله عن عمل الأول بأنه صدقة، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾.

ولم يصفْ عملَ الثاني بأنه صدقة، ولا في سبيل الله؛ ولذا قال سبحانه: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾. فما الصَّدقة ابتغاها، ولا الخير أراده، بل الشرُّ كلّ الشرِّ ما عمله.

الرابعة: قوله: ﴿بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ من باب ذكر العام بعد الخاص، لإفادة الشمول؛ لأنّ الأذى يشملُ المَنّ.

الخامسة: قوله: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، الفعلانِ (ينفق) و(يؤمن) جاءا بصيغة المضارع الذي يفيدُ الاستمرار، أي: الإنفاق رئاء الناس، وعدم الإيمان مستمرانِ عنده لم يتبْ منهما، وأنّ الإخلاصَ والرِّياء ضدان متنازعان إلى قيام الساعة.

السادسة: قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، (لا) خبرية نافية غير جازمة، فالله تعالى أخبر بعدم هداية الكافر، ولم يجزم، فلو تاب الكافر وأخذ بأسباب الهداية، لَتاب الله عليه، ولهداه، ولغفر له ذنوبه، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

السابعة: قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فيه إشارةٌ إلى أنّ الإنفاقَ من غير مَنٍّ ولا أذى هو من خواصّ أهل الإيمان، فالله ﷻ يهدي

إليه المؤمنين ولا يهدي إليه الكافرين، وللإشارة إلى أنّ المنّ والأذى والرِّياء إنما هي صفات الكافرين، يجب أنْ يحذر منها المؤمنون.

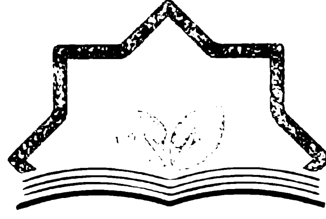
الثامنة: لماذا شدَّد سبحانه في النهي عن المنّ والأذى، وكرَّر ذلك في ثلاث آيات متواليات، وأكثر من التشبيه لتقبيح المنّ والأذى في الصَّدقة؟

الجواب عن ذلك: إنّ المنّ والأذى في الإنفاق ينشأ عن استطالة الغني بفضل غناه، والمباهاة بثروته وقدرته، وإنه لا شيء يؤذي نفس الفقير إلا إحساسه باستعلاء الغني بسبب الغنَى، وصغار الفقير بسبب الفقر، وشعور المُتَصَدِّقِ عليه بالهوان والدون والانكسار، واستعلاء نفس المنفِق على المنفَق عليه وأذيته، والتشفي منه بالصَّدقة، فإنّ ذلك يدفعُ الفقيرَ إلى حسد أهل الأموال وحقده عليهم غالباً، وإلى تفكيك الروابط، وقطع ما أمر الله به أنْ يوصل، والله تعالى لا يريد الذلة لعباده الفقراء، ولا الكِبْر لعباده الأغنياء، وإنما يبتلي الفقير بالصبر، ويبتلي الغني بالشكر.

فإنّ الفقراء لا يتألمون لذات الفقر، وإنما يتألمون من مرارته باعتزاز الغني عليهم، وتمكنه منهم، وظلمه إياهم بسبب غناه، وإشعارهم بذلِّ الحاجة، وعندئذ تتمرد النفوس، وقد يعتدي الفقير على الغني بالسرقة والجريمة وغيرها، وتتعرض الأممُ للخراب، وتذهب الوحدةُ بين المسلمين.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبينا محمد، والحمد لله ربّ العالمين.





المثل السادس

صفة المنفقين ابتغاء مرضاة الله

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

❖ **شرح المفردات:**

(**المثل**): الصفة المستملحة المستغربة.

(**ابتغاء مرضاة الله**): طلباً لرضا الله تعالى.

(**تثبيتاً**): ثابتين غير متردِّدين تحقيقاً وتَيَقناً بجزاء الله تعالى لهم على إنفاقهم في سبيله.

(**جنّة**): بستان كثير الأشجار، مَن دخل فيه لا يُرى.

(**بربوة**): بمكان مرتفع. ومنه قوله: ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]، (ربت)، أي: ارتفعت وزادت. ومنه (الربا)، أي: الزِّيادة على رأس المال.

(**ضعفين**): مضاعفاً مرتين، أو ضعفي ما يثمرُ غيرها.

(**الوابل**): المطر الغزير الشّديد.

(**الطلّ**): المطر الخفيف.

التدبر في المثل

لَمّا ضرب الله مثلاً لِمَن أنفق ماله منّاً ورئاء الناس، وهو غير مؤمن، ذكر سبحانه هنا مثلاً ضدّه لِمَن أنفق ماله مخلِصاً لوجه الله يبتغي مرضاته، بتمثيلٍ محسوسٍ للذهن، حتى يتصوَّر السامعُ تفاوتَ ما بين الضدّين، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ﴾، أي: فضول أموالهم الزّائدة عن حاجتهم ومؤنتهم، ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾، طلباً لرضا الله عنهم؛ لأنهم يعلمون أنّ الله أمر بالنفقة ويحبُّ المنفقين، فيقدّمون ما يُحبُّ الله على ما يحبون، فصفة هؤلاء المنفقين المخلصين في نياتهم لله.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، يخرجونها طيبة بها نفوسُهم، غير متردِّدين في إخراجها، يدفعهم لإخراجها وازعُهم الديني، ومحبتهم لله، ولِما يحبه سبحانه، متيقنين أنّ الله يتقبلها بيمينه، ويجزيهم عليها، فمثلُ نفقتهم هذه في الأجر والثواب والنفع، ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾، كبستانٍ كثيفِ الأشجار والظلال، كثير الثمار في مكان مرتفع، ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾، أصاب هذه الجنّة أو البستان مطرٌ غزيرٌ يكفيها، وينزل الباقي عنها، ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾، فأثمر البستانُ ثمراً يانعاً عظيماً مضاعفاً، كذلك نفقة المخلِص لله في نيته، يُضاعفها اللهُ ويباركها، وينميها أضعافاً مضاعفة، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾، وعلى فرض إنْ لم يصب البستان المطر الكثير، فَـ ﴿طَلٌّ﴾، فلا بُدَّ أنْ يُصيبها المطر القليل، ولَمّا كان البستان في منطقة مرتفعة جيدة، فإنها وإنْ لم يصبها المطر الغزير في مواسم قلة الأمطار، فإنّ الندى والمطر الليّن الخفيف كافٍ في سقيها وريّها حتى تؤتي ثمارها مضاعفاً مرتين؛ لأنّ الأماكنَ المرتفعةَ دائماً يُصيبها الرذاذ والندى، فتجد أنّ الثلج ينزل على رؤوس الجبال، كذلك نفقة المخلِص لله ولو كانت نفقة قليلة يسيرة فإن الله تعالى يضاعفها أضعافاً مضاعفة؛ لأنّ الحسنة عنده

سبحانه بعشرة أضعاف إلى سبعمئة ضعف، ما دام أنّ الباعث على إخراجها هو مرضاة الله تعالى، دونَ مَنٍّ أو رياء، وكي لا يحتقر المؤمنُ نفقته القليلة أو يحزن لأجل قلّة نفقته في وجوه الخير، ويقول: ماذا تصنع هذه النفقة في هذا الغلاء وهذا الوباء وهذه الظروف؟ ويتقاعس عن الصَّدقة، ويظنّ أنها لا تبلغُ به الجنّة، فيخذله الشيطانُ عن الإنفاق، قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. ينمي سبحانه الصَّدقات القليلة حتى تكون كالجبال، وقال عليه الصلاة والسلام: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**» [صحيح مسلم: ٢٣٩٦].

فشبَّه الله (قلب المؤمن المخلِص) بـ: (الأرض الطيبة) البارزة الصَّالحة للزراعة والزكاء والنَّماء، وهي (الجنّة)، وشبَّه (الإيمان والخير والرزق من الله) بـ(الوابل) وهو المطر الغزير، وشبَّه (فائدة نفقة المخلِص) بـ: (أُكُل الجنّة) أي ثمارها، فوسّع المؤمنُ على الناس في الصَّدقة وأعمال الخير كما وسّع الله عليه، وشبَّه (الطل) بـ: (الخير اليسير)، الذي يُقدر للمؤمن من الرزق، فذلك المؤمِن يُخرِج من هذا اليسير ابتغاء مرضاة الله، فيضاعف الله له الأجر كذلك؛ لأنّ الله يعلم منه لو كان عنده أكثر لأخرج أكثر، فالمؤمن المخلِص في جميع أحواله جواد كريم خيره دائم ينفق ابتغاء وجه الله، أينما وقع نفع. يعمل بقوله: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الطلاق: ٧].

ثم قال تعالى في نهاية المثل: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فيه وعدٌ بالثواب لِمَن أنفق يريد وجهَ الله، ووعيدٌ لِمَن أنفق رياء يريد وجه الناس، فالله بصير بأعمالهم لا تخفى عليه خافية.

فهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لعمل المؤمن المخلِص، فكما أنّ هذه الجنّة تُثمر في كلِّ حال ولا تُخالف سواء قلّ المطر أو كثر، كذلك يُضاعف الله

صدقةَ المؤمن المخلِص الذي لا يَمُنّ ولا يؤذي ولا يُرائي، سواء قلت نفقته أو كثرت.

فلما ذكر سبحانه الإخلاصَ في النفقة وفضلها في هذا المثل، ضرب في الآية التي بعده مثلاً للرياء في الصَّدقة يُنبّه على خطورة الرِّياء وأثره.

العبرة من المثل

من أعظم مقاصدِ النفقات هو المواساة بين طبقات المجتمع والتعاون والتعاضد؛ وذلك للحفاظ على أمن المجتمع وسلامة أخلاقه، فالمنفِق في سبيل الله يقصد بصدقته أمرين:

الأول: ابتغاء مرضاة الله.

والثاني: تزكية نفسه وتطهيرها من البخل والشح والشوائب، كي يرتقي بها إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال.

فإنْ أصابه خير كثير أنفق كثيراً، وإنْ أصابه قليل أنفق بقدر طاقته، فالمنفِق خيره دائم وبِرُّه لا ينقطع، فهو محسِنٌ في كلا الحالين؛ لأنه يعلم أنّ الله أمر بالصَّدقة والإخلاص فيها، فالمال عزيز وحبيب إلى أهله وأصحابه، وخاصة إذا تعب الإنسان في جمعه وتحصيله، فيُخرجه لله؛ لِيُريَ اللهَ من نفسه أنّ اللهَ أحبّ إليه مِن المال، ويجد ثمرةَ بذله على كلّ حال في الدنيا والآخرة.

لماذا أكد سبحانه على الإنفاق في كتابه وسُنة نبيه ﷺ؟

أكّد تعالى على الإنفاق كي تسمو النفوس، وترتقي الأخلاق، وتطهر القلوب، وتتعلق بالله ولا تتعلق بالدنيا، المال مال الله، والخلق عبيد الله، والفقراء عيال الله، فالإنسان يتعبُ في تحصيل المال وجمعه، وقد يسافر ويغترب لأجله، فلِمَ يُنفِق ما جمعه على غيره ويشاركه فيه؟! ذلك لأنّ

الإيمان بالله وحبّ الله الذي يفوق حبّ المال يدعوانه إلى ذلك، ويدفعانه إليه؛ وحتى يُرِيَ اللهَ مِن نفسه أنّ الله أحبّ إليه من المال ومِن كلِّ شيء، فلما أنفقَ لأجل الله، وفي الله، أكرمَهُ الله، وضاعف له الثواب، والله أكرم الأكرمين، يدلّك ذلك على سموّ الشريعة ورفعتها وعلو منزلتها؛ لأنها تدعو إلى التكافل الاجتماعي، والتراحم الإنساني من خلال الصَّدقات والهبات، ومن ثَمّ تدلُّ هذه الشريعة السمحة على رحمة الله بالناس، وحكمته في شرعه.

ثم إنّ الله أمر بالإنفاق اختباراً للناس وابتلاءً، هل يتصدق الغني؟ وهل يصبر الفقير، ويتعفف عن السؤال؟، فيكون الإنسان هو المتحكم بالمال يضعه حيث أراد الله، لا المال هو المتحكم بالإنسان يجري وراءه لاهثاً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]. فعلاً انتهى الأمر: اشترى الله، وباع المؤمن وتمّ البيع، والسلعة الجنّة؛ لذلك يتصدَّق المؤمن؛ لأنّ الله أراد من المؤمن أنْ يسمو إلى جنة عرضها السموات والأرض، ولا ينظر تحت قدميه.

ولِيعلم الإنسان أنه ما خُلِق ليجمع المال، ويجعله كنزاً، وإنما لِيعمر الأرض به، ويصلح الأحوال، ويسعى من خلاله للحفاظ على المنظومة الأخلاقية، والقيم الإنسانية الفاضلة، ويكون هذا المال من وسائله شراء جنّة عرضها السموات والأرض.

لِماذا المؤمن كريم؟

لأنه آمَنَ بالكريم وعَبَدَهُ فصار كريماً؛ لأنه لا يليقُ بالمؤمن أنْ يعبد ربّاً كريماً ثم لا يكون كريماً، ولا يمكن أنْ ينتسبَ إلى الكريم إلا الكريم؛ لأنه قرأ كتاب الله، وعَلِمَ من صفات الله الكرم والجود والسخاء والإحسان، وتعلّق بالله فاكتسب من صفات الله تلك الخصال الحميدة؛

لأنه عَلِمَ أنّ الله يحبّ الكريم فصار كما يحبّ الله، قال ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ وَالْفَاجِرُ خِبٌّ لَئِيمٌ**».

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: من أعجب البلاغة أنّ الله تعالى قابل بينَ أوصاف المرائين والمخلِصين في المثل السابق وهذا المثل، فقوله هنا: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾، مقابل لقوله هناك: ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، وقوله هنا: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، مقابل لقوله هناك: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، وقوله هنا: ﴿جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾، مقابل قوله هناك: ﴿صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾، وقوله هنا: ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾، مقابل قوله هناك: ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾، فسبحان الله!

الثانية: قوله: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ﴾، عبّر بالمضارع في النفقة ولم يقل (أنفقوا) بالماضي؛ ليدل على استمرار النفقة منهم في سبيل الله، وأنها كلّما استمرت استمرَّ عليهم الخير.

الثالثة: قوله: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: مبتدأ وازع إخراج النفقات من نفسِ المؤمن دون عامل خارجي ليدلّ على أنّ إنفاقه نابع من ذاته حبّاً لله، فالنفس الأصل فيها أنها تأمر بالسوء، ولكن المؤمن المخلِص لما عوَّدها الخير والإخلاص والإنفاق أصبحت نفسُهُ زكيةً، تأمره بالخير وهو مقصودُ قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]. بخلاف نفس المنافق.

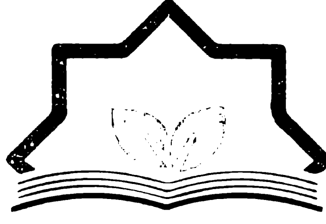
الرابعة: قوله: ﴿جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾، وصف الله نفقة المخلِص له بالجنّة، فكما أنّ الجنّة فيها نعيمٌ وراحةٌ وأُنْسٌ، كذلك أثر النفقة على صاحبها المخلِص.

الخامسة: قوله: ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾، عبّر عن الثمر بـ(الأكل)، وفيه إشارةٌ إلى أنّ ثمرها نافع يؤكل، لن يتلف ولن تصيبه عاهة، كذلك نفقة المخلِص يحفظها الله له حتى يجزيه بها يوم القيامة أعظم الجزاء.

السادسة: قوله: ﴿فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ﴾، لماذا هذه الجنّة آتت أكلها ضعفين؟ وذلك بسبب العوامل والظروف الجيدة المتهيئة لها من أرض طيبة ومكان مرتفع مُعَرَّضٍ للهواء النقي والمطر الكثير وغيرها، كذلك صدقات المخلِصين لله لَمّا كان حبُّ اللهِ مقدماً على حبّ المال، والصَّدقة خارجة من نفس طيبة راضية بأمر الله، خالصة لوجه الله يردها الله عليهم في الدنيا أضعافاً مضاعفة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، يخلفه الله على المنفقين في الدنيا والآخرة، والنفقة بعشرة أضعافها؛ لأنها لوجه الله، أما من أنفق لغير وجه الله في بناء المدارس والمستشفيات وكفالة الأيتام وغيرها فإنّ الله يجزيه في الدنيا ويردّها عليه وليس له في الآخرة من شيء؛ لأنّ نفقته ليست لله؛ لذلك النفقة لله يضاعفها الله، والنفقة لغير الله يرد الله مثلها على صاحبها في الدنيا وقد يزيده وما له في الآخرة من نصيب، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبينا محمد، والحمد لله ربّ العالمين.





المثل السابع
العمل والصَّدقة رئاء الناس

قال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

❖ **شرح المفردات:**

(أصابه الكبر): شاخ وهرم وعجز.

(ذرية ضعفاء): أولاد صغار يعجزون عن الكسب والتدبير.

(إعصار فيه نار): ريح عاصفة تدور بسرعة هائلة مصحوبة بنار.

التدبر في المثل

مَثَلٌ عظيمٌ ضربه الله تعالى لعمل المنافق والمرائي والمنّان الذي يعمل لغير الله ما يُراد به وجه الله، أو يعمل العملَ الصَّالحَ ثم يُفسده بمبطلات الأعمال، مِن الشرك والرِّياء وذنوب الخلواتِ وغيرها، قال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾: بستان عظيم، ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، اللذين هما أحسن الشجر وأنفعه، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، تتخلّل هذه الجنّة أنهارٌ عذبة قريبة لا يحتاج الإنسان إلى تعبٍ ومؤنةٍ في السقي، ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، الطيبة الغالية المتنوعة ذات الثمار المختلفة، يعني البستان فيه

اكتفاء ذاتي، لا يحتاج أنْ يشتري من غيره، ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾، وقد أفنى شبابه، واستنفد عمره وطاقته في زراعة البستان، والعناية به، حتى كمُل وصار بهجةً للناظرين، وزينةً للزائرين لِمَا فيه من الأشجار المختلفة، والثمار اليانعة، والألوان الزاهية، تصوّر سعادة هذا الرجل بهذا البستان، ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾، وله أولادٌ صغار يُريد أنْ يطعمَهم ويعينهم من خَراج هذا البستان، وهو يرقبُ قطفَ ثماره بلهفة بعد طول عمر قضاه في زراعته، والقيام على شأنه.

وهو الآن أحوج ما يكونُ إلى ريع بستانه؛ لِما أصابه من التعب والعجز والتقدم في العمر، وقد قعد عن الكسب، وليس له إلا هذا البستان، وهو وأولاده في أمسِّ الحاجة له، وهو في هذه الحالة من الترقب والفرحة واللهفة والانتظار لجني بستانه، ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾، فإذا هو يتفاجأ بإعصارٍ شديدٍ عاصف هائل، فيه نار يضرب البستان، وفي لحظةٍ واحدة يقتلعُ أشجاره، ويحرق ثماره، ويفتك به أشدَّ الفتك، ويتركه كالصَّريم، ويؤول به إلى جحيم، وجاء هذا الشيخ ينظر في هذا البستان بعد أنْ كان جنّة يانعة خضرة، فإذا هو كالليل البهيم. لك أنْ تتخيل حاله، وتتصوّر مشهده وهو ينظر إلى بستانه بعد أنْ احترق والدموع تملأ عينيه، والحسرة تأكل قلبه، والهمّ يعلو رأسه، وقد ضاع تعبُ السنين، والألم يعصره عصراً، ولا يستطيع أنْ يصلحَ شيئاً من بستانه لذهاب عمره وقوته وماله، وهو يقلب كفيه على ما أنفق فيها.

بقي هذا الشيخ الكبير هو وأولادُهُ في حالة شديدة من البؤس والحيرة والغمّ والحسرة والحرمان، وألم نفسي عظيم مِن تلك الجنّة التي كانت محط آماله، ومنتهى أحلامه. ولك أنْ تتخيل حالة هذا العجوز ونفسيته، التي تحولت من سعادة إلى تعاسة وشقاء ونكد.

إنّ الكلمات لتعجزُ عن تصوير ما يصيبُ هذا البائسَ من غمّ وهمّ

وحزن وحسرة وألم، وهو يرى جنَّته قد احترقت، وآماله قد تبدَّدت، وهو في أشد أوقاته حاجة إلى ظلها وثمارها ومنافعها.

فشبَّه اللهُ (المرائي في عمله) بـ: (الرجل العجوز)، وشبَّه (أعماله) بـ: (الجنّة)، وشبَّه (الرِّياء) بـ: (الإعصار الذي أكل الجنّة).

فلولا إعصارُ الرِّياء لَعاش هذا الرجل في جنّةِ أعماله ينعمُ ويرفلُ، ولكنّ الرِّياء أحبطها وأتلفها، وكذلك يفعل الرِّياء، فالحذر الحذر، والإخلاص الإخلاص.

فمثل المنافق المرائي والمشرك الذي تعب في عَمَل الصَّالحات وجَمْع الحسنات يوم القيامة، مثل هذا الرجل الذي أصابه الكبر والعجز، وذهبت قوته وقد تعب في زراعة البستان، ومثل الأعمال الصَّالحة مثل الجنّة التي فيها أنهار ونخيل وأعناب، والإعصار هو الرِّياء والنفاق والشرك وحبّ الدنيا الذي أحرق الحسنات، وأتلف الثواب.

فظنّ هذا المرائي أو المشرك أنه سيمرِّر رياءه على الله ويخدعه يوم القيامة كما مرره على الناس وخدعهم في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

وكما أنّ هذا الرجل قد شاخ وهرم، وأصابه الكبر والعجر، لا يستطيع أنْ يصلح شيئاً في بستانه لفقدان قوته وشبابه، وليس له أولاد يعينونه، كذلك المرائي والمشرك يوم القيامة لا يستطيع أنْ يصلحَ شيئاً من عمله، وهو أحوج ما يكون إليه، لذهاب دار العمل وهي الدنيا، وبقي دار الجزاء وهي الآخرة، ولا ينفعه أحد من أولاده ولا أصحابه. ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨].

فصورةُ المنافق والمرائي والمشرك وما يصيبه في الآخرة من الهمّ

والحسرة والندم والحزن أشد من حالة هذا العجوز الذي احترقتْ جنّته، وذهب عمره، وضاع ماله، ونحن نرى ونسمع مَن يخسر مباراة لكرة القدم، أو يُضيع ضربة جزاء كيف يندم ويتألم، وهي لا تتعدَّى أنْ تكون لُعبة، ومَن يخسر في تجارته، أو تُصدم سيارته، أو يُسرق ماله، أو يرسب في المدرسة، وغير ذلك مِن حوادث الدنيا الخفيفة الفانية كيف يعلوهم الهمّ والغمّ والكرب، ويصيبهم الندم والحسرة، ويبكون ويحزنون، فكيف بمَن أضاع جنّة عرضها السموات والأرض، وغضب عليه ربُّهُ وعرضه على النار؟! قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

لك أنْ تتخيل مقدار الندم الذي يصيبهم، والكرب الذي يعلوهم، والحسرة التي تأكلهم، ثمّ مآلهم إلى النار، نسألُ اللهَ العافيةَ، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، في هذه الأمثال يُبيّن الله الحقّ لعلهم يعتبرون في حالكم ومآلكم، فيعملون بصدق وإخلاص لله في العبادات؛ حتى لا يكون حالكم كحال هذا العجوز.

فلما نهى سبحانه في هذا المثل عن مُبطلات الأعمال، وضَرَبَ لها الأمثال، أمر المؤمنين بكسب الطَّيبات والإنفاق منها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

العبرة من المثل

هذا المثلُ رحمةٌ للعالَمين، يُنبههم به ويحذرهم عاقبة الرِّياء، يقول الله تعالى للناس بعد هذا التصوير البديع المؤثر: لا يحبّ أحدُكم أنْ يكون حالُه كحال هذا العجوز لا في الدنيا ولا في الآخرة، وكذلك الله تعالى لا يُريد لعباده أنْ يكونَ هذا حالهم، قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

فالاستفهام في (أَيَوَدُّ) يتضمن معنى النفي، ولا يحبّ أحدكم أنْ تكون له جنّة عظيمةٌ ثم تحترقُ في دقيقة واحدة، كذلك لا يحبُّ أحدكم أنْ تكونَ له حسنات كثيرة أمثال الجبال ثم يحرقها بنار الشرك والرِّياء والنفاق والمَنّ والأذى وغيرها من كبائر الذنوب، إذاً ما العمل؟ العمل يكون بالإخلاص في العبادة لله، والحذر من مبطلات الأعمال الصَّالحة، من الشرك والرِّياء والمنّ والأذى والغيبة وغيرها.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: المقارنةُ بين الأعمال الصَّالحة التي هي جنّة الدنيا؛ لأنّ الله شبَّه الأعمالَ الصَّالحة بالجنّة الغَنّاء التي فيها كلّ شيء، وهي الطريقُ الوحيدةُ إلى جنّة الآخرة، وبينَ بستان محترق وهي الأعمالُ الفاسدة.

الثانية: قوله: ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾، الإعصارُ وحدَهُ كافٍ في تدمير البستان، فلماذا فيه نار؟ وذلك لأسباب:

١ ـ منظر البستان المحترق وهو متفحمٌ يكون بشعاً مفزعاً أسودَ كالليل الأليل البهيم، يُورِثُ الهمّ والحزن والندم، وصورة تعلقُ بالأذهان، كذلك أعمال المنافق والمرائي والمُفسِد يوم القيامة بهذه الصورة التي تورث الحسرةَ العظيمةَ على ضياع الآخرة، كذلك تصوير الأعمال المحترقة كالبستان المحترق بهذه الصورة الأليمة؛ وذلك لِينفرَ الناسُ من الرِّياء والنفاق إلى الإخلاص في الأعمال الصَّالحة.

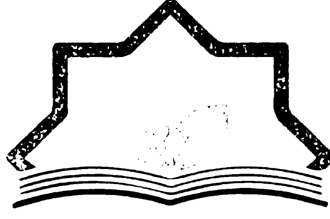
٢ ـ منظر بستان مهدّم غير محترق يكونُ فيه بعضُ الخضرة، والفسائل الصَّالحة للزراعة، والبذور التي يمكن أنْ تَنبُتَ من جديد، يعني يوجدُ أمل، أما مع الإحراق لا يمكن أنْ تُعاد زراعة البذور والفسائل والشتلات

المحترقة فقد تفحمت وماتت، فلا يُوجد أملٌ في زراعتها، كذلك المنافق والمرائي لا يمكن أنْ ينتفعَ بشيء من أعماله يوم القيامة؛ لأنها احترقت، فليس له أملٌ وقد انقطع عن الدنيا.

الثالثة: مثَّلَ سبحانه الشرك والرِّياء بالإعصار الذي فيه نار؛ لأنه أشدُّ أنواع الأعاصير فتكاً وتدميراً، كذلك الشرك والرِّياء أشدّ أنواع المبطلات للأعمال فتكاً وتدميراً للحسنات.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبينا محمد، والحمد لله ربّ العالمين.





المثل الثامن

عقوبة آكلي الربا

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

❖ **شرح المفردات:**

(يأكلون الربا): يأخذونه ويتصرَّفون فيه. وعبّر عن الأخذ بالأكل؛ لأنّ الأخذَ إنما يراد للأكل.

(لا يقومون): أي من قبورهم يوم القيامة.

(يَتَخَبَّطُه): الخبط: المشيُ على غير استواء. ويقال للذي يتصرَّف في أمرٍ ولا يهتدي فيه: يخبط خَبْطَ عَشْواء.

(يتخبطه الشيطان): يضربه الشيطان بشكل عَشْوائي.

(الشيطان): من شَطَنَ، أي: بَعُدَ عن الخير بفسقه أو بطبعه.

(المس): التلبس والجنون أو الصرع.

(موعظة): أمر أو نهي بترك الربا.

(فله ما سلف): ليس عليه أنْ يردَّ الأموال التي سبقت توبته.

❖ تمهيد:

تعريف الرِّبا وأنواعه

الربا في اللغة: الزِّيادة مطلقاً. وفي الاصطلاح: هو زيادةٌ على رأس المال دون مقابل.

وأشهر الربا: (ربا الديون): وهو الذي نزل القرآنُ بتحريمه، وهو محرمٌ في جميع الشرائع السماوية، ومعناه: الزِّيادةُ في الدين مقابل الزِّيادة في الأجل. وهو الذي كان شائعاً في الجاهلية، وعادت إليه البنوكُ في واقعنا المعاصر، وهو أشهرُ أنواع الربا، وأشدها قبحاً.

الربا نوعان: ربا الفضل، وربا النَّسيئة، وربا النَّسيئة هو الرِّبا الأعظم، وهو ربا الجاهلية.

أولاً: ربا الفضل: وهو الزِّيادة، ويكون في ستة أشياء كما ورد في الحديث، وهي مجمعٌ عليها بين العلماء، وهي: (الذهب، والفضة، والبر، والشعير، والتمر، والملح)، يعني: إذا باع أحدهما بالآخر الذي من جنسه تحرم الزِّيادةُ، ويجبُ أمران:

الأمر الأول: التماثلُ في الكيل أو الوزن أو النقد، يعني: لا يجوزُ أنْ تقترضَ قرضاً وتسدِّده بأكثر منه، فهذا حرامٌ من كبائر الذنوب. أو تعطي تمراً أو بُرّاً وتأخذ تمراً أو بُرّاً أكثر مِمّا أعطيت، فهذا ربا، لأنَّ الزِّيادة ربا.

والأمر الثاني: التقابضُ في مجلس العقد يداً بيد، لقول النبي ﷺ في صحيح مسلم: «**الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ، مِثْلاً بِمِثْلٍ، سَوَاءً بِسَوَاءٍ، يَداً بِيَدٍ، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَداً بِيَدٍ**».

ثانياً: ربا النَّسيئة: ومعنى النَّسيئة: التأخير والتأجيل، وهو بيعُ أحد الأصناف الربوية المتقدِّمة بجنسه أو بغير جنسه متماثلاً أو متفاضلاً مع تأخير القبض، بمعنى أنّ شخصاً باع ذهباً بالدَّين أو الأقساط، فهذا لا يجوزُ؛ لقوله ﷺ أعلاه: «إِذَا كَانَ يَداً بِيَدٍ»؛ لأنه يجب القبضُ في مجلس البيع، فتأخير أحد العوضين هو ربا النَّسيئة؛ لأنّ مدار ربا النَّسيئة على التأجيل وتأخير القبض.

التدبر في المثل

لَمّا ذَكَر الله تعالى الأبرارَ المؤدِّينَ النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضِّلين بالبرِّ والصِّلات لذوي الحاجات والقرابات في جميع الأحوال والأوقات في الآيات السابقة، ضرب مثلاً لآكلي الربا، وأموال الناس بالباطل، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ﴾، أي: إنّ صفة المرابين وصورتهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونُشُورهم وحسابهم يوم القيامة، أنهم ﴿لَا يَقُومُونَ﴾، أي: ليس لهم قيام إلا ما سيُوصف لك، ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾، يقوم المرابون حيارى سكارى مضطربين على أسوأ حال.

كحال الذي أصابه جنونٌ أو صَرْعٌ أو خَبَلٌ وفساد في عقله كلّما قام وقعَ، وهو في هذه الحالة من العذاب والصَّرعِ والاضطراب والخَور والضعف، يهجم عليه الشيطان مستغلاً صَرَعَهُ وضعفه وذهاب عقله وقوته، فيضربه ضرباً همجياً عشوائياً في كلّ مكان من جسده، فيعاني من أذى صرعه وجنونه، وضَرْب الشيطان له.

أو إنّ حالة المرابي حين يقومُ من قبره كحال مَن تلبّس به الشيطانُ على غفلة منه لِيفقده قدرته وقوته وإرادته وعقله، ليعتدي عليه بالضَّرب وغيره.

هذا المشهدُ قد نراه أحياناً في حياتنا وواقعنا عند مَن بهم جنونٌ

وصرع، وهو نفسه سيحصل للمرابي، وأشدّ منه إذا خرج من قبره يوم القيامة عقوبة له؛ لأنه أكل الرِّبا، وتمتع به، واستغلّ حاجة الناس، وكذلك هي علامة يُعرفون بها يوم القيامة، كما يُعرفون بانتفاخ بطونهم، وذلك لأنهم استحلُّوا الرِّبا، وساوَوا بينه وبين البيع مِن حيثُ الحكم؛ فقالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، قالوا: البيع فيه منفعةٌ للطرفين، وكذلك الرِّبا فيه منفعةٌ للطرفين؛ فيكون الرِّبا حلالاً كالبيع، فقاسوا بين البيع والربا قياساً فاسداً، وحكموا على الرِّبا بالحلّ.

هذه العقوبةُ العظيمةُ لهم؛ لأنهم يُشرعون للربا ويدافعون عنه بعد أكله، فردّ الله تعالى عليهم، وبيّنَ قياسهم الفاسد بقوله الحق: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، أي: أنّ البيعَ معاوضةٌ لا غبنَ فيه، وهو تحريكُ الأموال بالعمل والبيع والكسب والصناعة والتجارة والزراعة والنشاط، أمّا الرّبا فهو محض استغلالٍ لحاجة المضطر، وليس له مقابل ولا عوض ولا عمل ولا تجارة بل هو أموال مقابل أموال، وفيه الكسل والكساد، وتعطيل للصناعات، وأكل للأموال بالباطل.

فمُلَخّص التشبيه في الآية الكريمة: أنها تصوّر المرابي عند خروجه من قبره بصورةِ مجنون مصروع يقوم ويسقط، ومع ما فيه من الأذى يضربه الشيطانُ في كلّ مكان من جسده؛ لأنه أكلَ أموال الناس بالباطل أضعافاً مضاعفةً في بطنه عن طريق الربا، وتخبط فيها كما يحبّ، ودافع عنه، وجادل فيه، وناضل لأجله، بخلاف من أكل الرِّبا وسكت، أو أقرَّ بحرمته وضرره، فكان الجزاء من جنس العمل.

هذه الصُّورةُ المرعبة المفزعة الفاضحة المخزية للمرابي يوم القيامة، تحملُ كلّ عاقل على الابتعاد عن كلّ معاملة فيها رائحة الربا.

فلما بيّنَ سبحانه عاقبةَ الرِّبا والمرابي، حثَّ على الصَّدقات وبيَّنَ

ثمرتها، فقال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. فوعد الله بمحق الربا، ومآل المرابي إلى قلّةٍ ونقصٍ. ومضاعفة أجورِ المتصدِّقينَ في سبيله.

العبرة من المثل

بيّنَ الله تعالى خَطَرَ الرِّبا وحُرمته وشَناعته ومآل أهله، بل أعلن الحربَ على أصحابه، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩]. ؛ لأنّ الرِّبا استغلالٌ للفقير وحاجة الناس، وتعطيلٌ للعمل والسعي والإنتاج، بل تعطيلٌ لكل فكر عمليّ ونشاط حيوي، والربح فيه بلا عوضٍ أو جهدٍ.

فالإسلامُ دينُ الرحمة والعطف والتعاون والعمل والكسب والربح، أوجب على الناس أنْ يتعاونوا في وقت الشّدة والضّيق، وأنْ يتراحموا في وقت العسر والمشقة، فإذا احتاج الواحدُ إلى مبلغ من المال، فعلى الآخرين مساعدته بالصَّدقة أو بالقرض الحسن أو غيرها من ألوان المساعدة، ولا يرهقه بإقراضه مبلغاً من المال مع زيادة معيّنة أو نسبية تتزايدُ مع مرور الزمان، تكونُ وبالاً على المقترض وسُحتاً حراماً على المُقرِض.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: عبّر بالأكل في الرِّبا بدل الأخذ، ويدلُّ ذلك أنّ طعامهم وشرابهم ولباسهم من أموال الرِّبا، غير مبالين بالأكل الحرام، وليس انتفاعُهم بأموال الرِّبا انتفاعاً خارجياً أو هامشياً، وإنما تخلَّل الرِّبا في جميع شؤون حياتهم.

الثانية: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، (يأكلون) عبّر بالمضارع، أي: الذين هم مستمرّون بأكل الرِّبا يُصيبهم التَّشبيه، أما الذين أكلوا الرِّبا ثمّ تابوا يتوبُ الله عليهم، كما ذكر في نهاية الآية.

الثالثة: التشبيه التمثيلي في تشبيه آكلي الرِّبا عند خروجهم من قبورهم بمَن أصابه مسّ فاختلَّ طبعُهُ، وانتكست حالُهُ، وصار يتهافتُ في مشيته ويترنَّح في خطواته، ترنُّح السكران، ثم يهوي مكباً على وجهه من سوء الطالع، وقبح المنقلب، وشناعة المصير، والجزاء عادة وعقلاً من جنس العمل.

الرابعة: قوله: ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾، (مِن) سببية تعليلية، أي: بسبب المسّ، كقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ [نوح: ٢٥]، أي: بسبب خطيئاتهم أُغرقوا. وكقولك: بكى الطفلُ مِن الجوعِ، أي: بسبب الجوع.

الخامسة: التشبيهُ المقلوبُ في قولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ وهم يريدون القولَ بأنّ الرِّبا مثل البيع؛ ليصلُوا إلى غرضهم، وهو تحليلُ ما حرّمه الله، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حلِّ الرِّبا وانتشاره بينهم أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً يُقاس عليه في الحلّ، حتى شبّهوا به البيع، فعكسوا الكلام للمبالغة، وجاؤوا بـ: (إنّما) للحصر والتوكيد، في مثلية البيع للربا، وهو في البلاغة مرتبةٌ عُليا يُصبح المشبّه به قائماً بالمشبه وتابعاً له، يعني بدل أنْ تقول: زيدٌ كالقمر، كما هو معروف من التشبيه، تقول: القمر كزيد. وهو يُسمّى التشبيه المقلوب، وهو أعلى أنواعِ التشبيه. وهم بدل أنْ يقولوا: الرِّبا مثل البيع، قالوا: البيع مثل الربا.

السادسة: قوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾، هذا المقطع من الآية يُسمِّيه الأصوليون (نصّاً) لظهوره، وبيان المقصود منه؛ لذا يجعلون قاعدة مفادها: (الأصل في البيع الحل، وفي الرِّبا الحرمة). ويسمّون (الألف واللام) الداخلة على المصدرين (البيع والربا) للجنس التي تفيد العموم، والمعنى: وأحلَّ الله جنس البيع، وحرم جنس الرِّبا إلا ما استثناه الدليل من حلِّ البيع وحرمة الربا، فهو مالٌ مخصوص. فـ (ال) التعريف إذا دخلت على المفرد، إنْ كانت للجنس أو للاستغراق فهي للعموم، وإنْ كانت للعهد

فهي ليست للعموم وإنما للماهية، مع اتفاقهم أنّ الجمع المحلى بـ: (ال)، والجمع المضاف، والمصدر المضاف كلّها تفيد العموم.

السابعة: لَمّا ذكر الله تعالى المرابين الذين يتلاعبُ بهم الشيطان، ذكر في آيةٍ صورة المتقين إذا تعرض لهم الشيطان، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

إنَّ المتقي إذا أحسَّ بذنب، ومسّه طائف من الشيطان، بوسوسةٍ أو إغراء فأذنب بفعل محرم، أو بتركِ واجبٍ تذكر من أي باب أُتِيَ، ومن أيِّ مدخل دَخَلَ عليهِ الشيطانُ، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فردّ شيطانه خاسئاً حسيراً، قد أفسد عليه كلّ خطط له وما أدركه منه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥ ـ ١٣٦].

الثامنة: لفظة «الشيطان» جاءت في القرآن بلفظ المفرد والجمع، والشيطان هو كلّ مَن دعا للفساد والبغي وإغواء الإنسان؛ سواء من الجنّ أو الإنس. أمّا «إبليس» فلم يأتِ إلا بلفظ المفرد، وكلّ المواضع التي ذُكِر فيها أشارتْ إلى خطيئته الكبرى وجداله لله؛ برفض السجود لآدم عليه السلام.

وصلِّ اللهمّ وسلِّمْ على نبينا محمّد، والحمد لله ربّ العالمين.





المثل التاسع
بطلان نفقات الكفار وأعمالهم يوم القيامة

قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

❖ **شرح المفردات:**

(كمثل): كصفة ما ينفقونه لإبطال دعوة الإسلام.

(الصرّ): الريح الباردة الشَّديدة التي تقتل الزَّرع وتفسده. ويقال: (الصرّ): صوت لهب النار التي تحرق الزرع، وقيل: (الصرّ): ريح فيها صوتٌ ونارٌ.

(الحرث): الزرع.

(ظلموا أنفسهم): بالشرك والمعاصي فعرضوها للهلاك والخسران.

التدبر في المثل

بعد أنْ ذكر سبحانه مآلَ الكفار يوم القيامة ومصيرهم ومصير أعمالهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦].

ضرب لهم مثلاً يخبر فيه المؤمنين، ويُصَوِّر فيه بطلان أعمال الكافرين

في الدنيا، وعدم انتفاعهم بها في الآخرة، فالإنسانُ تبعٌ لأعماله، قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، مثل ما ينفقون من تبرعات ونفقات وكفالات وأُعطيات، ولم يطلبوا بها وجه الله، ولم تكنْ على أساس التّوحيد والإيمان، يكون مصير هذه الصَّدقات، يوم القيامة ومثلها، ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾، تكون صفة بطلان صدقاتهم ومصيرها، كمَثَل رجلٍ زرع زرعاً يرجو نتيجته، ويؤمل إدراكِ ريعه وثمرته، فبينما هو كذلك قد قرُبَ من جُذاذِ زرعه، وقطف ثمره.

وإذا بريح صَرْصَر عاتية مدمرة فيها برودة شديدة، ولها وجِيْف وصرير كصرير الباب من شدتها، قد ضربتْ ذلك الزرع وفتكت به فأهلكته ودمرته، ولم يحصل له إلا التعب والعناء، وزيادة الأسف والندم والحسرة، على ما بذل فيها من الأموال والأوقات والجهد. فكذلك هؤلاء الكفار الذين ينفقون أموالهم رياءً وسمعةً وتفاخراً وصداً عن سبيل الله، تفسد أعمالهم، وتحبط أجورهم، كما أفسدت الريحُ الزرعَ، كما قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

فضرر نفقة الكفار عليهم كضرر هذه الريح في هذا الزرع، وحتى لا يقولوا نحن مظلومون، فقد أنفقنا وتصدقنا وأعطينا، فلماذا لا نجد أجور نفقاتنا في صحائف أعمالنا؟ فقال تعالى، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وما ظلمهم الله بإبطال أعمالهم التي بذلوا فيها أموالهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بكفرهم بآيات الله، وبتكذيبهم لرسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]؛

لأنّ الله تعالى وضع شروطاً لقَبول العمل الصَّالح، وهي الإيمانُ بالله ورسوله، والإخلاص في العمل لله، والمتابعة فيه لرسول الله ﷺ.

ومع هذا فإنَّ الله يجزي الكفار على أعمالهم النافعة في الدنيا، جزاء ما نفعوا به البشرية، من صحة وأموال وأولاد ومكانة وشهرة، وأما في الآخرة فليس لهم شيء، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِناً حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا للهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا**» [أخرجه مسلم: ٧٢٦٧]؛ لأنّ أعمالهم ليست لله وإنما للدنيا أو لله، ولكنها ليست على أساس التّوحيد والإيمان بالله ورسوله.

فـ (الريح التي فيها صرٌّ) هو الكفر والشِّرك والنِّفاق والرِّياء، و(الحرث) هو إنفاقُ الأموال في أعمال الخير لغير وجهِ الله.

فشبَّه الله تعالى الكفرَ والنفاق والرِّياء بـ: الريح الهائجة العاتية الباردة التي هجمتْ على ثمرة الحرث والخير الذي أنفقوا فيه أموالهم فأهلكته وأفسدته، وصاحبه أحوج ما يكونُ إليه، كذلك يأتي الكافر يوم القيامة فيجد أنّ ريحَ الكفر قد ذهبتْ بأعمال الخير التي بذل فيها، وكذلك شأن المسلم الذي يتعبد ويتصدق رياء وسمعة.

فلما بيّنَ سبحانه مصير الكفار وأعمالهم، نهى المؤمنين أنْ يتخذوهم مستشارين وحمايات ومقرَّبين، يظهرونهم على سرائرهم، ويسألونهم النُّصح، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]؛ وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأتْ قلوبُهم من العداوة والبغضاء فظهرتْ على أفواههم، وما تخفي

صدورهم أكبر مِمَّا يُسمع منهم، فلهذا لا يقصر أعداء المسلمين في حصول الضَّرر، والمشقة، وعمل الأسباب التي فيها خذلان المسلمين وأذيتهم.

العبرة من المثل

الإيمانُ بالله والتّوحيد والإخلاصُ في العبادات أساسُ قَبول الأعمال؛ لأنّ الكفر والشِّرك والنفاق والرِّياء والمَنّ كلّ واحد منها محبطٌ للأعمال. بل إنّ الله أمر بالإخلاص وكأنْ لم يأمر بغيره، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]؛ لأنّ الإخلاصَ هو الأساس الذي تُبنى عليه باقي الأعمال الصَّالحة، فالأعمالُ بلا إخلاص لله لا نفعَ لها ولا فائدة.

وأساسُ بلاء الإنسان ومصائبه في الدنيا والآخرة هو الشِّرك بالله؛ لأنه ظلم للنفس، وتجاوز على حقِّ الله، وهو سببُ ضياع ثمرة الأعمال الصَّالحة التي عملها في الدنيا، فلا يبقى لصاحبها إلا الحسرة والندامة.

لذلك كان الإيمانُ والصِّدق والإخلاصُ وابتغاء مرضاة لله هو المنجاة عند الله سبحانه، فلن ينتفعَ أحد بعمله إلا بالإخلاص لله تعالى.

فسببُ إحباطِ أعمالِ الكفارِ يومَ القيامةِ ولو كانت في الخيرات، هو فقدُ الإيمانِ، وبناؤهم العمل على قاعدة الكفر، وتركهم النظر في الدلائل الموصلة إلى مرضاة الله.

فتجد وتسمع وترى أنّ الكثيرَ من الكفار يتبرعون بالملايين للفقراء والمشرَّدين، ويكفلون الأيتامَ، ويبنون المدارس، ويعملون أعمالَ البرِّ والخير، ولكن هذا كله حابطٌ ذاهبٌ عند الله يوم القيامة، بسبب الكفر وعدم وجود قاعدة الإيمان التي تُبنى عليها الأعمال، فإنْ توافر الإيمان، وصحَّ اليقين، وكان الإنفاقُ بقصد وجه الله تعالى، لا للرياء والسُّمعة، كان مقبولاً عند الله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

فالله تعالى يدعو الناسَ في هذا المثل إلى الحرص الشَّديد على الإخلاص في الأعمال، وابتغاء وجهه فيها، فهو ريحُ الإيمان الطيبة التي تحفظها من الهلاك، وتنقل صاحبها إلى جنّة بإذنه تعالى.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: وقع في الآية التشبيهُ بين هلاك النفقة، وإهلاك الريح للحرث، فحذف الأول وهو (هلاك) النفقة، لدلالة الثاني عليه وهو هلاكُ الحرث؛ لأنه هو المقصودُ من المثل.

الثانية: قوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾، مضارع مستمرٌّ إلى قيام السَّاعة، في إشارة إلى أنّ الكفار مستمرّون في النفقة للصدِّ عن سبيل الله، وأنّ حبوطَ أجورهم مستمرٌّ ما دام أنّ النفقة ليست في سبيل الله.

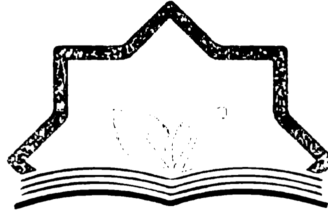
الثالثة: كلمة (حَرْث) والمقصود هو الزَّرع، فعبَّر عن الزرع بالحرث؛ ليعرفَ الإنسانُ أنه إنْ لم يحرثْ فلن يحصد، وإنّ المؤمن إنْ لم يعملْ ويُخلص في زرع العمل فلن يفلحَ في الآخرة، ولن يحصد ثمرةَ عمله.

الرابعة: قوله: ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، قدَّم المفعولَ به (أنفسَهم) على الفعل والفاعل جوازاً للتوكيد والاختصاص، أي: لم يقعْ وبالُ ظلمهم إلا بأنفسهم خاصة لا يتخطَّاهم، ولم يظلمهم الله، فالله تعالى منزّه عن الظلم سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. و(أحداً) نكرة في سياق النفي، فتعمُّ جميعَ أنواع الظلم.

الخامسة: قوله: ﴿يَظْلَمُونَ﴾، مضارع يفيدُ تجدُّد الظلم واستمراره منهم لأنفسهم.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبينا محمد، والحمد لله ربّ العالمين.





المثل العاشر

ثقة المؤمنين بربهم، وحيرة المشركين وضلالهم

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

❖ **شرح المفردات:**

(أندعو): أي أنعبد؛ لأنّ معنى الدعاء: العبادة.

(ما لا ينفعنا ولا يضرنا): أي ما لا يقدر على نفعنا لو طلبناه، ولا على ضرّنا إذا تركناه.

(ونردّ على أعقابنا): أي نرجع كفّاراً بعد أنْ كنّا مؤمنين.

(استهوته): السين والتاء تدلُّ على الطلب، أي: طلبت إهواءه وإغواءه وإسقاطه وإضلاله.

(استهوته الشياطين): أضلَّته في الأرض، فهوى فيها تائهاً حيرانَ، لا يدري أين يذهب.

(حَيْرَانَ): هو المتردِّد بين أمور.

❖ **تمهيد:**

قبل الدُّخول في بيان معنى المثل لا بُدَّ من بيان معنى الشِّرك وأنواعه؛

لأنّه من الواجبات المتحتِّمات، ومن أهمِّ المهمَّات على المسلمين، أنْ يعرفَ العبدُ معنى الشِّرك وخطره وأقسامه حتى يتمّ توحيدُهُ، ويسلم إسلامُهُ، ويصحّ إيمانُهُ، وينجو عند ربه سبحانه.

تعريف الشِّرك وأقسامه:

الشِّرك: هو اتخاذُ الشَّريك أو النّد مع الله جلَّ وعلا في الربوبية أو العبادة، يُدعى كما يُدعى الله.

أقسام الشِّرك

أولاً: الشِّرك الأكبر: وهو صَرْفُ عبادةٍ لغير الله، كمَن نذر لغير الله، أو ذبح لغير الله، أو دعا غير الله، أو استعان بغير الله، أو استغاث بغير الله في ما لا يقدر عليه إلا الله، فهذه كلُّها عباداتٌ من حق الله ولا تُصرف لغيره، يعني يقول: يا فلان الولي الصَّالح أغثني، يا فلان اقضِ حاجتي، يا فلان اشفِ مريضي، يا فلان أدركني، وينذر لفلان، ويذبح للولي فلان، سواء كان هذا المدعو مِن دون الله أو المنذور له مِن دون الله، نبيّاً أو وليّاً أو رجلاً صالحاً أو مَلَكاً أو جِنِّيّاً أو ميّتاً، أو غير ذلك من المخلوقات، فإنّ هذا من الشِّرك الأكبر المخرج عن الإسلام؛ لأنه صرفٌ للعبادة لغير الله، ومَن صَرَفَ العبادةَ لغير الله فقد اتخذ هذا الغير إلهاً من دون الله. قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجنّ: ١٨].

ثانياً: الشِّرك الأصغر: وهو ما دون الأكبر وقد يكون وسيلةً إليه، كالرِّياء والحلف بغير الله، وتعليق التمائم، وقول: لولا الله وفلان.

الدعاء هو العبادة

سمّى الله ﷻ الدعاءَ عبادةً، فقال في وصف الشِّرك: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٦]. فسمّى سبحانه دعاء غيره

عبادة، بل جعل الدعاءَ الدينَ كلّه، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥]. وقال النَّبيُّ ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»، وقرأ قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [أخرجه أصحاب السنن الأربعة].

قال القرطبي في الجامع: الدعاء هو العبادة. وكذا قال أكثر المفسرين.

وقال ابنُ حَجَر في فتح الباري: وضع عبادتي موضع دعائي، فمَن دعا غير الله فقد عبدَ غير الله.

التدبر في المثل

سَبَبُ نزول الآية وضَرْب المثل؛ أنّ المشركين قالوا للمسلمين: اتركوا دينَ محمّد ﷺ واتبعوا سبيلنا؛ لأننا أكثر أموالاً وأولاداً، وأحسن مقاماً ونادياً، كما ذكر الله عنهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]. وقالوا: إنْ كان عليكم إثمٌ في الرجوع عن دِيْن محمّد نحن نحمله عنكم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]. فأنزل الله تعالى هذه الآية، مثلاً لِمَن يدعو إلى الكفرِ بعد الإسلام، والرِّدة بعد الإيمان، وعبادة غير الله تعالى، بأنْ يُجيبه المؤمن الموحِّد مستنكراً عليه، وموبخاً له، ومبيناً حقيقة دعوته وآلهته المزعومة، كما أمره الله، وعلَّمه الجواب: بـ: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، أي: أنطيع رأيكم ونعبد آلهةً وأوثاناً وأمواتاً لا ينفعون إنْ أردنا المنفعةَ منهم، ولا يضرّون إن انصرفنا عنهم وتركناهم؛ وذلك لأنهم عاجزون تماماً، بل هم محتاجون إلى عنايةٍ وحمايةٍ ورعايةٍ، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ ـ ٧٥]، بمعنى أنتم وضعتم جنوداً يحمون هذه الآلهة، وهذه الأوثان، وهؤلاءِ الأموات

مِن أنْ يُعتدَى عليهم، فكيف يحمونكم وينصرونكم ويقضون حوائجكم؟! ومَن كان هذا حاله فلا يستحق العبادة.

وقوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، وهذا استنكارٌ آخر بعد الأول من المؤمنين، بأنْ يقولوا للمشركين: كيف نتركُ نعمةَ الهداية التي لا تعدلُها نعمة، وقد أتمّها الله علينا، وندعو ما لا ينفع ولا يضرّ، فإنْ دعونا من دون الله فقد رجعنا بعد الهداية إلى الضَّلال، وانقلبنا من الرشد إلى الغي، ومن الصِّراط الموصل إلى جنَّات النعيم، إلى الطُّرق التي تفضي بسالكها إلى الجحيم.

فهذه حالٌ لا يرتضيها أصحابُ العقول، فتخيل: رجلاً يمشي إلى الأمام ومستقيماً في مشيته، فهو يرى الطريق فلا يقع في الحفر والمزالق التي هي الشِّرك والشبهات والفتن والبدع، فهو حتماً يصلُ إلى غايته سالماً إنْ شاء الله، وهي جناتُ النعيم، وهذا هو صاحبُ الهدى.

وتخيّل رجلاً يمشي إلى الخلف، فهو لا يرى الطريق، فحتماً يسقط في الحفر والمزالق التي في الطريق، والتي هي الشِّرك والبدع والشبهات، وحتماً لا يصل إلى غايته، بل يبتعد عنها كثيراً كلما مشى إلى الخلف؛ حتى يسقط في آخر الطريق في نار جهنم، وصار ﴿كَٱلَّذِى ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: كمثل رجلٍ خرج مع صحبةٍ مؤمنةٍ ساروا في طريقٍ مستقيم، موصل إلى الغاية الحميدة التي خرجوا إليها، فدعاهم أئمةُ الضَّلال من شياطين الجنّ والإنس إلى ترك الإيمان بإغراءٍ وإغواءٍ وشُبهاتٍ، فخرج واحدٌ من هؤلاء الرفقة المؤمنة عن الطريق، وذهب إليهم بدافع الفضول أو الطمع أو غيره، ودخل معهم في طُرُقِ الأرض المتشعبة والملتوية والكثيرة، وهو قليلُ علمٍ، حديثُ إيمانٍ، فاستغلَّته الشياطين؛ لانفراده عن أصحابه الذين يتقوَّى بهم «**وإنما يأكلُ الذئبُ مِن الغنمِ القاصية**»، واجتمعت عليه، ترهيباً وترغيباً، وزيَّنت له المعاصي وأوقعته في الهوى،

وأخرجته عن الهدى، وسيَّرته كيف شاءت، وذهبت به بعيداً في الصَّحراء والمتاهات عن الطريق الذي كان فيه مع المؤمنين، فأصبح ﴿حَيْرَانَ﴾ تائهاً متخبطاً لا يدري ما يصنع، ولا يعرف أين يذهب!

ولكنْ لماذا صاحبُ الضَّلال (حيران)؟ وللجواب أقول: لأنه فارق الجماعة، وخرج عن الهدى الذي هو السَّبيل القويم، والصِّراط المستقيم الحق لا شكَّ فيه بدليله البيّن، إلى الضَّلال الذي هو عبارةٌ عن ظلماتٍ وسُبُل كثيرة، ليس على الضَّلال الذي هو فيه دليلٌ واضحٌ، فلم يقتنع به في قرارة نفسه، فهو حيران بين عقله وشهوة نفسه وهواه والفرق الضالة.

ثم ذكر سبحانه أنّ أهلَ الإيمان ما زالوا يدعونه، فقال: ﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ﴾، وأصحابه المؤمنون ينادونه ويدعونه أنْ يرجعَ معهم إلى الطريق الصَّحيح، وإلى الصِّراط المستقيم؛ لأنهم مشفقون عليه مِمّا هو فيه من الضَّلال، ولكن هو لا يجيبهم؛ لأنّ الشياطينَ اشتدَّت عليه، واستولتْ على عقله وقوته وإرادته، وزينت له الباطل، وأفهمته أنه الحق، وأغرقته في المعاصي.

هذا حالُ مَن دخل في الشِّرك بعد التَّوحيد، وعَمِل بالكفر بعد الإيمان، ورَتَعَ في سُبُل الهوى، بعد الرشاد والهُدى، ووضع نفسه وعقله تحت قهر أئمة الضَّلال، وحتى لو أراد أنْ يرجعَ إلى الإيمان فما تَلَبَّسَ به من المعاصي والذنوب التي رانتْ على قلبه، تمنعه من العودة، فلا يستطيعُ أنْ يجيبَ نداء الإيمان الذي ينبع من قلبه، أو الذي يسمعه من أصحابه، أو من كتاب ربه، كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]. فبإيغاله في الذنوب قد يُحال بينه وبينَ الإيمان إلى أنْ يشاء الله به خيراً، فتحدث له صدمةٌ أو صعقةٌ ترجعُ به إلى الإيمان.

فكثيرٌ من الناس يريد أنْ يتوبَ ويستقيمَ ويلتزمَ ويحب ذلك، ولكن

لا يفعل؛ لذهاب إرادته، وضعف إيمانه، وقوة شيطانه، وسوء أقرانه، وقد يُحال بينه وبين الإيمان بسبب شقاء نفسه، وبُعد عهده.

ثم أمر الله رسوله والمؤمنين أنْ يقولوا لِمَن يدعونهم إلى غير هدى الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: ليس الهدى إلا الطريق التي شَرعها الله على لسان رسوله ﷺ، وما عداه ضلالٌ محضٌ، وغيٌّ بحتٌ مهما أراد صاحبها الخير إذا لم يكن موافقاً لكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

ولَمّا كان الإنسانُ حيرانَ لا يعرف أين الحق لكثرة الفِرَق والمذاهب والجماعات، وكلٌّ يدَّعي وصلاً بليلى، أرشد الله الحائرين إلى الهدى الذي يرتضيه فقال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، أي: الذي في كتاب الله، فإنِ اختلف عليك الهدى من كتاب الله رجعت إلى سُنَّة رسول الله ﷺ تُبيِّنُ لك ما اختُلِفَ فيه من الحقِّ بإذن الله. فإنْ لم تفهم رجعت إلى فَهْم أصحاب رسول الله ﷺ يتَّضح لك الحق كعين الشمس في وسط النهار دون سحاب.

ثمّ أمر الله المؤمنين بالانقياد له بقوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بأنْ ننقاد لتوحيده، ونستسلم لأوامره ونواهيه، وندخل تحت عبوديته، فإنّ هذا أفضل نعمةٍ أنعم الله بها على العباد، وأكمل تربية أوصلها إليهم.

فـ (**المُنكِر على الكفار**)، هو رسولُ الله ﷺ ومَن تّبعه، و(**الذي لا ينفع ولا يضر**)، هو كلُّ مَا عُبد من دون الله، و(**الردة على الأعقاب**) هو الدُّخولُ في الشِّرك بالله، و(**الشياطين**)، شياطين الإنس أئمة الشِّرك الدَّاعون إليه، و(**في الأرض**) كثرة الأهواء والشُّبهات والبدع، و(**الحيران**) هو الذي ارتدَّ بعد إيمان، و(**الأصحاب الداعون**) هم المؤمنون الذين يدعون إلى التّوحيد. (**إلى الهدى**) الصِّراط المستقيم، و(**هو الهدى**) الإيمان الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وأما غيره فضلالٌ مبين.

فالمثلُ يُصوِّر الحيرة عند أهل الضَّلال والمرتد في أقبح صورة كانت

تتصوَّرها العرب، وهو استعبادُ الشيطان للإنسان، والسيطرة عليه، والتصرف به وإضلاله، وأخذه بعيداً عن كلّ خير. وبعد أنْ أمر الله رسوله والمؤمنين بالردِّ على مَن يدعو إلى الضَّلال، وضرب لهم المثل الموضِّح لحال مَن يرتد عن الإيمان، أمرهم بإقامة الصَّلاة والعمل بتقواه، وذكَّرَهم بأنهم راجعون إليه، فيجزي المطيع على طاعته، ويُعاقب العاصي على عصيانه، فقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٢].

العبرة من المثل

١ ـ الإكثار من دعاء الله تعالى بالثَّبات على الهدى ودِيْن الحق؛ وذلك لكثرة الأهواء والشبهات ودعاة الضَّلالة. كان رسولُ الله ﷺ يُكثر من دعاء: «**اللَّهُمَّ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**».

٢ ـ تعلّم العلم النافع الذي يثبتُ به الإنسان ويوقن بما هو عليه، ويدفع به عن نفسه وعن الحق الذي هو عليه.

٣ ـ اختيار الصُّحبة الصَّالحة التي تُعينه وتذكره إذا نَسِي أو غَفَل، فالإنسانُ في حياته يريد أمرين اثنين لا ثالثَ لهما:

الأول: الحصول على المنفعة.

الثاني: النجاة من المضرَّة.

وهذان الأمران بيد الله تعالى، ولا يقدر عليهما إلا الله ولو اجتمع عليهما الإنس والجنّ؛ وإنزالهما بغير الله شِرك.

فما زال الصِّراع قائماً بين الحق والباطل، والتّوحيد والشِّرك، منذ قديم الزَّمان ويبقى إلى يوم القيامة؛ لأنّه من سنن الله الكونية؛ لِيتميّز الخبيث من الطيب، فالفتن والمواقف والأحداث تكشف عن الأخلاق والنيات ومعادن الناس ومعتقداتهم.

وكلّ المعارك التي جرتْ بين المسلمين والكفار من النصارى وغيرهم هي معاركُ عقيدةٍ وإيمان وقرآن، ولا يزالُ أهلُ الكفر يقاتلون المسلمين لأجل دينهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧]. فهذه غايةُ الكفار من قتال المسلمين على طوال الزَّمان هو أنْ يرتدَّ المسلمون عن دينهم لا لأجل ثرواتهم ونفطهم، فقتالُ أوربا وأمريكا وغيرهم من أعداء الإسلام والمسلمين قتال عقيدةٍ ودين، والمشكلة أنّ المسلمين يقاتلونهم حميةً ونخوةً وعروبة وتحت غيرها من المسمَّيات العاطفية، والشعارات الثورية؛ لذلك لا ينتصرون إلا أنْ يقاتلوا كما قاتل الأوائلُ من صدر هذه الأمة عقيدةً وإيماناً وتوكلاً على الله، ونصرة للدين تحت راية التّوحيد.

فصار من أهمِّ أصول شريعة الإسلام وشرائع الأنبياء السابقين القضاءُ على الشّرك، وتصفية معاقله، وإنهاء وجوده وآثاره بين الناس؛ لأنّ عقيدةَ الشّرك باطلة ظالمة تساوي بين الله العزيز الحكيم الخالق القادر المدبِّر الذي قهر كلَّ شيء بقدرته وعزته وبين المخلوق الصغير الحقير العاجز الذي لا يملك من الأمر شيئاً.

ومن ناحية أخرى فإنَّ الشِّرك يُسيء إلى الإنسان، ويحطّ من كرامته وقدره، وينزل به إلى مصافّ الحيوان بل أسوأ، ويجعله يرتعُ في دائرة الخرافات والأباطيل، ويكون سبباً في استعباده في الدنيا وعذابه في الآخرة. فالله تبارك وتعالى جاء بالهدى من عنده، وأهل الباطل جاؤوا بالهوى الذي يُشبه الهدى؛ لِيلبسوا على الناس دينهم.

فالإنسانُ بين هُدى وهوى لا ثالث لهما، فإن اتبع رسول الله ﷺ كان على الهدى، وإنْ لم يتبع رسولَ الله ﷺ كان صاحبَ هوى وكان ضالاً

مضلاً، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص: ٥٠].

فبالإيمان بالله، والثّبات عليه، وإخلاص النية والعمل لله، واتّباع الهدى يحفظ للإنسان كرامته، ويرتقي بنفسه إلى مكانة الملائكة الكرام، وينجو من تسلُّط الشياطين، واتّباع الهوى، وعذاب الآخرة.

❖ لماذا الطَّلب من الأولياء والصَّالحين ودعائهم في قضاء الحاجات وتفريج الكربات وشفاء الأمراض شرك لا يغفره الله؟!

الجواب: ذلك لأنّ الدعاء والاستغاثة والاستعانة عباداتٌ، والعبادات يجبُ أنْ تُصرفَ لله وحده؛ لأنّ الله تعالى أمر بهذه العبادات له وحده، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ [النساء: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجنّ: ١٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجنّ: ٢٠].

وصرفُ العبادات من الدُّعاء والاستغاثة والاستعانة والذبح والنَّذر والتبرك وغيرها لغير الله، تجعل من ذلك الغير المدعو إلهاً مثل الله، يُعبد كما يُعبد الله سبحانه، بل ويُعطى ذلك المدعو من دون الله صفات الله تعالى من الحياة والسَّمع والعلم والقدرة على التحكم وإجابة مَن دعاه؛ لأنّ الذي يدعو غير الله يعتقدُ فيمَن دعاه أنه حيٌّ قادر سميع عليم غنيٌّ، وإلا لماذا يدعوه؟! وكلّ عبادة لغير الله فهي عبادةٌ للشيطان، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١١٦ ـ ١١٨].

فدعاء غير الله هو الذي جعله يتخذ إلهاً مع الله مِن حيثُ يعلم أو لا يعلم، وهذا مخالفٌ لكتاب الله في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ

تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٥].

فقد أثبت الله تعالى في هذه الآية أنّ كلَّ مدعوّ غير الله لا يملك شيئاً لِمَن دعاه بل ولا يسمعه أيّاً كان هذا المدعو، سواء كان نبيّاً أو وليّاً، وعلى فرض سماعهم جدلاً لِمَن دعاهم، فإنهم لا يستطيعون إجابة مَن دعاهم؛ لأنهم ماتوا وصاروا في عالَم الآخرة، وانقطع عملُهم عن الدنيا واستراحوا منها ومن أهلها، بل ولا يدرون ما يحصلُ بالدنيا ولأهلها، ولا يدرون شيئاً عمَّن يدعوهم، وقد حكم الله في آخر الآيةِ أنه مَن دعا غير الله، واستغاث به، وطلب منه العون والمدد وقضاء الحاجات من الأموات، أو من الأحياء في ما لا يقدر عليه إلا الله فإنه واقع في الشِّرك.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: قوله: ﴿أَنَدْعُواْ﴾، الهمزة تتضمن معنى الإنكار والنفي والتَّوبيخ، أي: لا ندعو من دون الله، مع توبيخ المخَاطَب والإنكار عليه.

الثانية: قوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، (ما) تُستعمل لغير العاقل، أي: آلهتكم التي تعبدون من دُونِ الله لا تعقلُ عبادتكم إنْ عبدتموها، ولا تعقلُ إنْ تركتموها.

الثالثة: قوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، مفهومُ المخالفة إنْ كان هذا المعبود من دون الله ينفع ويضرُّ جاز أنْ نعبده، طبعاً ليس هذا المقصود أبداً بل قوله: (ما لا ينفعنا ولا يضرّنا) هذه صفةٌ كاشفةٌ، أي: كشف الله لك واقع الحال، وهو أنّ كلَّ مَن دُعِي من دون الله في قضاء الحاجات وتفريج الكُربات في ما لا يقدرُ عليه إلا الله لا ينفعك إنْ دعوته ولا يضرّك

إنْ تركته، فالنافعُ والضَّار هو الله تعالى إذ قال في أول السُّورة قبل المثل: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

الرابعة: قوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾، التعبيرُ عنه بالردِّ على الأعقاب لزيادة تقبيحِه بتصويره بصورةِ شخصٍ يمشي إلى الخلف، فحتماً هو ساقطٌ هالك.

الخامسة: قوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾، فيه أنَّ الإيمان بالله وتوحيده وإفراده بالعبادة تطور وتقدّم ورقيّ ورفعة، وأنّ كلَّ مَن يدعو من دون الله في عبادته فهو رجعي متخلّف، قد رجع للوراء ونظر تحت قدمه.

السادسة: قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، الهدايةُ: النعمةُ الكبرى التي أمرنا سبحانه بطلبها في اليوم الواحد أكثر من سبع عشرة مرة بقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فيها إقامةُ الحجَّة على مَن ضلَّ عن علمٍ.

السابعة: قوله: ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، أي تُوقعه في الهوى الذي هو ضدّ الهدى، وهو أساسُ عمل شياطين الإنس من دون أنْ يكونَ لديهم أيّ دليل أو حُجَّة ظاهرة واضحة على صحة ما يدعون إليه، بل محضُ شبهات، ومَن اتّبع الهوى صار عجينة تشكّله الشياطين كما تشاء.

الثامنة: قوله: ﴿يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾، (يدعونه) مضارع مستمر، فيه إشارة إلى استمرار دعوة المؤمنين إلى التّوحيد إلى قيام الساعة. (الهدى) مصدر عبّر به عن الطريق المستقيم للمبالغة، كأنّ الطريق هو الهدى نفسه.

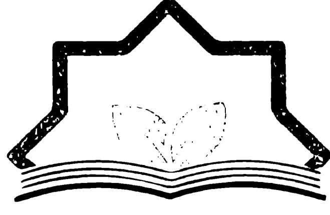
التاسعة: قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، الضمير (هو) ضمير فصل بين المبتدأ والخبر، أو ما أصله مبتدأ وخبر يفيدُ التوكيد، أي: هو الهدى لا غيره.

العاشرة: (الهدى) هو اتّباع الكتاب والسُّنَّة بفهم الصَّحابة الكرام

الذين هم أعلم الأمة، وخير النَّاس بعد الأنبياء والمرسلين، و(الهوى) ما عدا ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبينا محمّد، والحمد لله ربّ العالمين.





المثل الحادي عشر
مكانة المؤمن المهتدي، والكافر الضال

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

❖ **شرح المفردات:**

(أو مَن كان ميتاً): أي مثل مَن كانَ ميتاً.

(ميتاً): الميت: فاقد الروح، والمراد هنا روح الإيمان.

(أحييناه): جعلناه حيّاً بنور الإيمان.

(نوراً): أي: إيماناً.

(الظُّلمات): الكفر والمعاصي.

شرح ظاهر المثل

يقول سبحانه لأصحاب العقول: هل مثل الذي كان ميتاً، في الضَّلالة، هالكاً حائراً، فأحياه الله، أحيا قلبَه بالإيمان، وأنار صدرَه بالقرآن، وأضاء له طريقَ الجنان، هل يستوي مع مَن هو في الظُّلمات الكثيرة، والجهالات الكبيرة، والأهواء المتراكمة، والضَّلالات منغمس فيها لا يخرجُ منها، هل يستوون؟!

التدبر في المثل

هذا مثل ضربه اللهُ تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً قبل الهداية والإيمان، أي: في الضَّلالة، هالكاً حائراً، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه، ووفقه لاتباع رسوله ﷺ.

بعدَ أنْ جادل المشركون المسلمين في الضَّلال والهداية في الآية السابقة، ضرب الله لهم مثلاً لِمَن هداه الله بعد ضلالة، ورزقه الإيمانَ بعد كفر، وأحياه بعد الموت، أنْ يثبتَ على الإيمان والطاعة، ويعرف قدر النعمة التي أنعم الله بها عليه، ولا يتأثر بالكفار أو يغترَّ بهم، ولِمَن هو في الظُّلمات ليس بخارج منها.

فقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ﴾، بمعنى هل يستوي مَن قبل هدايةَ الله له، وكان ﴿مَيْتًا﴾ أي: مات قلبه موتاً معنوياً في ظلمات الكفر، والضَّلالة، والجهل، والمعاصي، ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾، فمَنّ الله عليه بنور العلم والهداية والإيمان والتّوحيد والطاعة والذِّكر، ورَفَعَ قدره، ﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾، فصار يمشي بين العالَمين في كلِّ مكان وزمان في نور الإيمان والهداية والصَّلاح، متبصراً في أموره، مهتدياً لسبيله، عارفاً للخير، مؤثراً له، داعياً إليه، مجتهداً في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفاً بالشر، مبغضاً له، مجتهداً في تركه وإزالته عن نفسه وغيره. أفيستوي هذا، و﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، أفيُساوى المؤمن بمَن هو في الظُّلمات الكثيرة، ظلمات القلب والصَّدر والجهل والغيّ، والكفر والفكر والمعاصي والقبر والصِّراط، والشهوات والشبهات، حائراً تائهاً في كلّ يوم يتجه إلى ربٍّ، وإلى وليٍّ، وإلى إلهٍ يدعوه من دون الله في قضاء حاجته. حياته عبارة عن ظلمة، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾؛ عاجز عن الخروج من أيِّ ظلمة؛ لأنّه بلا نور الإيمان الذي يُضيء له الظلمة التي هو فيها، بلا إيمان ولا قرآن، كيف لا يبقى في

الظُّلمات؛ لأنه يُصاحب المنحرفين والظالمين والضالين؛ ولأنّ المعاصي زُيِّنت له وطُبع عليها، فصارت هي حياته، وقد التبستْ عليه الطُّرق، وأظلمت عليه المسالك. هل يستوي هذا الذي تقدمت حاله مع المؤمن المهتدي الموحِّد؟.

فنبَّه تعالى العقولَ بما تدركه وتعرفه، أنه لا يستوي المؤمن مع الكافر، ولا الطائع مع العاصي كما لا يستوي الليلُ والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات.

الآية تتضمن عتبٌ شديد على المؤمن، يقول فيه سبحانه: كيفَ أيها المؤمن تُساوي نفسك بالكفار أو تسألهم أو تطلب نوراً منهم؛ بعد أنْ مَنَّ الله عليك بالهداية والنور والإيمان والقرآن والعافية في الدِّين؟، كيف لا تعرف الفرق بينك وبينهم؟، كيف لا تعرف قدرك ومكانتك وعظيم ما أنتَ عليه؟.

ثم إنّ الكافر في ظلمات كثيرة كبيرة، فكيف يعطي نوراً لغيره؟ مِن أينَ يأتيه النور؟.

والسؤال: كيف يبقى الكافر في هذه الظُّلمات ميتاً أعمى؟، لماذا لا يهتدي؟ أجاب سبحانه بأنه: ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فلم تزل شياطينُ الإنس والجنّ تُحَسِّنُ لهم أعمالهم، وتُزينها في قلوبهم، حتى أحبوها واستحسنوها واستمرؤوها واستساغوها، ورأوها حقاً وديناً يتعبدون به وصارت شغلهم الشَّاغل، بل وارتبطت مصالحهم وتجارتهم وجاههم بها، قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤]؛ بل عبادة أهل الضَّلال موافقة تماماً لهوى النفس من الشِّرك والزنى والسرقة والكذب وغيرها من الأباطيل، مخالفة تماماً للشرع والعقل؛ لذلك أصروا عليها بنفسٍ راغبة بالمعاصي، متشبعة بها، وتموت لأجلها،

لا بإيمان راسخ في القلب، وقاتلوا من أجلها، وصارت عقيدةً في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم، فلذلك سُلِبوا القدرة على الإيمان، وطُبع على قلوبهم، وحِيْلَ بينهم وبينَ الهداية عقوبة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]. ورضوا بما هم عليه من الشَّرّ والكفر والمعاصي، وظنّوا أنهم على خير، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

فلما بيَّنَ سبحانه الفرقَ بينَ المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، خاطب نبيّه ﷺ والمؤمنين بعدُ: لا تعجبوا أيّها المؤمنون إذا رأيتم أكابر المجرمين في مكة يدبرون الشَّرّ ويتفننون فيه، فكذلك الشأن في كلّ مدينة كبيرة يدبرُ الشرَّ فيها الأكابرُ من المجرمين، فهذا من سُنن الله تعالى: الصِّراع بين الحق والباطل، والتّوحيد والشِّرك، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

العبرة من المثل

الناسُ موتى بلا قرآن ولا إيمان، حياتهم فارغة، فبيّنَ سبحانه في هذا المثل أنّ الإيمان حياة وهناء، والهداية نور وضياء، وأنّ الكفر موتٌ وفناء، والظُّلمات ضلالٌ وعناء.

فلا يغترَّ المؤمن بما يراه عند الغرب أو بعض العرب من تطور وتقدّم ورفاهية، وتطاول في البنيان، فيدعوه ذلك إلى أنْ يزهد في إيمانه ويتخلى عن قرآنه، فلا ينخدع بقلة السالكين وبكثرة الهالكين، فالعاقبة للمتقين.

فالمؤمنُ إذا عظَّم الكافرَ والمبتدع والفاسق وأصحاب الدنيا والمناصب فقد أغضب الله؛ لأنه عظَّم ما حقَّر الله، وحقَّر ما عظَّم الله من الإيمان والقرآن، بل على المؤمن أنْ يُعَظِّم ما عنده من الإيمان والقرآن

ويفخر به؛ لأنّ الله عظّم الإيمان والقرآن. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]. فأهلُ الإيمان هم خيرُ الناس. وبيَّنَ سبحانه في هذا المثل عدة أمور:

١ ـ فضله سبحانه ومِنّته على المؤمنين بهدايتهم وإحيائهم وإخراجهم من الظُّلمات إلى النور، بعد أنْ كانوا أمواتاً في ظلمات الكفر والمعاصي.

٢ ـ الاستنكار على المؤمنين؛ لأنّ الاستفهامَ في أول الآية يفيد الاستنكار والتنفير عن طاعة غير الله ورسوله ﷺ؛ لأنّه قبل هذا المثل كان سبحانه يُحذر المؤمنين من طاعة المشركين؛ لذلك عقد سبحانه مقارنة يميّز بها المؤمنَ من الكافر، ويبيّن الحق من الباطل، حتى يعرف المؤمنُ قدر نفسه والنعمة التي هو فيها، وقدر الكافر والنقمة التي ابتُلي بها، فخاطب سبحانه المؤمنَ بأنّك على حقٍّ وهداية ونور وخير ورفعة ومكانة تعيش من أجل غاية سامية، وهي توحيد الله وإصلاح الأرض، وإخراج الناس من الظُّلمات إلى النور، فكيف تُسوّي نفسك بالكافر العاصي الضال المنحط الذي يعيشُ من أجل نفسه ومصلحته في ظلمات الجهل والشرِّ؟

٣ ـ المقارنة بين المؤمن والكافر وردت فيها آياتٌ كثيرة، منها قوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

ومنها قوله: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]. وغيرها من المقارنات في كتاب الله تعالى التي تُنبّه المؤمنَ إلى عظيم قدر دينه ومكانته ومنّة الله عليه؛ كي يتمسَّك بقوة بما عليه من الإيمان والقرآن، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وإذا كان الاهتداءُ إلى الإيمان والانغماس في ظلمات الكفر والضَّلال بسبب من الإنسان واختيار منه، فإنّ الله تعالى يزيد المؤمنين توفيقاً إلى

الخير، ويترك الكافرين سائرين في متاهاتِ الكفر، لذا ختم الله الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، أي: كما حببَ اللهُ الإيمان للمؤمنين، وزيّنه في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، كذلكَ زُيِّنَ للكافرين الكفر والمعاصي، وكرَّه إليهم الإيمان، فَحَسَّن لكلّ فريقٍ عملَهُ، فحسَّن الإيمانَ في أنظار المؤمنين، وحسّن الكفرَ والجهالة والضَّلالة في أعين الكافرين. فكلٌّ يعمل على شاكلتهِ.

فالعبرة العظيمة من المثل: على المؤمن أنْ يعرف قدر الإيمان ونعمة الرحمن عليه، وأنه غالٍ عند الله، فيشكر نعمة الهدية ويسأل الله الثَّباتَ عليها، وعليه أنْ يترفع عن وساوس الشيطان وطاعة الكفار والميل إليهم.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: الاستعارة، استعار الموتَ للكفر، والحياة للإيمان، والنورَ للهدى، والظُّلمات للضَّلال.

الثانية: قوله: ﴿أَوَمَن﴾، الهمزة للإنكار والنفي، أي: لا يكونُ لميت أحييناه بالإيمان أنْ يُسَوِّيَ نفسَه بالكفار.

الثالثة: وحَّد النور وذَكَر فاعله، وجمع الظُّلمات ولم يذكر لها فاعلاً؛ لأنّ مصدر النور واحد وهو من الله، ومصدر الظُّلمات والضَّلالات كثير، منها الشهوات والشبهات والشكوك، ومنها أئمة الكفر، ومنها الدنيا وفتنها، وغيرها كثير.

الرابعة: المؤمن يحيَا حياة طيبة حسية ومعنوية في الدنيا والآخرة، والكافر يعيشُ حياة حسية في الدنيا؛ لأنه ميّتٌ معنىً، ويعيش حياة حسية ومعنوية في الآخرة يقاسي عذاب النار، أما الحياة الطيبة فليست له لا في الدنيا ولا في الآخرة.

الخامسة: قوله: ﴿نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ

مِّنْهَا﴾، فيه أنّ المؤمن في تقدم وتطور دائمٍ وحرية وانفتاح وسعة من أمره؛ لأنه يشقُّ طريقه بنور الهداية والإيمان والقرآن والحق بدليله بين الناس إلى الله ﷻ، أما الكافر فيعيش في دائرةٍ مظلمةٍ مقيداً بالكفر والمعاصي لا يخرج منها، منغلقاً على نفسه، إلا أنْ يتوب فيرزقه الله النور لِيُبصر طرقه للخروج من ظلمته.

السادسة: قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ نَسَبَ سبحانه حياةَ الإيمان ونورَ الهداية في قلب المؤمن لنفسه؛ لأنه عملٌ حسنٌ، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، بُنِيَ فعل التزيين (زُين) للمجهول نَسَبَهُ للمجهول؛ لأنّ المشبه به قبيح، فالأولُ تزيينُ عمل المؤمن، والثاني تزيينُ عمل الكافر، والذي يزينُ للكافرين أعمالهم القبيحة هو الشَّيطان بوسوسته كما قال في خطابه لله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]. وسائر شياطين الإنس والجنّ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. وإنْ كان كلُّ ما يجري في الكون يسندُ إلى الله تعالى باعتبار الخلق والتقدير والمشيئة.

السابعة: قوله: ﴿نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾، المؤمن عنده نورُ القرآن والهداية، فالفعل (يمشي) مضارع مستمرّ بالمشي به بين الناس يدعوهم إلى هذا النور، ويضيء الطريق، ويكشف به الشِّرك والبدع والضَّلالة مهما كانت الظلمة شديدة؛ فإنّ نورَ القرآن في قلب المؤمن يطغى عليها.

الثامنة: قوله: ﴿نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾، فيه عالَمية الإسلام؛ لأنه قال (للناس)، أي: لجميع الناس يمشي بالدَّعوة والهداية ونور الإسلام على علمٍ يدعو إليه بلا تخصيص أو تميّز لبعضهم عن بعض.

التاسعة: الذي يُطفئ نور الطَّاعة والإيمان هو ظلمة المعاصي

والذنوب، قال الإمام مالك لتلميذه الشافعي أول ما لقيه: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية، وكذا قال وكيع للشافعي:

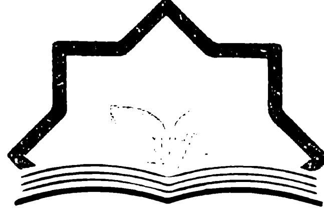
شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المَعَاصِي

وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ... ونورُ الله لا يُهدَى لعاصِ

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: (إنّ للحسنةِ ضياءً في الوجهِ، ونوراً في القلبِ، وسعةً في الرزقِ، وقوةً في البدنِ، ومحبةً في قلوبِ الخلقِ، وإنّ للسيئةِ سواداً في الوجهِ، وظلمةً في القلبِ، ووهناً في البدنِ، ونقصاً في الرزقِ، وبغضةً في قلوبِ الخلقِ).

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل الثاني عشر

مَثَلُ الضال المكذب بعد علم ونعمة

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٧].

❖ **شرح المفردات:**

(واتل عليهم نبأ): اقرأ عليهم الخبر المهم.

(فانسلخ منها): تجرد منها كفراً بها متعمداً، وتركها وراء ظهره مبتعداً عنها.

(فأتبعه الشيطان): لحقه وأدركه بجنوده، فصيَّره تابعاً له، ينتهي إلى أمره في معصية الله.

(من الغاوين): من الضَّالين غير المهتدين الهالكين غير النَّاجين.

(أخلد إلى الأرض): مال إلى الدنيا، وركن إليها، ورضي بها، وأصبح لا همّ له إلا الدنيا.

(يلهث): اللهث: التنفس الشّديد مع إخراج اللسان من التعب والإعياء.

(ساء مثلاً): قَبُحَتْ صفة القوم الذين ضُرب لهم هذا المثل.

التدبر في المثل

مَثَل ضَربه الله لناكر الجميل، وجاحد النعمة، بعدَ أنْ ذكر الله تعالى أَخْذَ الميثاقِ على الناس قاطبة، وإقرارهم بأنّ الله ربهم ضرب المثل للمكذِّبين بآياته المنزَّلة على رسوله ﷺ، يقول سبحانه لنبيهِ ﷺ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾، اتلُ على اليهود والكفار ومَن شابههم الذين يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم هذا المثل العظيم الذي ضربه الله لِمَن آتاه الله الكتاب، وبيّنَ له الآيات والأحكام، ويسّر له العلمَ، ومَنَّ عليه بالفهم، وعلّمه التّوحيد، وعَرَفَ الحقَّ بدليله، فرفض العمل بما آتاه الله من العلم والنِّعمة، فَافْتَتَنَ وانتكس وارتد.

قال سبحانه: (آيات) وليست آية واحدة دليل على كثرة العلم والمعارف، ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾، فانسلخ مِن آيات الله التي امتَنّ الله بها عليه كما تُسلَخ الشَّاة عن جِلْدها باختياره ورضاه ولطيش عقله وخبث نفسه، واستعجاله لذَّة الدنيا، فخرج من حِصْنه الحصين، ودرعه المتين الذي يتّقي به الشُّبهات والفتن، فلم يبقَ له من السِّلاح والعصمة والوقاية ما يدفع به عن نفسه من تسلُّط الشياطين عليه، ولك أنْ تتخيَّل شاةً بلا جِلْد، ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، فصار لقمةً سهلة سائغة، فلحقه الشيطان دون تأخير أو تضييعٍ للوقت، فأدركه ووسوس له، وحرَّض عليه جنودَه من شياطين الإنس والجنّ فاجتمعوا عليه، وأحاطوا به، فكانت النتيجة الحتمية أنه ﴿كَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ الخاسرين الهالكين بعد أنْ كان من الراشدين، فصار صاحب الشَّيطان في الكفر والمعصية، فخرج من محبة الله إلى معصيته، ومن رحمة الله إلى سخطه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾، ولو شاء الله لرفع قدره، وأعلى مقامه بالآيات الكريمات، وجعل له منزلةً عظيمةً من منازل العلماء الأبرار، بأنْ يوفقه للهداية والعمل بالآيات، ويجعله إماماً متبوعاً له

المكانة والكلمة، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. ولكنّ اللهَ ترك له الاختيار، وعرَّضه للفتنة كما هي سُنّة الله في المؤمنين من خلقه، فما كان منه إلا أنْ، ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، برضاه وقناعته، واختار الركونَ إلى الدنيا، ومال إليها، ورغب فيها، واهتمّ بلذائذها، ورفض طاعة الله، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، ولم يتبع الآيات عن علمٍ بعاقبة ما يفعل، فلم يوجّه همّه إلى نعيم الآخرة، ولم يهتدِ بآيات الله ولمْ يلقِ لها بالاً، ولم ترق نفسه إلى الكمال الروحي، ولم يحترمْ نعمة الله عليه باستعمالها في مرضاته، فلما كان هذا حالُه ضرب الله له ولأمثاله مثلاً، فقال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾، أصبح الكلب مثله وصفته في الذِّلة والحقارة، والخسّة والدَّناءة؛ لأنه ترك الدين والرفعة والسّمو والآخرة وطلب الدنيا.

وهي حالةُ الكلب دوام اللهث، سواء حُمِلَ عليه، أي: شُدَّ عليه وطُرِد، أو تُرِك دون طرد.

وكذلك هذا الذي سمع الآيات وعَلِمَ ما فيها ولم ينتفع بها، إنْ تتركه دون علمٍ وعظة فهو ضالّ، حاله كحال الذي لم يسمعْ ولم يعلم أصلاً، وإنْ تُبيِّنَ له العلم وتركه فهو ضال، فضلالته على كلّ حال واقعة كما لهث الكلب على كلّ حالة.

وهذا حالُ بعض الناس يعلم أنَّ الرِّبا والزنى والخمر والرشوة والسرقة والغيبة والبدعة والشِّرك وغيرها حرام ويرتكبها، وأنّ الصَّلاة والصيام والعبادات واجبة ثم يهملها فهو «يعلم ولا يعمل» فعِلْمه حُجَّة عليه وله نصيب كبير من مثل الكلب، بل الكلب خير منه؛ لأنّ الكلب لا يُعاتب ولا يدخل النار، بل الكلب المُعَلَّم أشرف منه منزلة، وأكثر منه منفعة، وصيده حلال، أما كثيرٌ من الناس فذبيحته حرام بجهله. فالإنسان إذا لم يتعلَّم العلمَ الشرعي صار أدنى منزلةً من الكلب.

وهذا هو حالُ قوم عادٍ قالوا لنبيهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]. وكذا حال الكافرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]. لماذا لا يؤمنون؟ لأنّ الله ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة: ٧]، عقاباً لا ابتداءً.

ثم قال تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾، فالله يخاطب رسوله والمؤمنين: إنّ هذا المَثَلَ مَثَلُ هؤلاء الذين كانوا ضالِّين قَبْلَ أنْ تأتيهم بالهدى والرِّسالة، ثم جئتهم بها، فَبَقوا على ضلالتهم، ولم ينتفِعُوا بذلك، فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الكَلْبِ المتقدِّم وكذلك كلّ مَن عَلِمَ، فلم يعمل، وأعرض عن كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ.

وهذه الصفةُ هي أقبحُ حالات الكلب وأخسُّها، وهي الحال التي يكون فيها خارج اللسان يسيلُ فيها لعابه، وقد شبَّه الله بها حالَ ذلك الذي تجرد من معرفة آيات الله بعد أنْ أنعمَ الله عليه بها، فقبُحَت أشد القبح صفة المعرضين عن النظر في آيات الله، والتفكر بها، والعمل بها، والركون إلى الدنيا، أنْ شُبِّهوا بالكلاب التي لا هَمّ لها إلا تحصيل أكلة أو شهوة، وهم بهذا الإعراض كانوا ظالمين هالكين.

قال الرازي: واعلمْ أنّ هذا التمثيلَ ما وقع بجميع الكلاب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وأخسّ الحيوانات هو الكلب، وأخسّ الكلاب هو الكلب اللاهث، فمَن آتاه الله العلمَ والدِّينَ فمال إلى الدنيا، وأخلد إلى الأرض، كان مُشبَّهاً بأخسّ الحيوانات، وهو الكلب اللاهث.

ثم قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾، في ضَرْب الأمثال، وفي العِبر والآيات، لعلهم يتفكَّرون بحال صاحب هذا المثل فيعتبرون به.

ثم قال تعالى مبيناً أنه المنفردُ بالهداية والإضلال، فقال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾، بأنْ يوفِّقه للخيرات، ويعصمه من المكروهات، ويعلِّمه ما لم يكن يعلم، ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ﴾ حقاً؛ لأنه آثر هدايةَ الله تعالى على الضَّلال والآخرة على الدنيا، ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ فيخذله، ولا يوفِّقه للخير بمعصيته، وعدم استعانته بالله، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

العبرة من المثل

العبرةُ العظيمةُ من هذا المثل هو الترغيبُ في العمل بالعلم، وعدم الاغترار به، وسؤال الله الثَّبات والهداية دائماً وشكر نعمته لتدوم؛ لِذلك كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ**». فهذا الرجلُ مَنَّ الله عليه بالعلم، وآتاه الهُدى والبينات، وعَلَّمَه الدَّلائل والآيات، فانسلخَ إلى الضَّلال والهوى، ومال إلى الدنيا، ورضي بها من الآخرة، فتلاعب به الشيطان، وتسلط عليه، فكان من الخاسرين، فصار عِلْمُه حُجَّة عليه.

وهذا الانتكاسُ والارتداد من بعض أهل العلم يكونُ أشدّ خطراً وأعظم ضرراً على الناس؛ لأنَّ معه علماً يُلَبِّسُ به على العوام، كما كانت فتنة «الرَّجّال بن عنفوة» في بني حنيفة.

وهذا هو فعلُ اليهود في المدينة، قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]. لذلك، والله أعلم، شَبَّهَهُ الله بأخسِّ الحيوانات وأنجسها وأنتنها، وهو الكلب اللاهث، حيثُ واظب على العمل الخسيس والفعل القبيح، لا لحاجة أو ضرورة، وإنما دعته نفسُه الخبيثةُ إلى الدنيا فأجابها.

وهذا مثل كلّ مَن عرف الحقَّ ولم يتبعه، وعرف التّوحيد والسُّنَّة ولم يعملْ بهما، فمثله كمثل الكلب؛ لأنّ العلمَ هو خشية الله تعالى؛ التي

تؤدي إلى العمل بالعلم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

والمعاصي جهل، وإنْ كان فاعلها عالِماً، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

فلا رفعةَ ولا سيادةَ ولا كمال ولا هداية ولا توفيق إلا من الله، والعمل بالقرآن، واتباع النَّبي العدنان ﷺ.

ففي المثل تحذيرٌ للناس من اتِّباع أهوائهم، وركونهم إلى الدنيا وشهواتها، واتّباع الأغراض الدنيئة، وترك ما أرشدتهم إليه آيات الله من الإيمان بالله وبرسوله ﷺ وبالآخرة، فعلى الإنسان الاعتبار بهذه القصَّة، والتأمل والتفكر في آيات الله بعين البصيرة والعقل، لا بالهوى والحقد والعداوة كما تفعل اليهود، وعلماء السوء.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: قوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾، عبَّر بالانسلاخ من الآيات بدل رفضها ليدلّ على كمال ابتعاده عن الآيات، بعد أنْ كان له كمال الاتصال بها؛ لأنه قال: (منها) ولم يقل عنها، ففيه دليلٌ على أنّ الآيات محيطةٌ بالإنسان إحاطة الجلد بالجسم لدرجةٍ أنها تحتاجُ إلى جبروت معصية لينسلخ الإنسان منها، فيدلُّ هذا على أنّ آيات الله وعبادته هي التي تستر الإنسانَ، وتحميه، وتعصمه من شياطين الإنس والجنّ مِن أنْ يتسلَّطوا عليه ويؤذوه ويضلّوه ويصيبوه بالهمّ والحزن والمرض والحسد.

فرسم القرآنُ صورةً مقززة تقشعر منها الأبدان، وتنفر منها القلوب، وهي صورة سَلْخ جِلْد إنسان عن جسمه ولحمه كما يُسلخ جلد الشَّاة عنها، فلك أنْ تتصوَّر كمية الألم الذي يعانيه هذا الذي سُلِخَ جلدُه عن لحمه ومنظره بعد السلخ، هذه هي صورة مَنْ آتاه الله القرآنَ ثم أعرض عنه.

الثانية: قوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾، يدلُّك أنّ الدين سترٌ وحمايةٌ لصاحبه من الاعتداء عليه، كما أنّ الجِلْد حماية لصاحبه من الأمراض والأعراض.

الثالثة: قوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾، الفاء في (فأتبعه، وفكان) فيها معنى التعقيب والفورية، فبمجرد الابتعاد عن كتاب الله الذي هو عصمةُ أمره تتلقفه شياطين الإنس والجن، وتتسلَّط عليه دون تأخير وبلا مهلة، ويُتبعونه جنودَهم فيتمكَّنون منه ولا بُدَّ؛ لأنه بلا حماية ولا سلاح فيفضون به إلى الضَّلال والهلاك والخسران.

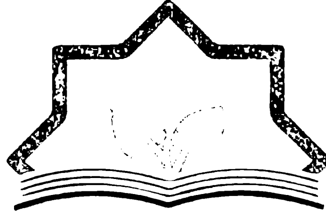
الرابعة: قوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾، فيه أنّ العلمَ بكتاب الله والعمل به رفعةٌ وسموّ وعزة، وحراسة لصاحبه. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، فيه أنّ الإعراض عن كتاب الله فيه ذلة ومهانة ودناءة وخسة.

الخامسة: قوله: ﴿أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، (أخلد) من الخلد تدلُّ على الدوام والطول، أي استمرَّ طويلاً منغمساً يرتع في المعاصي ولم يُقلع، وأخذ وقته الكافي.

السادسة: قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾، فيه إشارةٌ إلى العالِم الذي أراد بعلمه الدنيا، فلا بُدَّ من هذا العالِم أن يُزين الكلام للناس أو الحُكام، ويتفيهق فيه، ويُخرج لسانه، ويُعقر فمه من غير كبير حاجة ولا ضرورة، وقد أغناه الله بالعلم من فضله، فصار فيه شبهاً بالكلب الذي يدلع لسانه طبيعة من غير أنْ تحملَ عليه. وفيه إشارة إلى أنّ طالب الدنيا يلهثُ وراء متعته وشهواته كما يلهث الكلبُ إلى أنْ يفجعه الموت.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل الثالث عشر
الاغترار بالدنيا وزينتها

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

❖ **شرح المفردات:**

(**مثل الحياة الدنيا**): أي صفتها المنطبقة عليها المُتَّفِقة معها.

(**فاختلط به**): أي اشتبك بعضُه ببعض.

(**مِمّا يأكل الناس**): كالبُرِّ وسائر الحبوب والفواكه والخضراوات.

(**والأنعام**): أي من العُشب عادة، وإلا قد يُعلف الحيوانُ الشعير.

(**زخرفها**): أي نضرتها وبهجتها.

(**وازّينت**): أي تجمّلت بالزهور.

(**وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها**): متمكِّنون منها، مسيطرون عليها.

(**أتاها أمرنا**): أي قضاؤنا بإهلاكها وتدميرها عقوبة لأصحابها.

(**حصيداً**): أي كأنها محصودة مِن قبلُ ليس فيها شيء قائم.

(**كأنْ لم تغن بالأمس**): أي كأنْ لم تكن موجودة أصلاً غنية بالأمس.

(نفصل الآيات): أي نبيِّنها ونوضِّحها بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضَرْب الأمثال.

التدبر في المثل

ذَكَر الله تعالى في الآية التي تسبق المثل أنّ الدنيا قصيرة، وهي عبارةٌ عن متاع يُوصلك إلى مرحلة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ [يونس: ٢٣]. ولـمّا كان سببُ بغي الناس وتنافسهم وتظالمهم هو حرصهم على الدنيا، وإفراطهم في التمتع بنعيمها، وقد عَلِمَ الله ميلَ النفوس إليها، والافتتان بها، ضرب لهم مثلاً في سرعة انقضاء جمالها، وزوال بهجتها وزهرتها، وخراب نعيمها، وكرَّر عليهم هذا المثل في أربعة مواضع من كتابه، فهذا المثل الأول.

والثاني: في الآية الخامسة والأربعين من سورة الكهف..

والثالث: في الآية الحادية والعشرين من سورة الزمر.

والرابع: في الآية العشرين من سورة الحديد.

كلّها تحكي معنىً واحداً تدور حوله وتشتمل عليه، تمثل الدنيا بمثال لا يكادُ يتغير في الآيات؛ حتى لا يغترَّ الناسُ بها، ويتعلَّقوا بزينتها؛ وليقارنوا بينها وبين الآخرة.

فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، مثل حقيقتها التي لا تخرجُ عنها، وصفتها في فنائها، وقلة أيامها، وانقضاء عمرها، ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾، مثل الدنيا كمثل ماء نزل من جهات السماء المختلفة، فخرج أنواع النبات بسببه، ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾، فانتفع الناس والدواب والأنعام بهذا النبات، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾، أي: أخذت حُسْنَها وجمالها وزينتها، وأُعجِب بها أهلها، ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾، وتجمَّلت بأبهى أنواع الزينة وأحسنها، بما خرج منها من زهور نضرة

مختلفة الأشكال والألوان، وحبوب، وثمار، ويُقاس عليه في زماننا: العمارات والمجمعات والجامعات وأبراج وناطحات سحاب ومدن سياحية وملاعب فلكية وأنفاق وجسور وطرق ذات تصاميم رائعة، وغير ذلك من زينة العصر الحديث، فصارت بهجةً للناظرين، ونزهةً للمتفرجين، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾، وأيقن أهلُ الدنيا الذين زرعوها وبنوها وعمروها وشيدوها وتعبوا فيها، أنهم متمكنون منها مسيطرون على الدنيا وعلى أهلها وأرزاقها وعائداتها، قادرون على جُذاذها وحصادها، والانتفاع بها، واستخراج معادنها وطاقاتها، وحصاد أرباحها وتجارتها.

وهذا مثل الدول العظمى اليوم، يظنّون أنهم قادرون على كلِّ شيء، ويتحكَّمون بكلِّ شيء بما عندهم من تطور وتقدم وأبحاث طبية وطائرات وغوّاصات وأسلحة نووية وأساطيل بحرية، وكذلك مَن اغترَّت بهم الدول العربية والإسلامية فانطووا تحت لواء تلك الدول العظمى، يأتمرون بأمرهم، ويعملون بسياستهم، وينضمّون معهم على أبناء دينهم وجِلْدتهم، وهذا واضح لا يُنكره إلا كذابٌ أشر.

فبينما هم كذلك في أملهم في حياتهم وطريقهم إلى حصاد أرضهم، والسيطرة عليها، غافلين عن الآخرة وعن قُدرة الله، ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾، قامت عليهم الساعة، وأتاهم عذابُ الله ليلاً وهم نائمون، أو نهاراً وهم غافلون، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ ـ ٩٨]. وإذ فجأة جاءتهم صاعقة فيها نار أو ريح شديدة عاتية باردة، وزلازل وأهوال وأعاصير، أو حرب ضروس لم يحسبوا حسابها، أو أخرج الله عليهم جنداً من جنده مؤيدين بنصره، فخرَّبت دنياهم، وأتلفت ثمارهم وزروعهم، وأحرقت أموالهم وعمرانهم ومصانعهم، ودمّر الله عليهم ما عندهم، ونزل

بهم قضاء الله وقدره لإهلاكهم، فكانت النتيجة: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ بسبب عصيان أهلها، واستكبارهم، وغفلتهم عن عبادة ربِّهم، وطُول أملهم واغترارهم بما عندهم، وتوكُّلهم على أنفسهم وقوتهم وأموالهم، جعل الله ما عندهم كالأرض المحصودة من قبل، يابسة بعد الخضرة والنَّضارة، كأنْ لم تنبت، وكأنها ما كانت أرضاً مزروعة قبل ذلك، وما كانت دنيا موجودة، وقوة معدودة، وأموالاً ممدودة.

وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن موجودة، فإذا كانت الدنيا بطولها منذ أنْ خلقها الله قصيرة يأتي عليها الفناء، فمِن باب أولى وأحرى عمر الناس فيها أقصر بل قصير جداً، كما قال تعال: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٧].

وقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].

وهكذا بعضُ الناس أو كثير منهم يسرح ويمرح ويفرح بالباطل، ويتكبر ويظلم ويمكر، وقد اغترَّ بزينة الدنيا، وظنّ أنه مستمرّ بما هو عليه، وله قدرة بما عنده من قوة وتحكّم ومنصب وجاه ومكانة وعشيرة، ونَسِيَ الآخرة، والحساب والثواب والعقاب، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

فإذا بالموت يفجعه، أو المرض الشّديد يُصيبه، أو البلاء الكبير يحطمه، فيعود صفراً كأنْ لم يكنْ بالأمس يرعد ويزبد ويهدر، ويقول أنا فلان، وأنا ابن علّان.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾، أي كهذا المثل في جَلائه وتمثيله لحقيقة حال الحياة الدنيا، وغرور الناس فيها، وسرعة زوالها، عند تعلُّق الآمال بنوالها، وكذلك نفصّل الآيات في حقائق التّوحيد، وأصول التشريع، وأمثال الوعظ والتهذيب، وكلّ ما فيه صلاح الناس في عقائدهم

وأنفسهم وأخلاقهم ومعاشهم، واستعدادهم لمعادهم، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، لقوم يستعملون عقولهم وأفكارهم فيها، ويزِنُون أعمالهم بموازينها، فيتبينون رِبْحَها وخسرانها، وليست هذه الأمثال للغافلين، فإنّ مِن طبع الدنيا الهرب مِمَّن طلبها، والطلب لِمَن هرب منها.

فلما بيّنَ سبحانه أمرَ الدنيا الفانية أنه لا أمانَ فيها ولا سلام، دعا الناس إلى الدار الآخرة الباقية الآمنة، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

العبرة من المثل

مَثَلٌ مِن واقع الناس وحياتهم لِيعتبروا به، ويتفكروا، فهوَّن الله الدنيا في نظر الناس لِتكون تحت أقدامهم، وعظَّم أمر الآخرة لتكون هدفهم ومحل تنافسهم، فالدنيا زائلةٌ فانية، عيشها حقير، وعمرها قصير، وضررها خطير، وعاقبتها كعاقبة هذا النبات الذي تعلَّقت به الآمال، وعظُم به الرجاء.

وعبَّرت هذه الآية الكريمة عن سرعة زوال الحياة الدنيا وفنائها، وأنها زخرف خادع، سرعان ما يبهت وينطفئ بريقه.

فالمقصود ألَّا يعتمدَ المرء على نعيم الدنيا، وألَّا يغترَّ بزخارفها وتطورها وتقدُّمها وحضارتها، ويظنّ أنه متمكِّنٌ من بعض الأمور، ويشعر أنه في قوة ومنعة ويصيبه الغرور بماله ومنصبه وحزبه وجاهه ورتبته وقوته، ويظنّ أنه لا يفتقر ولا ينكسر ولا يصيبه البلاء والوباء، فيأمن مكر الله واستدراجه وتدبيره، ويغفل ويعصي ويظلم، ويطول به الأمل فيقسو قلبُهُ، وينسى ربَّه، وما يدري أنّه في مُهْلةٍ واستدراج، فيفجعه أمرُ الله وقدره وعذابه ومكره بالماكرين والظالمين، فيكون كالزرع المحصود، والحرث المأكول، وكأنْ لم يكن في قوة وعزة ومال ومنعة، فأمر الله لا يُقاوم

ولا يُعارض ولا يُغالب، فلا ينسى الإنسانُ ويغفل عن طاعة ربه، وما خُلِق لأجله، ويلتهي بزينة الحياة الدنيا عن الآخرة.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، (إنّما) توكيد بالقصر، أي: يقصر صفة الحياة الدنيا جميعها مؤكداً على المثل المضروب لها في الآية لا يتعداه.

الثانية: قوله: ﴿مَثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ﴾، سُمِّيت (الدنيا) من القرب والدناءة بخلاف الأُخرى وهي الدار الآخرة، والكاف في (كماء) كاف التشبيه، أي: شبهت الآية حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه.

الثالثة: قوله: ﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾، استعارة، شبَّه فيها الأرضَ حينما تتزيَّن بالنبات والأعشاب والأزهار، بالعروس المزيَّنة بالحلي والثياب والذهب والجواهر، والحرير الملون بالألوان المختلفة ذات البهجة، فتحلت وازّينت بها ليلة زفافها استعداداً للقاء الزوج، ثم حذف المشبه به، وهو العروس، وأشير إلى شيء من لوازمه وهو الزخرف على سبيل الاستعارة المكنية.

الرابعة: قوله: ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾، تلاحظ تضعيف الزاي والياء، وهو للتكثير والمبالغة، أي: أخذت الأرضُ كامل زينتها كما تأخذ العروس كامل زينتها على أبلغ ما يكون وأتمّه وأكمله، وفيها إشارةٌ إلى قيام الساعة؛ لأنه إذا تمّ الشيء بدأ بالنقصان، فما بعدَ التمام إلا النقصان.

ولمّا نزل قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وَذَلِكَ يَوْمُ الْحَجِّ الأَكْبَرِ، بَكَى عُمَرُ رضي الله عنه، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ؟» قَالَ: أَبْكَانِي أَنَّا

كُنَّا فِي زِيَادَةٍ مِنْ دِينِنَا، فَأَمَّا إِذْ كَمُلَ فَإِنَّهُ لَمْ يَكْمُلْ شَيْءٌ إِلَّا نَقَصَ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ»؛ لذلك تُوفي النبي ﷺ بعدها بثمانين يوماً تقريباً.

الخامسة: قوله: ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾، كزينة العروس ووقتها، فوقت تزين العروس من العصر إلى العشاء كذلك وقت الدنيا، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

السادسة: قوله: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾، الفعل «ظنّ» هنا جاء للاعتقاد واليقين. بحسب اعتقادهم، والعرب تُعبّرُ بالظن الرَّاجح في الأمور الغيبية، وإنّ كانت حقّاً واقعاً.

السابعة: قوله: ﴿قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾، مسيطرون متحكِّمون بها، وهكذا بعضُ الناس والدول كأمريكا وروسيا وغيرهم يعتقدون جازمين أنّ الدنيا والناس تحت سيطرتهم وسطوتهم وسلطانهم لِمَا عندهم من القوة والتطور والسلاح، فيغترون بذلك ويتكبرون، فكان هذا سبباً كبيراً بأنْ نسوا مكرَ اللهِ وكيدَهُ، والدار الآخرة، فأتاهم الله مِن حيثُ لم يحتسبوا، فأصابتهم الزلازل، وفتكت بهم الأمراض، واقتلعتهم الأعاصير والعواصف والفيضانات.

الثامنة: قوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾، كناية عن العذاب والدمار.

التاسعة: قوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾، فيها (المفاجأة، والقوة، والسرعة)، وهذه العوامل الثلاثة يعجز كلّ أحد عن مواجهتها.

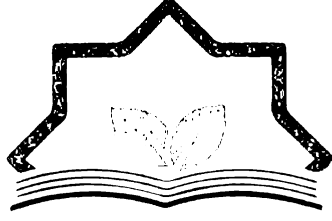
العاشرة: قوله: ﴿فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا﴾، شبَّه الهالك الغافل من النَّاس المُفتتن بالدنيا بالزَّرع المحصود. و(حصيد): فعيل بمعنى مفعول؛ ولذلك لم يؤنث بالتاء وإنْ كان عبارة عن مؤنث كقولهم: امرأة جريح.

الحادية عشرة: قوله: ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ المراد به الزمن الماضي، لا اليوم الذي قبل يومك، فالظرف (أمس) إذا عُرِّف نُكِّر وأُريد به الماضي، وإذا

نُكِّر عُرِّف وأُريد به اليوم الذي قبل يومك. والفرق بين الأمسينِ أنّ الذي يراد به قبل يومك (أمسِ) مبني لتضمنه معنى الألف واللام، و(الأمس) معرب تدخل عليه أل ويضاف.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل الرابع عشر
الفارق العظيم بين المؤمن والكافر

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

❖ **شرح المفردات:**

(**مثل الفريقين**): فريق المؤمنين، وفريق الكافرين.

(**أفلا تذكرون**): فتتعظون، وتستغفرون ربكم ثم تتوبون إليه؟

التدبر في المثل

بعد أنْ تحدَّث القرآن عن فريقي الناس، وهما الذي يريدُ الدنيا وزينتها وهم الكفار، والذي يريدُ الآخرة ونعيمها وهمُ المؤمنون في الآيات السابقة ومآل كلّ واحد منهما. ضرب الله مثلاً لحال المؤمنين، أهل السعادة والجنّة بـ: (السميع البصير). ولحال الكافرين، أهل الشقاء والعذاب بـ: (الأصمّ الأعمى)، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾، أي: المؤمنين والكافرين، مثلهم: ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾، فمثل الكافرين أهل الشقاء والعذاب مثلهم في كفرهم كمثل الأعمى والأصم الذي لا يبصر، ولا يسمع، ولا يفهم، ولا يهتدي إلى خير، ولا يعرف الطريقَ الصَّحيح؛ لأنه عطّلَ سمعَه وبصره اللذينِ هما وسيلتا العلم والفهم ومعرفة الحقِّ فطُمِست بصيرتُه، ورانَ على قلبهِ الكفر والجهل والضَّلال؛ لذلك إذا يُتلى

عليه القرآنُ يسدُّ أذُنيه عنه، ويتجاهلُه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧]. فهذا مثله كالأصمِّ، الذي لم يخلق اللهُ له سمعاً، فما الفائدة من سمعه إذا لم يهتدِ به إلى ما ينفعه، ويكون حُجَّةً عليه يوم القيامة، وإذا رأى الدَّلائل والمعجزات التي تؤيد صدقَ النبوة، تعامى وتغافل عنها، كأنّ على عينيه غطاءً سميكاً يمنعه من البصر، بل وطعن بها وقال: هذا سحرٌ يُؤثَر، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]. فهذا مثله كالأعمى الذي لم يخلق الله له بصراً فما الفائدة من بصره إذا لم يُبصر ما ينفعه.

قال تعالى فيهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ومثل المؤمنين من أهل النعيم في إيمانهم كمثل البصير السميع الذي يعلم الحق ويبصر الخير فيتبعه، ويترك الشَّرَّ، ويعرف طريقه، وينتفع بآيات القرآن؛ لأنه أعملَ سمعه وبصره في تَلَقّي الحق والعلم والتّوحيد، فنوَّر الله قلبَهُ، وهداه إلى الصِّراط المستقيم.

ثم قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾، الاستفهام للإنكار، أي: هل يستوي الأعمى والأصمّ، مع البصير والسَّميع عند عاقل من الناس، كما لا يستويان عند أحد من العقلاء، فكذلك لا يستوي حالُ المؤمن الذي ينتفعُ بسمعه وبصره في معرفة الحق، مع الكافر الذي عطّلَ سمعه وبصره عن الحق فلا يسمع ولا يرى إلا الباطل أو ما وافق هواه، فهما كذلك لا يستويانِ عندَ اللهِ في الدُّنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ

وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٢]. كما لا تستوي هذه الأضداد والمتقابلات؛ كذلك لا يستوي المؤمن والكافر، ولا الطائع والعاصي.

ثم قال تعالى مستنكراً: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: أفلا تتَّعظون بأمثال القرآن. ولم يقل «أفلا تتفكرون» أو «لعلهم يتفكرون» كما قال في المثل السابق؛ لأنّ الأمرَ هنا واضحٌ كالشمس لا يحتاج إلى تفكر وتدبّر أنّ المؤمن لا يستوي مع الكافر والحق لا يستوي مع الباطل، وأنّ السَّميع البصير لا يستوي مع الأصمّ الأعمى، وفي النهاية: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]. فريقانِ لا ثالث لهما، فاخترْ فريقك. ثم بعد هذا المثل أورد سبحانه قصةَ نوح عليه السلام مع قومه يذكر فيها الفريقين من المؤمنين والكافرين.

العبرة من المثل

أنعمَ الله تعالى على الإنسان بنعمة الجوارح من السَّمع والبصر والنطق والفقه لِيتلقَّى الدين، ولِيعبد الله تعالى على بصيرة، ولِيدعو إلى الله عز وجل، ولِيعرف التّوحيد بالأدلة والبراهين، ولِيتَّعظَ بما جاء في كتاب الله من الآيات والأمثال، ويسأل الله تعالى الثَّبات، واجتناب الفتن، والاعتبار بحال الكافرين، فإنْ لم يفعل ما أمره الله كان حاله كحال الأصمِّ الأعمى، مع قيام الحجَّة عليه.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: قدَّمَ سبحانه تشبيهَ الكافر على تشبيه المؤمن في المثل؛ وذلك لأنّ ذِكْر الكُفَّار تقدَّم على ذكر المؤمنين في الآيات التي سبقت المثل؛ فلذلك قدّم تمثيلهم.

الثانية: لماذا لم يكن التركيبُ هكذا (كالأعمى والبصير، والأصم والسميع) لتتقابل كلّ لفظة مع ضدها؟ الحكمة من ذلك أنه تعالى لما ذكر

انسداد العين أتبعه بانسداد الأذن، ولما ذكر انفتاح العين أتبعه بانفتاح الأذن، وهذا التشبيه وهو تشبيهُ أمرٍ معقول بأمر محسوسٍ: وذلك أنه شبَّه عمى البصيرة وصَمَمها بعمى البصر وصمم السمع. ذكره السَّمين الحلبي في «الدر المصون».

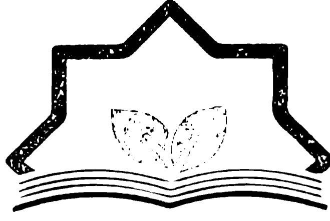
الثالثة: قُوبل الأعمى بالبصير وهو طباق، وقوبل الأصمّ بالسميع وهو طباق أيضاً، نظير هذه المقابلة قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨ ـ ١١٩].

الرابعة: لم يذكر الأبكم مع الأصم والأعمى؛ وذلك لأنّ فريق الكفر ينافس فريق الإيمان في الدَّعوة، فالمؤمنون يدعون إلى الله، والكفار يتكلَّمون ويجادلون بالباطل، ويدعون إلى الكفر، ويصدّون عن سبيل الله؛ لذلك لم يذكرهم بالبكم.

الخامسة: قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾، الاستفهام يتضمَّن معنى النفي والإنكار، أي: إنكارٌ ونفيٌ للمماثلة بين الفريقين، فهو سبحانه لا يستفهم حقيقة، فمِن البديهي عند كلِّ أحد لا يستوي الأعمى والبصير، ولكن النفي بصيغة الاستفهام أسلوب قرآنيٌّ مطّرد، فيه تحريك القارئ والسامع، ويدعو إلى التفاعل مع الآيات والتحاور معها، فإذا قال الله: «هل يستويان»؟ سيُجيب القارئ أو السامع (لا) لا يستويان، فيكون قد حكم على نفسه بنفسه، وأقام الحجَّة بنفسه على نفسه إذا لم يطع الله ورسوله، وكذلك الاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، للإنكار عليهم بعدم التذكر والتفكر.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل الخامس عشر
مَثَلُ مَن يدعو غير الله

قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤].

❖ **شرح الكلمات:**

(له دعوة الحق): أي لله دعوةُ الصِّدق والتّوحيد والإخلاص، أو الدَّعوة الثابتة الواقعة في محلِّها، المجابةُ عند وقوعِها.

(ليبلغ فاه): ليصل الماء إلى فمه.

(وما دعاء الكافرين): دعاء الكافرين؛ أي: عباداتهم.

(إلا في ضلال): إلا في ضياع وهلاك وبُطْلان.

شرح ظاهر المثل

بيّنَ سبحانه في الآيات السابقات أنه عالم الغيب والشهادة وأنه يعلم ما في الأرحام، وأنه سبحانه هو الذي يُري الناس البرق خوفاً وطمعاً، ويُنشئ السحاب الثقال، وأنه يُسبِّح الرعد بحمده، وهو يرزقُ الناسَ بالمطر، وأنه سبحانه شديد المحال؛ لذلك قال تعالى: له دعوةُ الحقِّ وحده سبحانه لا إله إلا هو، فهو سبحانه على كلّ شيء قدير، يسمع الدَّاعين ويستجيب دعاءهم، وأنّ دعوة غيره هدر باطلة لا ترتفع ولا تنفع

صاحبها، فيما لا يقدرُ عليه إلا الله تعالى، من تفريج الكُربات وقضاء الحاجات وشفاء الأمراض، بل تضرُّه وتجعله وثنيّاً مشركاً مُتخلِّفاً، قال تعالى مبيناً هذه الحقيقة: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾، أي: لله وحده دعوةُ التّوحيد والإخلاص، وله وحده سبحانه تُصرفُ العبادة، ويُدعى وحده لا شريكَ له، ويستعان به وحده، ويستغاث به وحده، وهو الذي يُجيب دعوةَ الداعي إذا دعاه، أمّا ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأنداد والأصنام والأحجار والأولياء والصَّالحين والأحياء والميّتين، فـ: (الذين) اسم موصول من ألفاظ العموم، فيعمّ كلّ مَن دُعي من دون الله، ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾: لا يستجيبون لِمَن يدعوها ويعبدها ويستغيث بها بشيء قليل ولا كثير، لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة؛ لأنَّ المدعوين من دون الله إمّا أنْ يكونوا أصناماً أو أوثاناً أو أحجاراً أو أشجاراً، وهذه لا تشعرُ بمَن يدعوها أبداً، أو يكونوا من الأولياء والصَّالحين، فهؤلاء قد انتقلوا إلى الدار الآخرة، وأصبحوا في عالَم آخر من عالَم الغيب، وهم لا يسمعون ولا يدرون بمَن يدعوهم ويستغيث بهم من دون الله، بل ولا يشعرون، وعلى فرض أنهم يسمعون، فمع هذا فإنهم لا يستطيعون إجابة أحد ولا نفعه ولا كشف ضرّه؛ لأنهم لا يملكون شيئاً ولا يقدرون على فعل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٤]. بل هؤلاء الأموات هم محتاجون إلى دعاء الأحياء لرحمتهم، أو لرفع درجتهم.

التدبر في المثل

تأمل الدقةَ في التعبير، والروعةَ في البيان، وجمالَ الوصف وبلاغته ووضوحه وسهولته في هذا المثل؛ الذي ضربه الله تعالى في تقرير

التّوحيد، وإثبات الدعاء والعبادة لله وحده سبحانه، وبيان بطلان دعوة غيره، من الذبح والنذر والاستعانة والاستغاثة والرجاء، وطلب المدد وغيرها من العبادات.

فمعنى المثل الذي ذكره الله تعالى هو: مثل الذين يدعون من دون الله كمثل رجلٍ أهلكه العطش جداً، فجاء ووقف على حافة بئرٍ، أو نهر وهو في الأعلى والماء في الأسفل، ومدَّ كفيه إلى الماء، ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾، يُشير إلى الماء من بعيد من الأعلى ويدعوه ويناديه بتضرُّع وإخبات وخشوع ولينٍ ورجاء، ويقول: يا أيّها الماء البارد الكريم الرحيم العذب الزلال أرجوك وأتوسل إليك، تعالَ يا ماءُ يا ماءُ، وينادي على الماء بكل صوته، لماذا كلّ هذا الدعاء والرجاء؟، ليأتي الماء إليه من تلقاء نفسه لـ ﴿لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾، ليدخل الماء في فم الداعي له، يقول له: تعال وادخل في فمي كي أرتوي، فالعطش يكاد يقتلني، وأخذ ينادي الماء ويدعوه ويرجوه، دون أنْ يُحرك يديه ويغرف من الماء، فقط دعاء ونداء، والماء لا يتحرك ولا يستجيب ولا يرتفع إلى فم هذا العطشان كي يرويه؛ لكون الماءِ جماداً لا يعقل المراد ولا يشعُر بعطشه ولا ببسط يدِه إليه فضلاً عن التحرك والوصول إلى فمه.

﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾، فكما أنّ الماء لا يتحركُ ولا يستجيبُ ولا يرتفعُ من ذاته وتلقاء نفسه إلى فم العطشان، ولا يشعر به حين يدعوه، كذلك حال المدعوين مِن دون الله مِن أوثان وأصنام وأشجار وأولياء وصالحين لا يحسُّون بدعاء مَن يدعونهم، ولا يشعرون بهم، ولا يستطيعون إجابتهم، ولا يقدرون على نفعهم بشيء، ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾، وما الماء ببالغٍ إلى فمه بذلك الطلب، فيذهب سعيه وتعبه ودعاؤه ورجاؤه وتضرُّعه باطلاً بلا فائدةٍ، ويبقى عليه إثمُ الشِّركِ بالله الذي لا يغفره الله أبداً إلا إذا تاب منه صاحبه.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٤].

ولقد كان رسولُ الله ﷺ في مكة ومعه الصَّحابة الكرام وآل بيته مِن بني هاشم يرون بلالاً رضي الله عنه يُعذّب ويُضرب، وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ، ويمرُّ عليه رسولُ الله ﷺ ويقول له: «**سينجيك أَحدٌ**» وما يستطيع أنْ يفعل له شيئاً، ولم يكن بلال رضي الله عنه يستغيثُ برسول الله وهو حيٌّ يُرزق، فكيف يُستغاث برسول الله ﷺ بعد موته؟!! وكذلك يرى رسول الله ﷺ آل ياسر يُعذَّبون ويُقتلون ولا يملك لهم رسول الله ﷺ شيئاً، ولم يستغثْ آلُ ياسر برسول الله وهو حيٌّ أمامهم، فكيف يستغيث به الناسُ وهو قد انتقل إلى الرفيق الأعلى؟!

فـ: شبَّه الله تعالى الذي يدعو غير الله بـ: (باسط كفيه إلى الماء)، وشبَّه المدعو من دون الله بـ: (الماء) الذي لا يشعر بعطش مَن يدعوه ويناديه، مع أنّ الماءَ في نفسه شيءٌ نافع بخلاف الذين يدعونهم من دون الله.

والمعنى الدقيق من المثل: أنّ المعبودين والمدعوين من دون الله لا يستجيبون لِمَن عبدهم ودعاهم وناداهم إلا إذا استجاب الماءُ لِمَن يناديه من بعيد، فإذا استجاب الماء استجاب المدعوون من دون الله، وهذا تشبيهٌ بالمستحيل ومن باب التهكم بهم، والمراد به نفي الاستجابة أصلاً؛ لأنه من المحال أنْ يشعرَ الماء بعطش المنادي، ويتحرك نحوه ليرويه.

كما نقول نحن في العامية: (لن أفعل هذا حتى لو تطلع نخلة براسك) وهي لن تخرج نخلة برأسه ولا هم يحزنون، ولكن من تعليق الشيء بالمستحيل، بمعنى على فرضٍ جدلاً حتى ولو استجاب الماء لهم لن يستجيبَ غير الله لهم من المدعوين من دون الله. ثم أصدر سبحانه حُكْمه على الذين يدعون أحداً غيره بالكفر، وعلى دعائهم بالضياع والبطلان،

فقال: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾، عبادتهم ودعاؤهم لمعبوديهم، في ضياع وهلاك وبطلان لا يُسمع ولا يُستجاب؛ لأنّ الشِّرك من أسباب ردِّ الدعاء. ففي قوله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾، ردعٌ عظيم لِمَن يدعو غير الله فيما لا يقدرُ عليه إلا الله؛ لأنه سبحانه حَكَم بكفره، فإذا مات على ذلك دخل النار، ويتبيّن من مفهوم المخالفة، أنّ دعاء المخلِصين يحفظه سبحانه، ويستجيب لصاحبه.

ولَمّا بيّن سبحانه حالَ الدّاعين من دونه، بيّن سبحانه أنّ جميعَ المخلوقات تدعوه وتسجد له فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]. فإذا كانت المخلوقاتُ كلّها تسجدُ لربها طوعاً وكرهاً كان هو الإله المعبود المحمود حقاً سبحانه.

العبرة من المثل

التّوحيد أساسُ قَبول الأعمال، فالإخلاصُ لله سبحانه بالعبادة والإنابة والدعاء والتضرع والخشية والتوكل؛ لأنّ الذي يخلق ويرزقُ، ويُحيي ويميت، ويجيب المضطر، ويكشف السوء، هو الحقيق بأنْ يُفرد بالعبادة، ويُخلَص له بالدعاء والالتجاء؛ ولأنّ غير الله لا ينفع ولا يضرُّ، فلا يستحق أنْ يُعبد، ولا أنْ يُدعى، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

وسبحان الله قد بلغت الوثنية بالنَّاس أقصاها ومنتهاها، وأصبح الناسُ عندنا أكثر وثنيةً من السيخ والهندوس، وأسوأ من الجاهلية، فصاروا يعبدون كلَّ شيء، وأيّ شيء وما تركوا شيئاً إلا وعبدوه مع الله، حتى عمود النور، وشجر السّدر، والسيارات القديمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فالذي يدعو غير الله، ويلجأ إليه، فإنما يدعو عدماً، ويلجأ إلى عجزٍ وفقرٍ وضعفٍ، وهو غير منتفعٍ بشيء مِمّا يدعوه، وليس له من ذلك إلا

التعب والخسران والهوان والخذلان، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [غافر: ٧١ ـ ٧٤].

فالذي لا يعتبر بهذه الأمثال البينة النَّيرة، وبهذه الآيات الدالة الواضحة إلا أحمق بلغ في الحمق أقصاه، ومن الغباء مداه، فالاعتبار بهذه الأمثال والآيات، وتدبّرها والاتعاظ بها فهي واضحة سهلة؛ لأنّ الله تعالى بيّنَ من خلالها عظيم خسران مَن يدعو غيره، وعظيم تفاهة عقله، وسفالة علمه، إذا ترك الله العظيم والتجأ إلى العبد الفقير يدعوه، ويرجوه من دون الله. وقد حكم الله تعالى على مَن يدعو غيره أو معه أحداً بالكفر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٧].

وقد أخطأ بعض الناس لجهلهم خطأً كبيراً حينما سمّى دعوة الأموات والاستغاثة بهم وسيلة، ويظنها جائزة، وهذا غلط عظيم؛ لأنّ هذا العمل من أعظم الشِّرك بالله، وإنْ سماه بعض الجهلة أو المشركين وسيلة، وهو دين المشركين الذين ذمهم الله عليه، وعابهم به، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لإنكاره والتحذير منه، وأما الوسيلة المذكورة في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]. فالمراد بها التقرب إليه سبحانه بطاعته وعبادته، وهذا هو معناها عند أهل العلم جميعاً، فالصَّلاة قُربة إلى الله فهي وسيلة، والذبح لله وسيلة كالأضاحي

والهدي، والصوم وسيلة، والصَّدقات وسيلة، وذكر الله وقراءة القرآن وسيلة، وهذا هو معنى قوله سبحانه يعني ابتغوا القربة إليه بطاعته، وهو قول ابن كثير وابن جرير والبغوي وغيرهم من أئمة التفسير، والمعنى التمسوا القربة إليه بطاعته واطلبوها أينما كنتم مِمَّا شرع الله لكم، من صلاة وصوم وصدقات وغير ذلك، وهو ذكره سبحانه عن الصَّالحين من عباده، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧].

هكذا الرسل وأتباعهم يتقربون إلى الله بالوسائل التي شرعها من جهاد وصوم وصلاة وذكر وقراءة قرآن، إلى غير ذلك من وجوه الوسيلة، أما ظنّ كثير من الناس أنّ الوسيلة هي التعلق بالأموات والاستغاثة بالأولياء، فهذا ظنٌّ باطل، وهذا اعتقاد المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، فرد عليهم سبحانه بقوله: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: قوله: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾، عبّر بالجملة الاسمية التي تفيد الثبوتَ، وقدَّم الخبر (له) جوازاً من غير موجب للتقديم؛ وذلك للتوكيد والبيان أنّ دعوة الحق له هو سبحانه وحده لا لغيره، وكذلك نصَّ عليه مفهومُ المخالفة.

الثانية: قوله: ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ﴾، أُجرِي على الأصنام والأوثان والمعبودات من دون الله ضميرُ العقلاءِ (الواو)، مجاراة للاستعمال الشائع في كلام العرب؛ لأنهم يعاملون الأصنام معاملة العقلاء، أو ليشمل العقلاء مع الأوثان فيمَن دُعي من دون الله كـ: عيسى والأولياء والصَّالحين.

الثالثة: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾، الفعلان (يدعون، يستجيبون)، مضارعان يفيدان الاستمرار والدَّوام، أي: على استمرار دعوة غير الله إلى قيام الساعة، كذلك استمرار عدم الاستجابة لهم إلى قيام الساعة.

الرابعة: قوله: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾، (لا) نافية غير عاملة داخلة على مضارع أفاد الإخبار والعموم والاستمرار، أي: أخبرهم سبحانه وعمّ كلّ مدعوٍّ من دونه أنه لا يستجيب لهم بشيء ولو كان أفضلَ الخلق ﷺ.

الخامسة: تنكير (بِشَيْءٍ) للتحقير، والمراد أقلّ ما يُجابُ به من الكلام. ثم إنّ النكرةَ في سياق النفي تعمُّ، يعني أيّ استجابة لا يستجيبون لهم ولو كانت بقدر ذرة، ثم دخول حرف الجر الزائد (الباء) للتوكيد، يُؤكّد على عدم الاستجابة في أيِّ حالٍ من الأحوال.

السادسة: قوله: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ﴾، التوكيد بالقصر بالاستثناء المفرغ، من عموم أحوال الدَّاعين والمستجيبين، أي: إلّا استجابة كاستجابة باسط كفَّيه، وهذا من التوكيد على التعليق بالمستحيل أنْ يُستجابَ لهم.

السابعة: قوله: ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾، قوله: (وما هو ببالغه) جملة حالية من ضمير الفاعل في (يبلغ)، وقوله: (ببالغه) توكيد الخبر بالباء الزائدة، أي: يؤكد للداعي من دون الله، كما أنّ الماءَ لا يبلغُ فاه بمجرد دعائه إيّاه في أيِّ حال من الأحوال، كذلك لا يُستجاب لِمَن يدعو من دون الله في أيِّ حال من الأحوال.

الثامنة: قوله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، توكيد بالقصر بالاستثناء المفرّغ، على ضلال دعاء الكافرين وبطلانه من عموم الداعين، بلا شكّ أو احتمال.

التاسعة: التهكم والتبكيت في الآية الكريمة بِمَن يدعو غير الله، ويريد منه قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، حيث أخرج الكلام مخرج التهكم

بهم، فقيل لا يستجيبون لهم شيئاً من الاستجابة إلا استجابة كائنة في هذه الصورة التي ليست فيها شائبة الاستجابة قطعاً، فهو في الحقيقة من باب التعلق بالمحال.

❖ **والسؤال: لماذا ربنا سبحانه يدعو إلى توحيده، وترك الشِّرك به في جميع أمثال القرآن؟**

لأنّ التّوحيد هو الغاية التي من أجلها خَلَق الله الخلق، وهو حق الله على عباده، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ومعنى يعبدون: يوحِّدون.

التّوحيد فيه القوة والعزة والخروج من الضعف والخذلان، وفيه الحريةُ من عبادة الناس من الأموات والأحياء، وفيه اجتماعُ الكلمة والقلوب، والنصر والعون والسلام والأمان والتمكين لأهله، وفيه الحلُّ الشاملُ الكامل الناجح لجميع المشاكل العربية والإسلامية، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فلا اجتماعَ لكلمة المسلمين ولا نصرَ لهم على أعداء الدين إلا بالتّوحيد الذي انتصر به سيد المرسلين وأتباعه على أعظم دولتين في ذاك الوقت «فارس والروم»، فإذا أراد المسلمون النصر اليوم على أمريكا والصهيونية العالمية فعليهم بالعقيدة التي انتصر بها المسلمون على فارس والروم.

كما أنَّ التّوحيد مفتاحُ الجنة ونجاةٌ من النار؛ وهو مِن أعظم أسباب نيل شفاعة رسول الله ﷺ، وهو ما يحبه الله لعباده، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

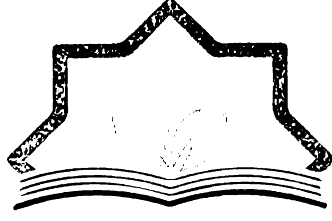
ولأنّ ما يُضادّ التّوحيد، الشِّرك بالله الذي هو ظلم عظيم لحق الله

تعالى وللنفس، وتشويه للإنسان وانتقاص له وازدراء به وعبادة للشيطان والذي هو عدو الله وعدو الإنسان، الشِّرك يُخَلِّد صاحبه في النار، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. والله تعالى لا يريدُ لعباده دخولَ النار بل يريدُ لهم العزة والنجاةَ من النار، ودخولَ الجنان.

وقد يسأل سائل: لماذا أهل الشِّرك يدعون إلى الشِّرك؟ وهم قد يعلمون أنهم على باطل، والجواب هو نفس الأمر الذي منع مشركي العرب والنصارى واليهود وغيرهم من دخول الإسلام آنذاك، وهو نفسه اليوم موجود، ألا وهو الكِبْر والغطرسة والعناد والحسد والجاه والمال وحبّ السلطان والرياسة والقيادة، ولو قلّبتَ صفحات الكتاب والسُّنَّة والسيرة لوجدتَ أنّ العرب واليهود والنصارى وقت ذاك يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم، ويعرفون أنه مرسل من عند الله، وهو في كتبهم بصفته ﷺ، ولكن كفروا به حسداً وعدواناً، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]. وهو نفسه اليوم موجود تماماً.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل السادس عشر
ثبات الحقِّ وذهاب الباطل

قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

❖ **شرح المفردات:**

(فسالت أودية بقدرها): أي استوعبت الأودية ماءً بقدر سعتها.

(زبداً): غثاء من الأوساخ له رغوةٌ يطفو فوق الماء.

(رابياً): عالياً، ومنه الربا، أو الربوة.

(ومِمّا يوقدون عليه في النار): كالذهب والفضة والنحاس.

(ابتغاء حلية أو متاع): أي طلباً لحلية من ذهب أو فضة أو متاع من الأواني.

(زبد مثله): أي يُوجد زبد مع الحلية والمعادن مثل زبد السيل.

(فأما الزبد): زبد السيل وزبد الحلية والمتاع الذي يخرج حين يُوقد عليها.

(فيذهب جفاء): باطلاً مشتتاً مرمياً بعيداً؛ إذ هو غثاء لا خير فيه.

(فيمكث في الأرض): يبقى في الأرض ينتفع به الناس.

شرح ظاهر المثل

قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، أي: نزل الماء المبارك من جهات السماء كلها، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾، نزل الماء من رؤوس الجبال والسهول وغيرها إلى الوديان فاستوعبته تلك الأودية التي في الأرض كلٌّ بحسب قدره وحجمه وسعته، ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾، لَمّا نزل الماء من رؤوس الجبال والهضاب وغيرها، وسال نحو الأودية ليتجمَّع فيها وقد كنس في طريقه بعض الأوساخ والأشجار والقاذورات، فصنعت فوقه رغوة وغثاء مثل الزبد، أو ﴿مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾، ومثل الزبد الذي يكون فوق الماء يكون مع الذهب والفضة حين يوقدُ تحته الصَّاغة والحدَّادون، ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾، طلباً لتصفية الذهب والفضة من الشَّوائب والمعادن الرديئة الأخرى التي تكون معهما حين استخراجهما؛ لصناعة الحلية من الذهب أو الفضَّة الخالصين، ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾، كالأواني والآلات والدُّروع، ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾، كذلك يظهر مع الذهب والفضَّة والمعادن حينما يُوقد عليها أوساخ وشوائب تُكوِّن زبداً ورغوة، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ بهذه الأمثال العظيمة والعجيبة الواضحة يُبيِّن الله الحقّ من الباطل، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فأما الزبدُ الذي علقتْ به الأوساخ والعيدان والأوراق التي تطفو فوق الماء، والزبد الذي يخرج مع المعادن يذهب بعيداً ويُرمى؛ لأنه لا قيمةَ له، فقد يُكدِّرُ الماء والمعادن النفيسة حيناً، وهكذا يُوجد في الناس وخاصة في هذا الزَّمان مَن لا قيمةَ له ولا أصل، ويُكدِّرُ على أهل الأصول والفضل، فيجب أنْ يُنبذ ويُطرد؛ لأنه قَذَرٌ ولا يستحق التقدير ولا الكرامة.

وأما الماء الصَّالح العذب والمعادن النفيسة من الذَّهب والفضَّة

والأواني الجيدة هي التي تبقى ويُحتفظ بها؛ لقيمتها الكبيرة ونفعها، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾، بمثل هذه الأمثال يُبيّن الله الحقائق للناس، ويُصوِّرها للأذهان ويقيم عليهم الحجَّة.

التدبر في المثل

هذان مثلان عظيمان واضحان ضربهما الله تعالى لتقرير التّوحيد وثباته، وتفكيك الشِّرك وذهابه. بعد أنْ ذكر الله تعالى في الآية السابقة وجود دعوتينِ: دعوة الحق، ودعوة الباطل، وأنّ دعوةَ الله هي دعوة الحق، ودعوة ما يدعون من دونه هي دعوة الباطل، ولما شبّه تعالى المؤمن والكافر والإيمان والكفر، بالبصير والأعمى، والنور والظُّلمات، ضرب لهم مثلينِ: **الأول**: لأهل الأرياف والجبال والبادية، والثاني: لأهل المدن والحاضرة، يُوضح لهم الفرق والنفع بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر.

المثل الأول

قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، شبَّه الله سبحانه (القرآن) الذي أنزله على رسوله ﷺ لحياة القلوب والأرواح، بـ: الماء الذي أنزله لحياة الأرض، ثم قال: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾، وشبَّه (القلوب) الحاملة للهُدى والإيمان والقرآن وتفاوتها بـ: الأودية التي تجتمعُ فيها السيولُ النازلة من الجبال والأماكن المرتفعة، فمنها وادٍ كبير يسع ماءً كثيراً، كقلب كبير يسع علماً كثيراً، ووادٍ صغير يأخذ ماء قليلاً كقلب صغير، يسع علماً قليلاً وهكذا.

ثم قال: ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾، وشبّه ما يردُ على القلوب من الشَّهوات والشُّبهات والشُّكوك والباطل عند وصول الإيمان والقرآن إليها، بـ: الأوساخ والرّغوة، وهي الزبدُ الذي يعلو الماء، فيدفع المسلمُ المتعلم صاحب القلب الكبير الشُّبهات والشكوك بما معه من العلم واليقين، ويبقى في قلبه الإيمان والقرآن الذي ينتفعُ بهما في الدنيا والآخرة.

والمعنى: شُبِّه (القرآن) بالماء الصَّافي، و(القلوب) بالأودية، و(الباطل) بالزَّبد، فالإنسانُ في تلقّيه للقرآن والسُّنة والحق والإيمان والتّوحيد والعلم النافع كالماء الذي نزل من السماء صافياً نافعاً مباركاً قوياً، فعند سيل القرآن إلى القلوب، وتدفقه إلى الروح والعقل تعرض حوله من نفس المتلقي أو عقله أو من أهل الباطل بعض الشبهات والشكوك والأوهام، وهي عبارةٌ عن زبد منتفش فارغ، فإنْ كان قلبُهُ كبيراً نقياً طاهراً متدبراً موقناً صابراً على طلب العلم وفهم الحقّ ودفع الباطل تلقى وحياً كثيراً، وعلماً غزيراً، وخيراً وفيراً، يتعبد به لله، ويدعو به إلى الله، ويدفع به الشُّبهات والشكوك والباطل عن نفسه وقلبه ودينه، ويبقى قلبه نقياً تقياً خالصاً لله، وإنْ كان قلبُهُ صغيراً فيه من الفتن والفساد والشَّهوات ما لا يصبر معه على طلب العلم وتحصيل الحقِّ تلقى وحياً قليلاً، وعلماً قليلاً، واستقبل الكثير من الشُّبهات والشكوك التي تَحرفه وتضلُّه من نفسه أو من أهل الباطل، وهذا مثلُ الأودية التي تتلقى السيول، كلٌّ منها يحملُ من الماء بحسب حجمه، كذلك القلوب كلّ منها يحمل من العلم بقدر صبره وفقهه ويقينه.

ويُقاس عليه في زماننا وفي كلّ زمان ومكان ما يحاوله أهلُ الباطل والشِّرك ومثيرو الشُّبهات والشَّهوات والشكوك، أنْ يقاوموا الحقّ، وأنْ يعلوا عليه كما يعلو الزبد الفارغ فوق الماء النافع، بإثارة الشُّبهات والشكوك حول القرآن بزرع الشُّبهات والشَّهوات والفتن بين المسلمين وتشكيكهم بدينهم، كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

يريد أهلُ الباطل أنْ يُغطّوا على الدِّين، ويُشوهوا سمعته، ويُلَبِّسوا على العوام، ويُظهروا للناس والإعلام أنهم الأكثر والأكبر، وتجدهم منتفشين منتفخين، صوتهم عالٍ يملؤون الساحة والشارع، ويدَّعون أنهم

أصحاب الحق، ومعهم كلّ الآلة الإعلامية والتأييد العالمي، فإذا جاء الحقُّ فسرعان ما تظهر الحقائق، ويظهر زيفُ الباطل ويذهب جفاءً صغيراً حقيراً بأهله؛ وينتصرُ الحق ويمكث بين الناس؛ لأنه قويٌّ وحقٌّ وثابت ونافع ومتعلِّق بالله ومن عند الله، فهو الذي ينفعُ القلوبَ ويُحييها ويهديها، كما يمكث الماء في الأرض فينفعها.

وأما الباطل والشُّبهات والشكوك فهي عبارة عن الزبد والرغوة المنتفشة والمنتفخة فوق الماء التي تحملُ معها الأوساخ والقذر كالإعلام الباطل والشُّبهات التي يُثيرونها، سرعان ما تذهب بعيداً، وتتشتت وتتفرق وتتلاشى وتضمحل؛ لأنّ الباطلَ كالزَّبد ضعيف لا أصلَ له ولا جذور ولا ثبات ولا استقرار ولا حجَّة.

كذلك القلوب قد يُداخلها بعضُ الشُّبهات والشكوك مع الحق الذي فيها فيدفعها صاحبُ القلب السليم، والدِّين القويم بما عنده من علم وإيمان وتعلق بالله تعالى فيرجع قلبه سالماً صافياً خالصاً لله تعالى. ويزداد قوة وإخلاصاً، وأما الباطل فهو رغوة وأوساخ وقاذورات قد تكدر أعلى الماء بعض الوقت، ولكن سرعان ما تتشربُ القلوبُ الكبيرةُ الصَّالحةُ الطاهرةُ الماءَ الصافي النافع الذي هو نور القرآن وحكمة السنة وتنتفع بهما، ويذهب عنها زبدُ الشُّبهات والبدع بعيداً، وتتشرب القلوبُ الصغيرة الفاسدة الزبدَ والأوساخ والشُّبهات والشَّهوات والشِّركيات والبدع فتبقى بها مريضة يملؤها الشكوك والحيرة والكره والحقد والضَّلال. «فالتّوحيد ماءٌ صافٍ، والشِّركُ زبدٌ جافٍ».

المثل الثاني

قال تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾، وفي هذا المثل شُبِّهَ (القرآن) أو (المؤمن) بـ: الذَّهب الخالص والمعدن النفيس أو بالآنية من المعدن النفيس وآلات الحرب التي ينتفع بها الناس كالسيف

والدرع والفأس وغيرها، وشُبِّهَت (الفتن والمحن والشُّبهات) بـ: النار، وشبّه (الباطل) بـ: الشوائب والمخلَّفات الرديئة التي تخرج مع الذَّهب والفضَّة والمعادن النفيسة عند استخراجها من الأرض، فيُوقد الصائغ النار، ويوجّه الحرارة على الذَّهب أو المعادن النفيسة لِيصفّيها ويُنقّيها من تلك المعادن الرديئة التي لا قيمة لها، التي تفسد رونقَ الذَّهب وبريقه وجماله، فهذه المخلَّفات والزوائد هي الزبدُ الذي يمثِّل الباطل الذي يُريد أنْ يُفسد رونق الذَّهب، والتي يطردها الصائغ بعيداً كي يبقى الذَّهب صافياً خالصاً، كذلك المؤمن يقعُ في الابتلاء والمحن والفتن فيدفعها عن قلبه ونفسه وقرآنه ودينه كما يدفع الصَّائغ الشوائبَ عن الذَّهب ليصفو ويخلص، كذلك الفتن إذا جاءت وعصفت بالناس كفتن النساء والمال والمناصب وفتن الدين والطائفية، تمايز الناس وتفرقوا وتمحّصوا فيخرج المؤمن المخلِص ذهباً صافياً غالياً، ويسقط المنافق وصاحب الهوى وصاحب المصلحة البدعة والشِّرك والجهل والانحراف.

ويُقاس عليه في زماننا، كما أنّ بعض الشوائب الرديئة تغطي على جمال الذَّهب والمعادن المفيدة، كذلك يُثير أعداء الإسلام بعض الشكوك والشُّبهات التافهة والفارغة التي هي بمنزلة الفقاعات والزبد حول الإسلام والقرآن وأهل الإيمان والتّوحيد، محاولة منهم لإفساده وتشويهه، وإذهاب جماله وعدله وإنصافه، وإبعاد الناس عنه، فيأتي القرآنُ بحججه القوية، وأدلَّته القطعية، فيطرد تلك الشكوك والشُّبهات بعيداً، كما يطرد الصائغ الشوائب والعوالق عن الذَّهب، فيرجع القرآن ذهباً خالصاً، وكما أنّ الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذَّهب والفضَّة إذا أُوقِد تحته بل يذهب ويضمحل، فالباطلُ لا ثباتَ له ولا دوام أمام الحق وأهل العلم إذا تواجها، ويمكث القرآن والإسلام الذي ينفع الناس بفضل الله تعالى في

الأرض ويذهب الباطل جُفاء، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ليتضح الحق من الباطل، والإيمان من الكفر، والهُدى من الضَّلال.

ولمّا بيّنَ تعالى الحق مِن الباطل في المثلين السابقين ذكر أنّ الناس على قسمين: مستجيبٌ لربه فذكر ثوابه، وغير مستجيبٍ فذكر عقابه، فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أي: انقادت قلوبهم لله إيماناً وتوحيداً واتباعاً، فلهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنّة، ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، من ذهب وفضة وغيرها، ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾، من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾، من أصناف العذاب في النار، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، أي: المقر والمسكن مسكنهم.

العبرة من المثلين

الاتعاظ بهذه الأمثال البليغة السهلة المختصرة، ومعرفة الحق وفضله وأهله، وتميّزه عن الباطل وأتباعه، ومعرفة قيمة القرآن ومنزلته، وأنه منصور لا يُغلب أبداً؛ لأنّ طرفه بيد الله والآخر بيد العامل به، ومعرفة هَوان الباطل وضعفه، وأنه مهزوم أبداً؛ لأنه بلا حجَّة أو دليل على الحقيقة، ويجب على الناس إذا أرادوا النجاة أنْ يتعلّموا العلم الشرعي الصَّحيح النقي من الكتاب والسُّنَّة، والدَّعوة إليه، ومقارعة الشُّبهات والشكوك به، وسؤال الله تعالى العلم النافع والعمل الصَّالح والإخلاص فيهما، والثَّبات عليهما.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: شُبِّهَ ورودُ القرآن على أسماع الناس بالسيل يمرُّ على مختلف الجهات، فهو يَمرُّ على التّلال والجبال فلا يستقرُّ فيها، ويحمل معه الزبد، ويمضي إلى الأودية، فمَن ألقى سمعه للقرآن وقلبه شهيد انتفع، ومَن أعرض ذَهَبَ مع الزبد.

الثانية: تلاحظ أنّ السيل يجرفُ معه الأوساخَ والأوراق والأشجار

الضعيفة؛ لأنها لا أصل لها ولا تمسك، ولكن السيول مهما كانت قوية لا تستطيع أنْ تجرف الصخور الكبيرة ولا الجبال والأشجار القوية الثابتة؛ لأنها راسخة، وهكذا الشُّبهات والشَّهوات تجرفُ معها ضعفاءَ الإيمان والعلم واليقين وأوساخ الناس، أما أهل الرسوخ في العلم المتعلِّقون بالله ثابتون بتثبيت الله لهم.

الثالثة: قوله: ﴿فَٱحۡتَمَلَ﴾ على وزن افتعل، أي فيه تكلُّف، فاحتمل السيل الزبد وهو كاره له؛ لأنه أوساخ، وكذلك يأتي الباطلُ مع الحق وهو كاره له؛ ولكن سُنَّة الله الكونية ليتميّز الحق من الباطل.

الرابعة: قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾، قدّم الخبر (مِمَّا) على المبتدأ (زبدٌ) لأجل الاهتمام والتشويق.

الخامسة: القرآن أو قلب المؤمن عبارةٌ عن ماء عذب زلال نافع ينفع الأرضَ والمخلوقات في كلِّ زمان ومكان، أو عبارة عن ذهبٍ صافٍ غالٍ تتزيَّن به الأرضُ أو متاع ينفع الناس.

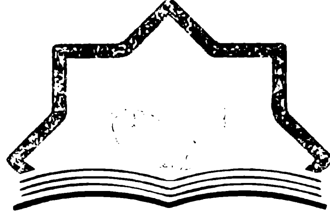
السادسة: قوله: ﴿أَوۡدِيَةُۢ﴾، التي كنى بها عن القلوب جاءت نكرةً ليدل على عموم الأودية الصغير والكبير، فكلٌّ له نصيبٌ من رحمة الله.

السابعة: قوله: ﴿بِقَدَرِهَا﴾، فيها من رحمة الله الشيء العظيم إذ لو زاد المطر على قدر الأودية لأهلك الحرث والنسل، وكذلك لو زاد الوحي والتكليف لعجز الناس.

الثامنة: قوله: ﴿ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾، يدلّ على بقاء سُنَّة التدافع بين الحق والباطل والصِّراع بينهما إلى قيام الساعة.

وصلِّ اللهمّ وسلِّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل السابع عشر
بطلان أعمال الكفار الصَّالحة

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

❖ **شرح المفردات:**

(مثل الذين كفروا): أي صفة أعمال الذين كفروا.

(أعمالهم كرماد): أي أعمالهم الصَّالحة كرماد لا قيمة له ولا نفع.

(الرماد): مخلّفات النار.

(لا يقدرون مما كسبوا على شيء): لا يحصلون من أعمالهم التي كسبوها على ثواب؛ لأنها باطلة بالكفر.

التدبر في المثل

هذا المثلُ معناه متكرِّر، فقد مرّ معنا ما يُشبِهُهُ في آل عمران وهو قوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ﴾ [آل عمران: ١١٧]. ولكن في المثل هنا المشهد مختلف، وذلك يُؤكد فيه سبحانه على قضية الإيمان بالله ورسوله ﷺ، وأنه شرطٌ لقَبول الأعمال.

بعد أنْ أرشد الله تعالى الأنبياء إلى التوكل عليه، في دفع شُرور

أعدائهم، وبيّنَ مآل الكفار يوم القيامة، قد يسأل سائل: وما مصير أعمالهم الصَّالحة؟ ألا ينتفعون بها وقد بذلوا فيه الجهد والأموال؟ وقد تكون لوجه الله، فضرب الله تعالى هذا المثل يُوضح فيه مصير أعمال الكفار ولو كانت لوجه الله.

هذا المثلُ مضروب لِبيان بطلان أعمالهم الصَّالحة، كصلة الرحم، والعناية بالوالدين، وإكرام الضيف، وبناء المدارس، والجمعيات الخيرية، وكفالة الأيتام والمشردين، والإنفاق على الفقراء والمساكين، والاختراعات والابتكارات، وغيرها من الأعمال الصَّالحة التي يعملها الكفار وينفعون بها الناس. العرب والناس يعرفون الرماد؛ لأنهم يستعملون النار بكثرة يطبخون عليها طعامهم، ويستضيئون، ويستدفئون بها في حلّهم وترحالهم وغير ذلك.

فضرب لهم مثلاً من واقعهم المشاهد والمعاش يومياً، يُبيّن فيه صفة أعمال الكفار يوم القيامة، فكلما طبخوا طعامهم واستعملوا نيرانهم تذكروا صفةَ أعمال الكفار لعلهم أنْ يخلصوا العمل لله، على أساس الإيمان والتّوحيد، فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ﴾.

مثل أعمال الكفار الصَّالحة التي عملوها، وتعبوا عليها يوم القيامة عند الله كمثل رمادٍ لا قيمةَ له، وبالإضافة إلى كون أعمال الكفار في الأصل كمثل رماد لا قيمة له ولا وزنَ له، ولا منفعة، جاءته ريح صَرْصَر عاتية، عصفت به فبعثرته وفرقته وتطاير في كلّ ناحية واتجاه، وأصبح من المستحيل جمعه، بل لم يبقَ له أثر، ولا حتى خبر، فإذا عصفت الريحُ بالرماد هل يفكر أحد من الخلق أنْ يجمعه بعد ذلك، بل ولا يخطر على بالهم هذا، كذلك

يمحق الله أعمال الكافرين، ويجعلها هباءً منثوراً، وجَفاءً مهدوراً، كما تمحق الريح العاصف الرماد بكل سهولة، وتبعثره في كلّ ناحية.

فشُبِّه (الكفر والشِّرك) بالنار وهي لم تُذكر، ولكن ذُكر شيء من لوازمها وهو الرماد، وشُبِّهت (الأعمال الصَّالحة) بالرماد، فأحرق الكفر بالله والشِّرك به الأعمال الصَّالحة حتى صارت رماداً. والرماد أصلاً غير نافع، ثم جاءت ريحٌ عاصفٌ فطيّرت الرمادَ في كلّ ناحية، حتى لا يبقى منه شيءٌ فيقول الكافر: هذا أساس عملي أو بقي أصله وهو الرماد.

في تلك اللحظة يداخل الكافرَ اليأسُ في النجاة، بل ولا يفكر أنه سينجو كما لا يفكر بجمع الرماد بعد تفرقه، ويكون بعدها حطب جهنم؛ لأنّ أعمالهم لم تُبنَ على أساس الإسلام والإيمان بالله والتّوحيد له في العبادة والدعاء، إذ الإسلام، والإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ أساس قَبول الأعمال.

ثم قال: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، لا يقدرون في الآخرة أنْ ينتفعوا بشيء من أعمالهم التي كسبوها في الحياة الدنيا من أعمال الخير، وهم أحوجُ ما يكونون إليها في ذلك اليوم العصيب؛ لأنها لم تُرفع أصلاً، ولم تُحسب لهم؛ لأنهم لَمّا عملوها لم تكن نيتهم لله، وحتى لو كانت نيتهم لله، لم يكونوا على قاعدة الإسلام والإيمان بالله، ثم بيّن سبحانه أنّ عدمَ الدخول في الإسلام.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾، أي الكفر وعدم الإيمان؛ لأنه لم يُؤسِس لعمله إيماناً صحيحاً.

وكذلك يدخل فيما سبق، المسلم الذي يُشرك بالله كالذين يذبحون لغير الله الأنعام الكثيرة، وينذرون لغير الله النذور العظيمة، وينفقون الأموالَ الكثيرة لغير الله، ويستغيثون بغير الله، ويستعينون بغير الله، تذهب

أعمالهم وأموالهم وعبادتهم، ويضيع تعبهم هباءً منثوراً، لأنّ هذه الأعمال ليست لله، فلا تُقبل عند الله ولا تصحّ، فكيف تُصرف لغير الله، ويُطلب جزاؤها وأجرها من الله؟! هذا لا يُعقل وليس عدلاً ولا منطقاً، ولو كانت لله لقابلها الله بعشرة أمثالها. وبعد أنْ بيّن سبحانه صفة بطلان أعمال الكفار بكفرهم، خاطب نبيّه والمؤمنين يُبيّن لهم قدرته بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩] بأنه خلق السموات والأرض بالحق من أجل الناس ليعبدوه، لا لعباً ولا عبثاً، فهو سبحانه غنيّ عن عبادة الطائعين، ومتعالٍ عن معصية العاصين، وإنما الطاعةُ تنفعُ أصحابها، والمعصية تضرّ أهلها، فمَن خلقَ السمواتِ والأرضَ فهو من باب أول قادر على أنْ يعدم الموجودين، ويوجد المعدومين، ويهلك العصاة، ويأتي بمَن يطيعه من خلقه، فهو قادر على ذلك سبحانه، سهل عليه غير ممتنع.

العبرة من المثل

هذا المثل يحثُّ المؤمنينَ على الاستمساك بدينهم، وعلى تعلُّمِ التّوحيد والإخلاص لله تعالى في العبادة والعمل، والمحافظة عليه؛ حتى ينتفع المسلم بعمله، وكذلك الحثُّ على تعلُّمِ أنواع الشِّرك والكفر والرِّياء والنفاق؛ لتجنبها والابتعاد عنها والحذر والتحذير منها؛ لأنّها تُبطل الأعمالَ، وتورد صاحبها إلى النار، فالذي لا يعرفُ الشِّرك يقعُ فيه. فكلُّ عملٍ أُرِيد به غير الله فهو غير مقبول عند الله حتى من المؤمنين، فما ظنُّك بالكافرين؟!

فالحذر من دعاة الضَّلالة الذين يُريدون جَعْلَ أعمال الناس رماداً، ويجعلون منهم حطبَ جهنم، فالإنسان يصلي السنين الطويلة، ويصوم الشهور العديدة، ويحج ويزكّي ويفعل الخير، ثم بكلمة كفر أو بفعل شركٍ

عن عِلمٍ أو جهلٍ يُحبط جميع عملِهِ، فيلقى الله بلا حسنات، وعليه ذنوب الكفر والشِّرك. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]. وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ**» [صحيح مسلم: ٢٨٠].

فيجب تعلّم العلم النافع، والعمل الصَّالح الذي يرتضيه سبحانه، من القرآن الكريم والسُّنة النبوية الصَّحيحة، والحرص فيه؛ لأنها جنَّة ونار ليس باللعب ولا بالتسلية.

شروط قَبول الأعمال

يُشترَط لِقَبول العبادة شرطانِ بعد الدخول في الإسلام

الأول: أنْ تكونَ العبادةُ خالصة لله تعالى لا يُقصد بها إلا وجهه.

الثاني: أنْ تكون العبادةُ في ظاهرها موافقة لسُنَّة رسول الله ﷺ. ويعبّر العلماء عن هذين الشرطين بقولهم: (الإخلاص والمتابعة).

ذكر البغوي في تفسيره أنّ الفضيلَ بن عياض سُئِل عن قوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢]. قال: أحسن عملاً، أي: (أخلصُهُ وأصوبُهُ). وقال: إنّ العمل إذا كانَ خالصاً ولم يكنْ صواباً لم يقبلْ، وإذا كانَ صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً.

قال: والخالِص إذا كان لله ﷻ، والصواب إذا كانَ على السُّنة. وقد دلَّ على هذا قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

فلا بُدَّ أنْ يَسْلَمَ العمل من الرِّياء المنافي للإخلاص، ومن البدعة المضادة للسنة، وقد دلّ على هذا قوله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهْوَ رَدٌّ**» [متفق عليه]. مثاله: رجل صلّى العشاء مخلِصاً فيها لله، ولكن زاد ركعة بطلت العبادة وإنْ كانت خالصة لله؛ لأنها ليست على سُنَّة رسول الله ﷺ.

رجل صلّى العشاء أربع ركعات على سُنَّة رسول الله ﷺ، ولكن كان يُرائي في صلاته بطلت الصَّلاة؛ لأنها ليست خالِصة لله.

رجل تَعَبّدَ لله بالوقوف تحت الشمس أو المطر خالصاً لله، هذه عبادة باطلة؛ لأنها ليست من السُّنة.

وهكذا يجب أنْ يكونَ العملُ خالصاً لله موافقاً لسُنَّة رسول الله ﷺ.

قال الصَّنعاني في «عيون المسائل»:

إذا لم يكنْ للهِ فعلُكَ خالصاً   فكُلّ بناءٍ قدْ بنيتَ خرابُ

فللعملِ الإخلاصُ شرطٌ إذا أتى   وقدْ وافقتْهُ سنةٌ وكتابُ

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: وبالرغم مِمّا سيلاقيه الكفارُ من العذاب البدني والحسّي في نار جهنم، فإنهم يأسفون ويألمون معنوياً على أعمالهم الصَّالحة الكثيرة والكبيرة في الدنيا التي ضاعت هدراً، ولم تنفعهم في الآخرة. وبالمقابل يرون أنّ الله قد أدخل أُناساً الجنة بأعمالٍ قليلة كانت على أساس الإيمان بالله، والإخلاص له.

الثانية: مفهوم المخالفة من المثل أنّ الله يحفظ أعمال المؤمنين الموحِّدين، وينتفعون بها ويجزيهم سبحانه بها في الآخرة.

الثالثة: قوله: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، (شيء) نكرة في سياق النفي تفيد العموم، فتعمّ أيَّ شيءٍ ولو كان مثقال ذرة لا يمكنهم الانتفاع به.

الرابعة: قوله: ﴿كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾، قيد الكفر بـ: (الربّ) سبحانه، وهذا التنصيص على الكفر بالرب ليس تخصيصاً له، إذ ليس معناه أنهم إذا كفروا برسوله أو بكتابه أو بملائكته أو باليوم الآخر أو بالقضاء والقدر، أو استحلوا ما حرّم الله لا يؤاخذون، إذ الكفر بأحد أركان الإيمان أو

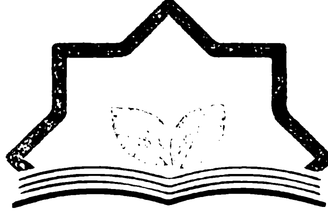
الإسلام أو بشيء من شرع الله هو كفر بالله، وخروج عن دينه، فقد جاءت النصوص بذلك، ولكنّه ذكر الكفر بالرب؛ لأنه الأصل والأساس، فكلُّ شيء من الدين يتعلَّق به. فإذا كُفِرَ بالرب فمِن باب أولى يُكفَر بكل ما أمر به أو نهى عنه.

الخامسة: الفرق بين قوله في سورة البقرة: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾، وقوله في سورة إبراهيم: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

الجواب: في آية البقرة قدّم (شيء) وأخّر (الكسب). وفي سورة إبراهيم قدّم (الكسب) وأخر (شيء) وذلك أنّ آية البقرة في سياق الإنفاق والصَّدقة، والمنفق معطٍ وليس كاسباً ولذلك أخّر الكسب، وأما الآية الثانية فهي في سياق العمل والعامل كاسب، فقدّم الكسب. أفاده: د. فاضل السامرائي في «لمسات بيانية»، بمعنى: آية البقرة للعامل، وآية إبراهيم للعمل.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل الثامن عشر

مَثَلُ الكلمة الطيبة، ومَثَلُ الكلمة الخبيثة

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: [٢٤ ـ ٢٦].

❖ **شرح المفردات:**

(كلمة طيبة): هي لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ.

(كشجرة طيبة): النخلة، أو المؤمن.

(تؤتي): تعطي.

(أُكلها): ثمرها. وعبّر بالأكل لأنه هو المقصود.

(كلمة خبيثة): كلمة الشِّرك.

(كشجرة خبيثة): الحنظل، أو الكافر.

(اجتثت): أي اقتُلعتْ واستُؤصلتْ.

(قرار): ثبات.

التدبر في المثل

لَمّا بيّنَ سبحانه أحوالَ السعداء وأحوالَ الأشقياء قبل المثل، ذكر

مثالاً يُبيّن الحال في حُكْم هذين القسمين، فضرب مثلاً للسعداء بالكلمة الطيبة وهي كلمة التّوحيد والإيمان (لا إله إلا الله) في قلب المؤمن، يُبيّن فيه ثباتها وفائدتها. ومثلاً لكلمة الشِّرك يُبيّن فيه زوالها وخبثها. وهذا المثل في الحقيقة مدحٌ للمؤمن وعمله، وذمّ للكافر وعمله، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾، مخاطباً الرسول ﷺ، أو مخاطباً مَن يصلح للخطاب، والاستفهام المنفي يفيدُ التقرير، أي: ألم يتقرر عندك العلم واليقين، كيف وصف الله لكم مثلاً مناسباً للكلمة الطيبة وهي شهادة أنْ لا إله إلا الله، وما يُبنى عليها من الأعمال الصَّالحة، وقيل: المراد بالكلمة الطيبة: القرآن وإرشاده، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، والشجرة الطيبة هي النخلة، والمقصود بالنخلة التمثيل للمؤمن، كما جاء في صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟ فَقَالَ** ﷺ: هِيَ النَّخْلَةُ»، فالمؤمن طيبٌ نقيٌّ لا يصدر عنه إلا كلّ طيب أينما رحل أو نزل، كما قال تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦].

ثم قال تعالى واصفاً هذه الشجرة: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾، وصف سبحانه كلمة التّوحيد بالأصل الثابت، والأصل يُبنى عليه غيره، ودون هذا الأصل يسقط ما يُبنى عليه من الأعمال الصَّالحة. وهذا الأصل ثابتٌ في الأرض، والأرض وهي قلب المؤمن، فكلمةُ التّوحيد أصلٌ راسخٌ ثابتٌ في قلب المؤمن كثبات النخلة في الأرض، ثم قال: ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، شبَّه ساق النخلة السابح في السماء، وسعفها المنتشر في جميع الاتجاهات، بـ: الأعمال الصَّالحة التي تصعد إلى الله تعالى ويرفعها سبحانه إليه كما قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. أي: كلمة (لا إله إلا الله) من خلالها يُرفع العمل الصَّالح، فكلمةُ التّوحيد تعطي

ثمرتها ونتاجها وبركتها وخيرها وحسناتها، وما يُنتفَع به منها لِجميع الناس برّهم وفاجرهم، كما أنّ سعف النخلة ينتشر في كلّ اتجاه كذلك ثمرة كلمة التّوحيد خيرها في كلّ اتجاه، وفي ﴿كُلَّ حِينٍ﴾، كلّ لحظة ووقت من ليل أو نهار يصعد للمؤمن عملٌ صالحٌ من تسبيح ودعوة وذكر ونفعٍ وغيره، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، بمشيئة الله سبحانه لا يخرج شيء عن مشيئته، كما أنّ الثمرة لا تخرج إلا بإذن الله، كذلك كلمة التّوحيد والأعمال الصَّالحة لا يُوفَّق إليها صاحبُها ولا تُعطي نتاجها وخيرها إلا بإذن الله، وهذه نعمةٌ عظيمةٌ بل هي أعظم نعمة يجبُ أنْ تُنسَب إلى الله، حتى لا يقول الملتزمُ أنا ملتزم بقوتي وفضلي وعلمي وجهدي؛ لأنّ القلوب بيد الله، والأمر لله، فكذلك شجرة الإيمان والتّوحيد، أصلها ثابت في قلب المؤمن، علماً بها وبشروطها وما يُناقضها واعتقاداً بمضمونها. وفرعها من الكلم الطيب، والعمل الصَّالح، والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة وما تُخرجه هذه الكلمة الطيبة من الخيرات التي ينتفع بها المؤمن وغيره.

قال ابن القيم في «إعلام الموقعين»: كلمةُ التّوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفاً بمعناها وحقيقتها نفياً وإثباتاً متصفاً بموجبها قائماً قلبُهُ ولسانُهُ وجوارحُهُ بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت العمل، أصلها ثابت راسخٌ في قلبه، وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجةٌ لثمرتها كلّ وقت.

فوصف الله (لا إله إلا الله) بالكلمة الطيبة كلمة التّوحيد، وشبّه (كلمة التّوحيد) بالنخلة التي هي تشبيهٌ للمؤمن، ووصف كلمة التّوحيد بالأصل الثابت الذي لا يتزعزع في قلب المؤمن، وشبَّه (قلب المؤمن) بالأرض التي ثبتت فيها النخلة، وشبَّه (ثمرتها) بـ: الأعمال الصَّالحة، وشبَّه (الأعمال المقبولة عند الله) بـ: ساق الشجرة السَّابح في السماء، وشبَّه

(خير كلمة التّوحيد) بـ: سَعف النخل: لأنك تلحظ أنّ سَعف النخل يتوزع على جميع الاتجاهات، وكذلك خير كلمة التّوحيد يعمّ جميع الناس. ذكر القرطبي والسعدي معنى التشبيه المتقدِّم.

قال ابن عباس وغيره: (الكلمة الطيبة) هي لا إله إلا الله، مثلها الله بـ: (الشجرة الطيبة)، وهي النخلة، فكأنّ هذه الكلمة (أصلها ثابت) في قلوب المؤمنين، وفضلها وما يصدر عنها من الأفعال الزكية والحسنة، وما يتحصَّل من عفو الله ورحمته هو فرعها يصعدُ إلى السماء من قبل العبد. ذكره ابن كثير، وابن عطية في تفسيريهما.

وهذا الإنسان كلّما كان رسوخُ شجرة المعرفة في أرض قلبه أقوى وأكمل، كان ظهور هذه الآثار عنده أكثر.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، يُبيّن الله للناس من خلال الأمثال أهمية التّوحيد وعنايته به وما أمرهم به وما نهاهم عنه، وما ينفعهم وما يضرّهم، وما يتوصّلون به إلى معرفة الحق من الباطل، لعلهم يتعظون ويؤمنون ويتقون.

الخلاصة: ثبات كلمة التّوحيد في قلوب المؤمنين كثبات النَّخلة في الأرض، والنفع والخير الذي يصدرُ عن كلمة التّوحيد من المؤمنين كالثمر والنفع والخير الذي يصدر عن النخلة. والنخلة معروفة عند جميع الناس بقوتها وثباتها وكثرة خيرها، لا يُنكرها أحد، ولا يجهلها أحد، وهكذا المؤمن المُوحِّد كالنخلة خيره على الجميع، ويكفي من خير المؤمن أنه يدعو إلى توحيد الله، وعدم الشِّرك به، وإلى إنقاذ الناس من الجهل في الدنيا والنار في الآخرة.

ثم ذكر سبحانه ضد كلمة التّوحيد كلمة الكفر وفروعها، فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، وصف سبحانه كلمة الشِّرك والباطل وما ينتج

عنها من الكفر والتكذيب بالحق بشجرة خبيثة، وهي شجرة الحنظل ونحوها لا أصل لها، ولا فرع في السماء، ولا فائدة فيها، ولا منفعة لا في الأكل ولا في الظل، وقد تنفع في الحطب، كما أنّ الكافر حطب جهنم، فكذلك الكافر لا حجَّة له، ولا ثبات، ولا خير فيه، فلا يصعد له قولٌ طيب ولا عمل صالح، فالكلمة الخبيثة لها أثر خبيث في العقائد والعبادات ولا يصدر عنها إلا كلّ خبيث في الأحكام الدينية والدنيوية، كما قال تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ [النور: ٢٦]. ثم ذكر سبحانه صفة هذه الشجرة الخبيثة بأنها، ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾، اقتُلِعت اقتلاعاً شديداً بكامل جثّتها، كذلك الكافر والجاهل إذا جاءته الفتن والشُّبهات والشَّهوات اقتلعته، وأضلَّته ضلالاً بعيداً.

ووصف سبحانه نوعَ الاجتثاث فقال: ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنها بلا جذور ولا أصول تمسكها، كذلك الكافر والجاهل ليس عنده عقيدة ولا إيمان ولا أصل ولا عِلْمٍ يستمسك به، تجده كلّ يوم في بدعة وشرك، ومع كلّ فرقة وجماعة حسب المنفعة والفائدة، كما قال تعالى: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: عقيدة الكافر والمشرك والمبتدع والجاهل ليس لها من ثباتٍ ولا دوامٍ، فلا عروق تمسكها، ولا أرض تُثبِتُها، ولا ثمرة صالحة تنتجها، بل إنْ وُجِد فيها ثمرة، فهي ثمرةٌ خبيثة مؤذية سامة؛ لأنّ ما ينتج عن الخبيث خبيث، كذلك عقائد الكفار خبيثة سامة قاتلة لأصحابها تُرديهم في نار جهنم، تتطور وتزيد مع الوقت، وكذلك أعمالهم، ليس لها ثبات ولا أصول ولا دوام نافع، ولا أثر يوم القيامة، فلا يصعدُ له إلى الله عمل صالح ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره؛ لأنه لم يَبْنِ عملَه على قاعدة الإيمان.

ثم ذكر سبحانه مآل مَن مثّل لهم من الفريقين، فقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، القول الثابت: هو الكلمة

الطيبة، كلمة التّوحيد عند الفتن والشُّبهات، وعند الموت بنطقها، وفي القبر عند سؤال الملكين، ثم ذكر الله تعالى مصير الكافرين، فقال: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾، أصحاب الكلمة الخبيثة، في الدنيا في الفتن، وعند الموت لا يُوفقون لكلمة التّوحيد، وفي القبر.

ثم بيّن سبحانه أنّ الأمور بقدره ومشيئته، فقال: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، في الهداية والإضلال، الأمر له سبحانه، لا معقّب لحكمه، ولا يُسأل عمّا يفعل. ولكنّ القاعدة تقول: كلّ ما في الناس من خير فمِن الله، وكل ما فيهم من شرّ فمِن أنفسهم وبمعاصيهم، قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩].

العبرة من المثل

مدح الله المؤمنَ بوصفه كالنخلة التي هي أنفع الشجر، وقد ذكر الله النخلة في كتابه في مواضع عدة في موطن المدح، منها قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ [ق: ١٠]. فكلمة التّوحيد إذا استقرت في قلب المؤمن عن علمٍ وفهمٍ أثمرت الأعمالَ الصَّالحة، وأصبح اعتقاده ويقينه قوياً لا تهزّه الشُّبهاتُ، ولا تؤثر به الشَّهوات والأهواء ولا التيارات والجماعات والفرق ولا البدع، صامداً بإيمانه وعلمه بتوفيق الله، كالنخلة التي لا تؤثر بها الريح ولا الحر ولا البرد ولا المطر ولا غيرها من عوامل الطبيعة.

والسؤال: لماذا ضرب الله المثلَ للمؤمن أو لكلمة التّوحيد بالشجرة؟.

الجواب: الله تعالى يضرب الأمثال من واقع الناس، ومِمّا يعرفون ويفهمون، فالشجرة حتى تحيَا وتثمر وتستمر يجب أنْ يُعتنى بها، وتُعَرَّض للهواء النقي، وتُسقى الماء الطيب، وتُحمى من الحشائش الضارة والنباتات السامة، ومِن الاعتداء عليها، كذلك الإيمان وكلمة التّوحيد حتى يثبت في القلب، ويعطي ثماره اليانعة، وينتفع به صاحبه، وينتشر فضله

وخيره على الناس، يجب أنْ يُعتنى به جداً؛ لأنه مفتاح الجنة، فيجب أنْ يُسقى بماء الكتاب والسُّنَّة، والعمل الصَّالح، والجلوس عند العلماء الربَّانيين المعروفين بالعقيدة السليمة والمنهج الصَّحيح، ويُحمى من الشُّبهات والشكوك والشَّهوات والشِّرك والبدع وعلماء الضَّلالة، فعندها يُثمر الإيمان ثمرة عظيمة تنفع جميعَ الناس في الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم: الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، فكذلك شجرة الإيمان والإسلام؛ ليطابق المشبه المشبه به، فعروقها العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعها الأعمال، وثمرتها ما توجبه الأعمال الصَّالحة من الآثار الحميدة والصِّفات الممدوحة، والأخلاق الزكية والسمت الصَّالح والهدى والدل المرضي، فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور، فإذا كان العلم صحيحاً مطابقاً لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به والاعتقاد مطابقاً لما أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله والإخلاص قائم في القلب والأعمال موافقة للأمر والهدي والدل والسمت مشابه لهذه الأصول مناسب لها؛ علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذا كان الأمر بالعكس علم أنّ القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: ذكر تعالى في هذا التشبيه شجرةً موصوفةً بأربع صفات، ثم شبّه الكلمة الطيبة بها:

الصفة الأولى كونها (طيبة)، والثانية كون (أصلها ثابت)، والثالثة كون (فرعها في السماء)، والرابعة كونها (دائمة الثمر).

فمعرفة الله تعالى والاستغراق في محبته وفي خدمته وطاعته، تشبه هذه

الشجرة في هذه الصِّفات الأربع، فالمؤمن طيب الكلام والأصل والعشرة، أصوله ثابتة فهي الكتاب والسُّنَّة، وأعماله التي تُبنى على كلمة التّوحيد تصعد إلى الله تعالى، وخيره وبرّه ونفعه دائم في الحياة وبعد الممات، ويوم القيامة، وفي الجنّة شفاعتُه مرجوة عند الله.

الثانية: وجه الشبه في تمثيل الإيمان بالشجرة أنّ الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عالٍ، كذلك الإيمان، لا يتم إلا بثلاثة أشياء: تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأركان، ذكره البغوي في تفسيره.

الثالثة: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، أي: ألم تعلم، وهذا استفهام تقرير يفيد إبطال النفي، بمعنى قد تقرر عندك العلم بما أمرنا وبما نهينا، وعبّر بالرؤية بدل العلم لتحقق العلم بالمثل المضروب كأنه رؤيةُ عينٍ واقعة، ومثله قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]. وهو ﷺ مولود في عام الفيل ولم يرَ الحادثة، ولكن لشهرة القصة صارت حقيقة كأنه يراها حتى لِمَن لم يشهدها. والتعبير بالرؤية أو السماع بدل العلم أسلوب عربي معروف.

الرابعة: قوله: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾، منصوبة، والنصب هو الاستقامة لغة، وكذلك كلمة التّوحيد والعامل بها على صراط مستقيم، أما كلمة الكفر، ﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، مكسورة، فكذلك كلمة الشِّرك ونتاجها، وأهلها مكسورون.

الخامسة: قوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾، إذا لم يُحكم الأصل ويثبت لم تثبت الأعمال، ولعبت به الأهواء.

السادسة: قوله: ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، فيه تعلّق صاحب الإيمان الراسخ والتّوحيد الخالص بالله تعالى، فنظره إلى السماء إلى المعالي إلى الله تعالى يرجو رحمته ويخاف عذابه، وليس كالمشرك ينظر تحت قدمه.

السابعة: قوله: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ عَمَلُ صاحب التّوحيد مقبولٌ

بإذن الله في كلّ وقت؛ لأنه مبنيٌّ على أصل صحيح، بخلاف صاحب الشِّرك فعمله مردود دائماً حتى يُخْلِصَ لله، وعبّر بـ: (الأكل)؛ لأنّ المقصود الأول من زراعة الشجر هو الأكل من ثمرها، فكذلك ثمرة التّوحيد هي المقصودة يأكلها صاحبها هنيئاً مريئاً بإذن الله كاملة سالمة غير منقوصة في الدنيا والآخرة.

الثامنة: قوله: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾، الإنسان عاجز بنفسه، قوي بربه، يحتاج إلى عونه كلّ حين وكل لحظة، وفيه أنّ المؤمن لا يفتر عن ذكر ربه في كلّ حين.

التاسعة: قوله: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾، (تؤتي)، مضارع مستمر في محلّ نصب حال من الشجرة، أو في محلّ جرّ نعت لشجرة، أي: حال الكلمة الطيبة أو صفتها مستمرة بالثمر الطيب. أما الشجرة الخبيثة فقد قال عنها ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾، بالماضي المبني للمجهول، أي: لا يُهتَم لها، أيّ أحد يجتثها؛ لأنها ليست ثابتة، وليست ذات قيمة، فهي مباحة لكل أحد.

العاشرة: قوله: ﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، وصف سبحانه الشِّرك بالخبث لِما فيه من المحادّة لله ورسوله بطرق المكر والخداع والتدليس وإيراد الشُّبهات والمتشابهات، ولِما يؤول بصاحبه إلى الخلود في النار.

الحادية عشرة: قوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾، عبّر بالماضي، أي أنها اقتُلِعت في الماضي البعيد وهي مجتثة من أصلها وانتهى أمرها؛ لأنها لا مستقبلَ لها، وعبّر بالماضي المبني للمجهول؛ لأنّ كلّ موحِّد لله يحاربها، وكل خلق الله يحاربها؛ لأنّ جميع المخلوقات توحّد الله وتسبح له وتصلي إلا فجرة الإنس والجن.

الثانية عشرة: قوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾، صاحب الشِّرك ليس له أصول ولا جذور ولا أدلة فهو مضطرب، سهل الاجتثاث، بل هو جثة

هامدة كجثة الإنسان إذا مات يخرج ريحه ونتنه إذا لم يُدفن، كذلك الشِّرك يخرج ريحه ونتنه إذا لم يُدفن.

الثالثة عشرة: قوله: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، الشِّرك لا يقرُّ فليس له مكان ثابت، ولا أرض يأوي إليها، وبمجرد وصول التّوحيد إليه يقتلعه؛ لأنه زاهق بأصله. كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

الرابعة عشرة: قوله: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، (قرار) نكرة مؤكدة بالحرف الزائد، وهي في سياق النفي فتفيد العموم، فأكَّد وعمّ سبحانه أنّ كلمة الشِّرك وأهلها ليس لهم ثبات في مكان، ولكن على الحق أنْ يتحرك نحوه، فالباطل يقوى وينتفخ بسبب تراجع أهل الحقِّ لا من قبل نفسه. والله أعلم وأحكم.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل التاسع عشر
نفي المساواة بينَ اللّٰه تعالى والأوثان

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

❖ **شرح المفردات:**

(ضرب الله مثلاً): بيّنَ صفةً لأمرٍ حتى يُعقل.

(عبداً مملوكاً): عبداً اشتراه رجل حرٌّ فصار مملوكاً له.

(هل يستوون): أي العبد العاجز، والحرّ المتصرف، قطعاً لا يستوون.

التدبر في المثل

بعدَ أنْ بيّنَ سبحانه بطلانَ الشِّرك نهى أنْ تُضرَب له الأمثال التي تُساوي بينه سبحانه وبينَ خلقه، وضربَ لذلك مثلين واقعيين في غاية الوضوح من واقع الناس المعاش المعلوم عندهم، هذا المثل الذي بينَ أيدينا والذي يليه مباشرة؛ لأنّ الناس في ذاك الزّمان على قسمين: عبيد وأحرار، فضرب الله تعالى هذين المثلين، لنفسه ولِمَنْ عُبِدَ من دونه، يُقرر فيه عقيدة التّوحيد والدّعوة إليه، وبيانه ووضوحه، وإبطال الشِّرك والتنفير منه، ونفي المساواة بينه وبين خلقه، والتنبيه على ما عليه أهل الشِّرك من الضّلال والفساد والخذلان.

فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، يُبيّن فيه ضلالَ المشركين وسفه عقولهم ويقيم به عليهم الحجَّة، ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾، عبداً مملوكاً لسيده الذي اشتراه مقصوراً عليه، لا يتعداه في الخدمة والطاعة، لا يتصرَّف في نفسه ولا في غيره إلا بإذن سيده، وبالإضافة إلى أنه مملوك فهو عاجز؛ لأنّ الله يقول: ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ عاجز تماماً عن فعل أيّ شيء، لأنه يُوجد عبيد ولكن عندهم قدرة وقوة، هل يستوي هذا العبد المملوك العاجز، معَ مَن قال الله فيه: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾، مع رجلٍ حرٍّ رزقه الله رزقاً طيباً حلالاً صالحاً كثيراً، ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾، ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانية؛ بحسب ما يُريد وبحسب المصلحة، حرُّ التصرف، لا يمنعه أحد، ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾؟ أي الأحرار والعبيد في مثل هذه الحالة، قطعاً لا يستوون عند كلّ الناس مع أنهما مخلوقانِ، ومستويانِ في الخلقة والصورة والبشرية، فالعبيد والأحرار لا يستوون، فإذا كانا لا يستوون عندكم أيها البشر عبد مملوك مقهور لا يقدر من أمره على شيء مع رجلٍ حرٍّ قد رُزِق رزقاً حسناً يتصرَّف فيه كيف يشاء، فكذلك لا يستوي الله تعالى الذي بيده الأرزاق والموت والحياة يتصرَّف فيها كيف يشاء، مع هذه الأصنام والأوثان والأولياء من الأموات والأحياء. فكيف تُشبِّهون الله بالأصنام الصَّماء العاجزة، أو بالأولياء الصَّالحين الذين يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه، وتعبدونهم مع الله، وتطلبون منهم الحوائج؟ فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، وهو فقيرٌ من جميع الوجوه بالرب الخالق المالك القادر على كلّ شيء؟!.

هذه التسوية من الضَّلال والسّفه والاعتداء على حق الله سبحانه، وسيعترف الكفار بهذا يوم القيامة كما أخبر الله عنهم، إذ قالوا: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨]؛ ولهذا حَمِدَ الله

نفسه سبحانه لَمّا اتضح الحق، فهو مستحق الحمد وإنْ أشرك به المشركون، وبانَ الفرق وظهر الأمر بوضوح وسهولة، حيث قال في آخر المثل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، هو أهل الحمد، المتفرد بالخلق والنِّعَم، وذمّ أهل الجهل، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، لا يعلمون أنّ الحمدَ كلّه لله، وأنّ الفضل كلّه لله؛ لذلك جعلوا منه نصيباً لأوثانهم وأوليائهم، بلا عِلْمٍ ولا دليلٍ ولا استحقاقٍ.

وجهلهم هذا ليس بعذر عند الله؛ لأنّ الله أعطاهم العقول وأمرهم بالاتباع، ونهاهم عن التقليد والتعصب. وقال: أكثرهم، ولم يقل: كلّهم؛ لأنّ منهم فريقاً يعلمون الحق ويكتمونه؛ خوفاً على جاههم ومالهم وسلطانهم كحال الكثير من أهل زماننا، يعلمون الحق ويخالفونه.

واعلمْ أنّ كلّ الناس عالِمهم وجاهلهم على مختلف ألوانهم ومللهم يعلمون أنّ الله هو الذي يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويدبر شؤونهم، ومع هذا يُعطون لبعض الأولياء والصّالحين من الأحياء والأموات صفات الله من السمع والبصر والعلم والقدرة على إجابة الداعين وإغاثة المستغيثين، ويجعلونهم آلهة مع الله بسبب الغلو والجهل ودعاة السوء والضّلالة الذين يُلبّسون على الناس ويُضلونهم عن الحق لِمصالح فردية أو دولية، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢]. يعلمون أنه ليس لله شريكٌ ولا ندٌّ ولا مساوٍ في الخلق والرزق والتدبير ومع ذلك يجعلون له الأنداد والشُّركاء؛ وذلك أنّ في جعل الناس مشركين وثنيين فيه سيطرة على عقولهم ومعتقداتهم، ومِن ثَمّ تجنيدهم لمصالحهم.

فـ (العبد المملوك العاجز الذي لا يقدر على شيء) هم جميعُ الخلق بحكامهم ووزرائهم وجنودهم وأموالهم، فقراء إلى الله لا يحركون ساكناً ولا يسكِّنون متحركاً إلا بإذن الله، ولا يستطيعون نفعَ أحدٍ إلا أنْ يشاء الله، كما قال ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَلائِقَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يُعْطُوكَ شَيْئاً لَمْ يُرِدِ اللهُ**

أَنْ يُعْطِيَكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، أَوْ يَصْرِفُوا عَنْكَ شَيْئاً أَرَادَ أَنْ يُصِيبَكَ بِهِ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ» [رواه أحمد والترمذي والطبراني وغيرهم]. وأنّ الرجل الحرّ المنفق هو الذي مُثِّل به لله تبارك وتعالى، الذي بيده ملكوت كلّ شيء، فلو عقلتَ وفهمتَ واستحضرتَ من هذا المثل أنّ جميع الخلق فقراء عبيد مملوكون لله تحت قهره وسلطانه عاجزون لتركتهم، وتعلقت بالله القوي العزيز الحكيم.

العبرة من المثل

تجب معرفةُ الله بأسمائه وصفاته، وتعلّم التّوحيد بدليله النظري والحسي ومعرفة الحق، وإعمال العقول والنظر في ملكوت الله تعالى، وتنزيهه سبحانه عن شِرك المشركين الذين يُسَوّونه سبحانه بخلقه؛ فيستغيثون بغيره في قضاء حوائجهم وتفريج كُربهم، وذلك بسبب الجهل المُتَعمَّد الذي أدّى بهم إلى الشِّرك بالله تعالى؛ لأنه قال في آخر المثل: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ومع هذا فإنّ الحجَّة قائمة عليهم إذ هم مفرطون في طلب العلم، وقد أرسل الله إليهم الرسل، وأنزل الكتب، وبيّنَ لهم الطريق، وضرب لهم الأمثال، وتركهم النبي ﷺ على المحجَّة البيضاء، قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النَّحْلُ: ٨٣]. يعرفون أنّ الله هو الذي يرزقهم ويعافيهم، ويدبر شؤونهم، ثم يُنكرون هذه النعم عن الله وينسبونها إلى غيره سبحانه.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: قوله: ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، هذه الجملة الفعلية نعتت (مملوكاً) وخصصته حتى لا يُتوهم أحدٌ أنّ هذا المملوك له الإذن في التصرف في شيء من الأشياء، أو عنده القدرة على فعل شيء، وهذا مثل ما عُبِد من دون الله.

الثانية: قوله: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، (لا) نافية غير عاملة تنفي زمن الحاضر والمستقبل وتفيد العموم مع المضارع، و(شيء) نكرة في سياق

النفي، فتعمّ عدم القدرة على كلّ الأشياء، فهذا العبد غير قادر على فعل أي شيء لا في الحاضر ولا في المستقبل.

الثالثة: قوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾، (منّا) فيها المنّة والكرامة والعَظَمة والكثرة في الرزق، من الله على عباده، إذ جعل منطلق الرزق الحسن منه سبحانه، ولم يقل من الأرض أو البحار أو ما شابه.

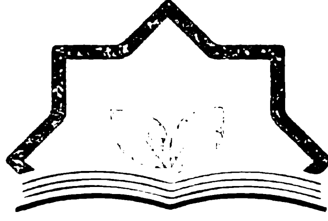
الرابعة: قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾، الاستفهام للإنكار فهو يتضمَّن معنى النفي، أي: (لا يستوون)، وعبّر بالاستفهام مع أنّ الجواب واضح؛ وذلك من باب المناقشة والحوار الذي يُثيره كتابُ الله تعالى، وكي يحكم القارئ والسامع على نفسه في هذه القضية.

الخامسة: قوله: ﴿يَسْتَوُۥنَ﴾، أعاد الضمير بالجمع على (مَن)؛ لأنها تأتي للعموم للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، أو لأنه أراد جنس العبيد والأحرار.

السادسة: قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، (بل) حرف ابتداء فيه معنى الاستدراك، وقد تأتي للإضراب عمّا قبلها وإثبات ما بعدها، وقد تأتي للإضراب الانتقالي فقط دون أنْ تنفي ما قبلها، و(لا يعلمون) هذا التركيب لا النافية مع المضارع المستمر يفيدان نفي عموم العلم في زمن الحاضر والمستقبل؛ لأنهم تاركون للعقل والعلم، وعاكفون على الأصنام والأوثان والقبور.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل العشرون
في نفي المساواة بين الله والأوثان

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

❖ **شرح المفردات:**

(**أبكم**): مَن وُلِد أخرس وأصم لا يسمع.

(**لا يقدرُ على شيء**): عاجز لا يَفهم ولا يُفهِم غيره.

(**كَلٌّ على مولاه**): ثقيل عالة على سيّده وأهله.

التدبر في المثل

مثل آخر يدلّ على ما دلَّ عليه المثلُ السابقُ وفي سياقه نفسه على وجهٍ أوضح وأظهر، لتنبيه الغافل، وإبطال الشِّرك، وإثبات الوحدانية لله، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾، لبيان المقصود من إبطال مذهب المشركين، ولكلٍّ من الرجلين صفات، فبيّن سبحانه صفات الأول الذي هو مَثَلٌ للأوثان، ولكلِّ ما عُبِدَ من دون الله، فقال: ﴿أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾، **الصفة الأولى**: لا يتكلم ولا يسمع، والمقصود أنه بليدٌ ثقيل العقل، لا يَفهَم الخطاب ولا يُفهِم غيره، ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، **الصفة الثانية**: عاجز عن صلاح نفسه فضلاً عن غيره لضعفه، وعيّه، وعجزه، وعدم قدرته

على شيء مطلقاً، ولا يُحسن من تدبير الأمور أيّ شيء، ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾، الصفة الثالثة: عبءٌ ثقيل وعالة على سيده وأهله وأقربائه، ليس فيه منفعة، تكلفوا معيشته وعلاجه وطعامه ومصروفاته، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾، الصفة الرابعة: أينما يرسله وليّه أو أهله ولو إلى أسهل الأمور أو أقرب الأماكن ليقضي لهم حاجة لا يُحسنها، ولا يأتي بخير، وقد يأتي بشرٍّ، فلا يحصل منه على نفعٍ وخيرٍ أبداً. هذا مثلُ الأصنام والأوثان التي تُعبد من دون الله كمثل الأبكم الناقص من كلّ وجهٍ، إذ هي لا تسمع ولا تبصر ولا تَفهم ما يُقال لها، ولا تُفهم عابديها شيئاً، ولا تنفعهم في شيء.

بل هي محتاجةٌ إليهم في صُنْعها ووضعها وحملها من مكان إلى مكان وحمايتها وتنظيفها وتبخيرها والقيام على شأنها، ﴿هَلْ يَسْتَوِى﴾ مَن تقدمت صفاتُهُ الأربعة البئيسة التعيسة من عدم الإفهام والقدرة والثقل والمنفعة مع ﴿مَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾، تامّ التمييز، يتكلم ويسمع ويُفهم وهو مخلِص، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدلك على الخير وما دام أنه صاحب أمر، إذاً هو صاحب وجاهة ومكانة ومنصب، وهو في كلّ ذلك ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، دين قويم وصراط مستقيم في أقواله وأفعاله ليس فيها ميل ولا انحراف، ﴿هَلْ يَسْتَوِى﴾، فالجواب: لا يستوي هذان الرجلان بحال في جميع العقول وعند كلّ الناس، وهذا أمر بدهي لا يحتاج إلى تفكير، إذاً فكيف تسوون بينَ الله العزيز الحكيم السميع البصير الخالق المحيي المميت الرازق، وبين خَلْقه من الأولياء والصَّالحين من الأحياء والميتين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا شيئاً، حتى ولا قطميراً ولا فتيلاً ولا نقيراً، فضلاً عن أنْ يملكوا لغيرهم، فتعبدونهم مع الله وتدعونهم كما تدعون الله أو من دون الله، وتستغيثون بهم وتنذرون لهم وتعتقدون بهم النفع والضر كما تستغيثون بالله، وتنذرون لله، وتعتقدون

النفع والضّر بالله، كيف تسوّون بين الله وبين أوليائه من عباده بحجّة أنهم صالحون، وبحجّة التقرب بجاههم إلى الله، وفي الحقيقة أنهم اتخذوهم آلهة وأولياء وشفعاء من دون الله كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

بعدما بيّن تعالى المثل، ووضّحه لعباده، وأقام الحجَّة عليهم، ذكر لهم أنّ من صفات الإله الحق أنْ يكون متصفاً بعلم الغيب متفرداً به، وذلك ليس إلا لله سبحانه، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧]. فأين أوثانكم وأولياؤكم من علم الغيب، وأمر الساعة وقدرة الله ﷻ؟!

العبرة من المثل

مثل يقرعُ القلوب والأسماع، ويُظهر فساد الكفار، وضعف عقولهم؛ لأنهم عبدوا مع الله آلهةً لا تنفع ولا تضرّ، واتخذوا من دونه أولياء لا يملكون لهم رزقاً ولا عوناً ولا مدداً، ولا يستطيعون إنزال المطر ولا إنبات الزرع، ولا يملكون لهم موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فالواجب: معرفة قدْر اللهِ تعالى، وتوحيده وتعظيمه وتبجيله وتوقيره وتقديسه وتسبيحه، واتخاذه وليّاً من دون العالَمين، كما قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فالمشركون ما قدروا الله حق قدره إذ أشركوا به، وعبدوا معه الأصنام والأوثان والأولياء.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: خصَّ الأبكم بعدم القدرة وبالعبء وعدم المنفعة؛ لأنه يُوجد أبكم وفيه خير كثير.

الثانية: قوله: ﴿أَيْنَمَا﴾، تدلُّ على عموم المكان.

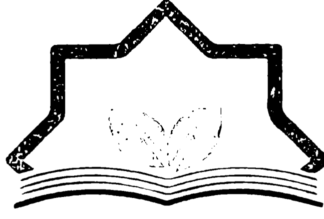
الثالثة: قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾، الاستفهام يتضمن معنى النفي، أي: (لا يستوي).

الرابعة: قوله: ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾، فيه صفة العدل والقوة في كلامه، وهو ضد (الأبكم) إذ إنّ الذي يأمر يتكلم.

الخامسة: قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: في دينه وأمره، وهو ضد ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾.

وصلِّ اللهمّ وسلِّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل الحادي والعشرون

وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق وتحريم الغدر

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩٢].

❖ **شرح المفردات:**

(نقضت غزلها): أفسدت غزلها بعد ما غزلته.

(من بعد قوة): من بعد إحكام له وبرم.

(أنكاثاً): جمع نكث، وهو النقض، وهو ما يُنكث ويُحل بعد الإبرام والشّدّ.

(دخلاً بينكم): الدخل: الغش والخديعة، أي: ما يدخل في الشيء وهو ليس منه لإفساده.

(أَرْبَى): أزْيد وأكثر.

(أربى من أمة): أكثر منها عدداً وقوة.

(يبلوكم): يختبركم.

التدبر في المثل

هذا مثل ضربه الله تعالى لِمَن يغدر بعد الميثاق، ويُفسد بعد الإصلاح،

ويكفر بعد الإسلام، لَمّا أمر الله ﷻ بالوفاء بالعهود والمواثيق بقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١]. نهى سبحانه عن نقض العهود والغدر فيها، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ في نقضكم للعهود والعقود والمواثيق مع الله بعد توكيدها، أو مع الناس بعد إبرامها وتوثيقها، كالمرأة ﴿ٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ تغزل غزلاً قوياً محكماً، فإذا استحكم وتمّ ما أُريد منه نقضته فجعلته ﴿أَنكَٰثًا﴾ منقوضاً متفرقاً فاسداً، من غير سببٍ موجبٍ للنقض أو لسببٍ ضعيف.

تعبتْ على الغزل ثم على النقض، ولم تستفدْ سوى الخيبة والعناء وسفاهة العقل ونقص الرأي، فكذلك مَن نقض ما عاهد اللهَ عليه بعد توكيد العهد من التوبة والالتزام بالصَّالحات وعمل الخيرات أو ما عاهد الناسَ عليه، فإنْ نقضَ عهده فهو ظالمٌ جاهلٌ سفيهٌ ناقصُ الدين والمروءة، شبيهٌ بالمرأة الخرقاء الحمقاء الدَّنيئة؛ لأنّ مِن عادة النساء عدم الالتزام بالوعود ولو كانت يسيرة، فضلاً أنْ تكون عهوداً ومواثيقَ كبيرة غليظة، ونحن في حياتنا اليومية، نقول عمَّن يعطي كلاماً ولا يلتزم به (كلام نسوان).

ثم قال تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾، تجعلون ما عاهدتم عليه، وما أعطيتم من الأيمان والعهود من باب الخديعة والمكر ووسيلة للإفساد، بمعنى: تحلفون الأيمان المغلظة على العهود والمواثيق والالتزام وعدم النكث وعدم الإخلاف، فيصدقكم الطرف الآخر لهذه الأيمان والمواثيق المغلظة، ثم تنتقلون إلى الغدر والإفساد، وذلك ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾، بسبب أنْ تكون جماعة هي أكثر عدداً منها، وأوفر مالاً، مِن التي عاهدتموها أول مرة.

بمعنى آخر: تعطي عهدك لجماعة أو لشركة ما، وتحلف لهم أنْ تلتزم معهم، ثم إذا بدتْ لك مصلحة أخرى مع جماعة أو شركة أخرى أفضل من

الأولى نقضت عهدك الأول وذهبت إلى الآخرين، وإنما صدّقتك الجماعة الأولى؛ لأجل دينك وأمانتك وسمعتك، ولأنك حلفت لهم بالله وأعطيتهم العهود المؤكدة، والمواثيق المغلظة، فمَن فعل ذلك ونكث وأخلف من غير سبب موجب قاهر صارت القضية مع الله وانتقلت إلى الله، والله هو الذي يتولّى عقوبة الناقض؛ لأنه أعطى باسم الله، وصدّقه الناس باسم الله.

وكذلك معنى الآية: يتضمَّن الإنكار والنفي، أي: لا تغدروا بقومٍ لقلّتهم وكثرتكم، أو لقلّتكم وكثرتهم، وقد أعطيتموهم العهودَ بالأَيمان، وحلفتم لهم على صيانة العهد بينكم، فالثَّباتُ على العهد والالتزام به هو اختبارٌ من الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾، يختبركم بكونكم أكثر وأوفر، لينظر هل تتمسَّكون بحبل الوفاء، أم تنقضون اغتراراً بالكثرة؟.

فيتميّز الأوفياءُ من الخائنين، ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، فيظهر المحقُّ من المبطل، فيجزي الله المُوفينَ، ويعاقب الخائنينَ.

فخلاصةُ المعنى: شبَّهت هذه الآية الذي يحلف ويعاهد ويبرم عهده ثم ينقضه من غير سببٍ يوجب النقض بالمرأة السَّفيهة الناقصة الحمقاء تغزلُ غزلها، وتحكمه ثم تحلّه، ومع الإثم الذي يلحقُ الناقض، فقد شَبَّهَهُ تشبيهاً يُشين الرجال.

والمقصودُ في المثل النهي عن العود إلى الكفر والشِّرك والبدعة والإفساد وموالاة أهل الباطل بسبب كثرتهم وقوتهم، وكثرة أموالهم والإعجاب بهم.

فلما نهى سبحانه عن النقض والغدر في العهود والمواثيق بعد إبرامها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣]. أي: إنّ الله قادر على أنْ يجعلَ الناسَ متساوينَ في الدين والعدد والمال والقوة وغيره، ولكن جعل هذا

التفاوتَ بين الناس ابتلاء واختباراً، ويوم القيامة يحاسب سبحانه الناس على أعمالهم ونِعَمِهم فيجزي الطائع، ويعاقب المسيء.

العبرة من المثل

أمر الله بالمحافظة على العهود والمواثيق والوفاء بها، وعدم نقضها مع الله تعالى، أو مع الناس إلا لسبب ظاهر قاهر يصحُّ معه النقض بحيث يُعذر صاحبُهُ، سواء كانت هذه المعاهداتُ مع دول أو أفراد أو شركات أو مقاولات، فيجب المحافظةُ على العقود معها، والوفاء ببنودها، وعدم تركها بسبب إغراءات دول عُظمى أو شركات أخرى أو مصانع ثانية. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤] لأنّ نقضَ العهود والمواثيق أمر يُبغضه الله ويُغضبه، ولأنه إخلالٌ بمروءة المسلم وشهامته، وكسرٌ في أخلاقه، وسبةٌ في دينه تصدُّ عنه وتعيبه.

قال ابنُ تيمية في «القواعد النورانية»: فقد جاء الكتابُ والسُّنَّة بالأمر بالوفاء بالعهود والشروط والمواثيق والعقود وبأداء الأمانة ورعاية ذلك، والنهي عن الغدر، ونقض العهود، والخيانة، والتشديد على مَن يفعل ذلك.

وكذلك تجب المحافظة على جميع الأعمال الصَّالحة التي تعبَّد المسلم بها لله تعالى، وعاهد عليها بالمحافظة على عقيدته من الشِّرك، وجوارحه من كبائر الذنوب، فإنْ لم يفعل كان كالذي يُشَيِّد بيتاً ثم يهدمه، أو يجمع مالاً عظيماً ثم يحرقه، فإنّ الله توعَّد مَن ينقض العهدَ والميثاق بعقوبات كبيرة؛ لأنه أشهدَ الله على العهود ثمّ لم يلتزم ولم يرعَ حرمة الله، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وقفات تدبرية وبلاغية

أولاً: التمثيل بالمرأة التي نقضت غزلها من بعد قوة، إشارة إلى أنّ ناقض يمينه، وناكث عهده خارج من زمرة الرجال، داخل في زمرة النساء الناقصات، بل في أدناهنَّ، وهي الخرقاء.

ثانياً: قوله: ﴿نَقَضَتۡ﴾، النقض: الهدم، ففيها قوة المعنى، فالإنسان يمكن أنْ يهدم دينه بكلمة.

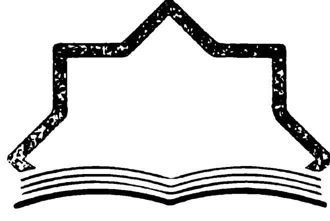
ثالثاً: قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾، استفهام مقدَّر على سبيل الإنكار، والمعنى: أتتخذون أيمانكم دخلاً بينكم بسبب أنّ جماعة أزيد في القوة والكثرة من جماعة أخرى.

رابعاً: قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾، القوة: إحكام الغزل، أي نقضته معَ كونِهِ محكمَ الفتلِ لا موجب لنقضه، فإنه لو كان فتله غير محكم لكان لها عذرٌ في نقضه.

خامساً: قوله: ﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾، توكيد بالقصر بـ: (إنّما) وهو قصر موصوف على صفة. والتقدير: ما ذلك الربو إلا بلوى لكم.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل الثاني والعشرون
مَثَلُ قصر الحياة الدنيا وسرعة زوالها

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

❖ **شرح المفردات:**

(هشيماً): يابساً متفرقة أجزاؤه.

(تذروه الرياح): أي تنثره وتفرّقه لخفته ويبوسته.

(مقتدراً): أي كامل القدرة المطلقة لا يعجزه شيء.

التدبر في المثل

بعد أنْ ذكر الله تعالى الحوارَ بين صاحب الجنتين الذي تكبَّرَ على المؤمن، وجحد نعمةَ الله عليه، ضرب الله ﷻ مثلاً لحقارة الدنيا وقلَّة بقائها، والتي اغترَّ بها الناسُ وخدعتهم، فصرفتهم عن الله تعالى، فانشغلوا بها عن الآخرة.

قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾، أي: بيِّنْ لأولئك المتكبرين المغرورين بالمال والسلطان والجاه، المنخدعين بزهرة الدنيا، ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، بيِّنْ لهم أمر الدنيا وحقيقتها، وما يُشبهها من واقعهم في زَهْرتها ونَضارتها وسرعةِ زوالها وذهابها وخرابها، وتقلُّب أحوالها

بأهلها؛ لئلا يطمئنوا بها، ويركنوا إليها، ويتبيّنوا أمرها وحقيقتها، بـ ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾، نزل الماء من جهات السماء فخرج الزرعُ فزها وازدهر واخْضرَّ وأنضَرَ وأينَعَ، فأَعْجَبَ أصحابهُ، وأفرحهم، وسرّهم ما يأملون منه، وهذا المعنى محذوفٌ من سياق الكلام اقتضتْهُ (الفاء الفصيحة) في (أصبح)، والمعنى: أنه لَمّا كانت خضرةُ الزرع بعد نزول المطر قليلة جداً لم تذكر أصلاً؛ لِيُبينَ لك سرعةَ انقضاء الدنيا وزوالها كسرعة ذهاب الخضرة بعد نزول المطر.

وفجأة بلا مهلة ولا سابق إنذار أو طول زمان أتى على هذا الزرع المخضرِّ أمر الله برياح لاحقة عاتية محرقة، ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ أي يابساً متهشّماً متكسراً، و(الفاء الفصيحة) في (أصبح) للتعقيب والفورية، أي: لم يُمَتّع أصحاب الحياة طويلاً بزينة الدنيا وزهرتها وجمالها، ولكنهم انخدعوا بها، فسُلِبت منهم أعمارهم، وضاعت أوقاتُهم، وذهبت قوتُهم، وفني شبابهم، وهم في غفلة عن الدار الآخرة، وهذا حالُ كثير من الناس لا يشعر إلا وهو قد بلغ الخمسين أو الستين، وقد ذكر الله هذا، فقال الله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥].

ثم قال تعالى: ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾، تنسفه وتنشره وتفرّقه هنا وهناك، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾، قادراً كاملَ القدرةِ على الحال التي تقدمت وعلى غيرها من الإيجاد والإفناء، كما أحيا الأرض بالمطر فهو قادر على إزالتها.

كذلك هذه الدنيا، بينما شابٌّ أُعجِبَ بشبابه، وغنيّ أُعجِب بماله وأولاده، وصاحب منصبٍ اغترّ بمنصبه، وافتخر فيه على أقرانه وأصحابه، وحصلت له الأموال والمكرمات، وصاحب باطل خاض في اللذات والشَّهوات في جميع أوقاته، واعتدى على الفقراء والضعفاء، وظنّ أنه لا يزال فيها سائر أيامه، إذ أصابه الموتُ أو التلف، فذهب عنه سروره،

وزالت لذتُهُ وحبورُهُ، واستوحش قلبُهُ من الآلام، وفارق شبابه وقوته وماله، ولم يبقَ له إلا عملُهُ، هنالك يعضُّ الظالم على يديه، حين يعلم حقيقةَ ما هو عليه من الخديعة والغرور، ويتمنى العودَ إلى الدنيا، لا ليستكمل الشَّهوات واللذات، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات وَفَاتَ، بالتوبة النصوح، والأعمال الصَّالحات، وإقامة الصلوات، والتضرع في الخلوات.

(فشبَّه الله تعالى قلة بقاء الدنيا بقلة بقاء الخضرة بعد نزول المطر، ولم يذكر الله الخضرة في سياق الآية لقلّتها وهوانها، فهي لا تستحق أنْ تُذكر)، إذا كانت الدنيا بطولها وعرضها قصيرة فما بالك بقصر حياة الإنسان في هذه الدنيا القصيرة؟.

فالحياةُ الدنيا متعةٌ قليلة قصيرة كخضرة الزرع تُعجب الناظرين، وتسرُّ المتفرجين، ثم لا تلبث أنْ تفنى وتنطفئ، فلا تنخدع بها، قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]. فحريٌّ بالإنسان أنْ لا يتعلَّق بها ولا يعظّمها؛ لأنّ الله هوَّن الدنيا وحقّرها، فيجب على المؤمن أنْ يُحقّر ما حقّر الله، ويُعظّم ما عظّم الله وهي الدار الآخرة.

قال القرطبي: قالت الحكماء: إنّما شبَّهَ تعالى الدنيا بالماء؛ لأنّ الماء لا يستقِرُّ في موضع، كذلك الدنيا لا تبقي على واحد، ولأنّ الماء لا يستقيمُ على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأنّ الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، ولأنّ الماء لا يقدر أحد أنْ يدخله ولا يبتل، كذلك الدنيا لا يسلم أحدٌ دخلها من فتنتها وآفتها، ولأنّ الماء إذا كان بقدر كان نافعاً منبتاً، وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع، وفضولها يضرّ.

ولَمّا بيّن تعالى أنّ الدنيا سريعة الانقراض والزوال، بيّنَ أنّ المال

والبنين زينة الحياة الدنيا في عُرف الناس، وكل ما كان من زينة الدنيا فهو سريع الانقضاء والانقراض، فيقبُح بالعاقل الافتخار والخُيلاء به أو الفرح المفرط بسببه.

ثمّ ذكر الله تعالى أنّ الأعمال الصَّالحة من العبادات والتكبير والتهليل والتسبيح والتحميد وغيرها هي التي تبقى وتنفع ولا تفنى، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

العبرة من المثل

بيانُ حقارة الدنيا، وقلَّة بقائها، وسوء عاقبتها، فالإقبال عليها، والاغترار بها وضعف الإيمان وقلة العلم وتقادم الزَّمان وكثرة الباطل؛ هو الذي صرف الناسَ عن الآخرة، فعمرُ الإنسان بها أشبه بالنبات الذي اختلط به نبات الأرض وأصبح هشيماً تذروه الرياح، قصير جداً أقصر مِمَّا يتصور الناس، فالإنسانُ في هذه الحياة يمدّد آماله، وقد قَرُبَ، وأوشك إلى القبر اعتقاله، ومن الدنيا انتقاله، والقدوم على ما قدَّم من أعماله، فحريّ به أنْ يُعْمِلَ عقله، ويصرف همّه إلى الآخرة، ويعرف أنّ الدنيا قصيرة أيامُها، حقيرة آمالُها وتطلعاتها، لا يكاد يتمتع بها حيٌّ حتى يُدركه العفن أو الموت، فيوقفه أمام الله يحاسبه عن أعماله، فإما إلى جنّة أو نار.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: قوله: ﴿فَأَصْبَحَ﴾، أي: صار، ولا يراد تقييدُ الخبر في وقت الصباح. ويرد الفعل (أصبح) كثيراً بمعنى (صار)، كقوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، أي: صرتم.

الثانية: قوله: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾، هذه (الفاء) في (أصبح) عملها التعقيب والفورية في ما دخلت عليه، ومعناها الفصيحة، أي: التي تقتضي محذوفاً

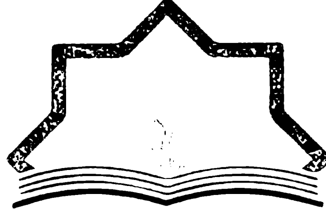
يحتاجه السياق ولتمام المعنى، والمعنى: نزل المطرُ فاخضر الزرع وأورق وأثمر فأُعجِب الناسُ به ثُمّ يبس وصار هشيماً. ولكن لما كان وقت اخضرار الزرع قليلاً جداً لم يُذكر وكأنه غير موجود أصلاً. ولقد ذكر الله هذا المعنى في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٦].

ذكر أطوار خلق الإنسان ثم مباشرة ذكر موته، ولم يُشر إلى ذكر الحياة الدنيا، ليقول لك: الدنيا سريعة الانقضاء فلا تهتم بها ولا تحفل لأجل نوالها، واعمل للآخرة فهي خير وأبقى.

الثالثة: قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾، الفعل (كان) زمنه الماضي، ولكن مع الله سبحانه يتلاشى الزمن، فالله تعالى مقتدرٌ في الماضي والحاضر والمستقبل.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل الثالث والعشرون
خطورة الشِّرك، وبُعْدُ المشركِ عن الهُدَى

قال تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

❖ **شرح المفردات:**

(حنفاء لله): موحِّدين لله، مخلصين له في العبادة، مائلين عن كلّ دِيْنٍ إلى الإسلام.

(خرَّ من السماء): سقط من السماء الدنيا.

(فتخطفه الطير): تأخذه بسرعة.

(سَحِيق): بعيد، لا يُرجى إيجاده.

التدبر في المثل

بعد أنْ نهى الله تعالى عباده عن الشِّرك والكفر وعبادة الأوثان والأنداد، وقول الزُّور مِن الكذب والباطل وشهادة الزُّور، بقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، أمرهم بالتّوحيد والإخلاص، ونَبْذ الشِّرك، فقال: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾، أي: كُونوا موحدين لله تعالى في ربوبيته وألوهيته وصفاته في كلّ حال، مائلين عن كلّ الأديان إلى دينه الإسلام. ثم أكّدَ على التّوحيد فقال: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ﴾،

غير مشركين به أيَّ شيءٍ، لا شركاً كبيراً ولا صغيراً ولا خفياً، أي: لا تطلبوا من غير الله لا من نبيٍّ، ولا من وليٍّ قضاء الحاجات وتفريج الكربات. ثم ضَرَب تعالى مثلاً للمشرك في ضلاله وهلاكه واضطرابه وخسرانه وبُعْدِهِ عن الهدى والإيمان، فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾، أي: ومَن يجعل مع اللهِ إلهاً آخر يدعوه مع الله، ويصرف له بعضَ العبادات، ويستغيث به، ويستعين به، وينذر له، كأنْ يقول: يا فلان اقضِ حاجتي، يا فلان الولي الصَّالح اشفِ مريضي، فهذا حاله ومثاله، ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فحاله في بُعْدِهِ عن الخير والهدى وخسرانه وهلاكه وضلاله وعدم إجابة دعائه، كحال مَن رُفِعَ إلى السماء الدنيا، ثم سَقَطَ منها بقوة إلى الأرض باختياره.

﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أي: في طريق سقوطه تخطفه الطير بعنفٍ وشدة، وتأخذه بسرعة فتمزقه وتُقطعه وهو لا زال في طريق سقوطه، كما تفعل الصقور والنسور والجوارح بصغار الطيور.

﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فإذا لم تخطفه جوارح الطيور تعصف به الريح بعيداً، فلا يُعثر عليه أبداً، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]. فإنْ سَلِمَ من الجوارح لم يسلم من الريح العاصف، ولو لم تخطفه الطير أو تهوي به الريح، لَسقط على الأرض، ولَتحطمتْ عظامُهُ وتناثرتْ أعضاؤه.

فهذا حالُ المشرك. فتصور كمية الرعب والهلع والتشرذم التي يعيشها المشرك حال سقوطه، إمّا أنْ تخطفه الطير فتمزقه وتأكله ويتفرق بينها، أو تعصف به الريح إلى وادٍ سحيق فتأكله الوحوش فلا يُعثر عليه بعدها، أو يسقط على الأرض فيكون حطاماً، فهو خاسرٌ هالكٌ بكلِّ الأحوال، وهذا تيئيسٌ للمشرك من النجاة بأيّ حال من الأحوال يوم القيامة.

هذا شأنُ مَن يشرك بالله تعالى فيعبد معه غيره، بعد أنْ كان في سماء التّوحيد والإخلاص مع الملائكة بسلامة فطرته وطيب نفْسِهِ، فانتكس في مستنقع الشِّرك وأوحال الكفر وأحضان الشياطين، فمَن أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس وراءه إهلاك.

فشبَّه الله (الموحد صاحب الإيمان والإخلاص) بـ: المرتفع إلى السماء عالياً بتوحيده لله، وهذه عظمة التّوحيد وحسنتها التي لا تعلو عليها حسنة. وشبَّه المشرك (الذي يطلب من غير الله قضاء الحاجات، ويستغيث بفلان، ويستعين بعلّان من الأولياء والصَّالحين) بـ: الساقط إلى غياهب الأرض ومهالكها. وشبَّه (الشِّرك والكفر والشَّهوات والشُّبهات والشياطين ودعاة الضَّلالة) بـ: الطير التي تخطف الإنسان فتمزقه، أو الريح التي تتلاعب به، ثم تهوي به في مكان سحيق وهو جهنم. فالفرقُ ما بين الموحد والمشرك كالفرق بين السماء والأرض، والجنة والنار، فالتّوحيدُ سموّ ورقي ورفعة، والشِّرك تسفلٌ وتخلّف ودناءة.

قال السمين الحلبي في «الدر المصون»: فقد شُبِّه الإيمان في علوّه بـ (السماء)، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله، بـ: (الساقط من السماء)، والأهواء التي تتوزَّع أفكاره بـ: (الطير المتخطفة)، والشيطان الذي يطوحُ به في وادي الضَّلالة بـ: (الريح التي تهوي بما عصفتْ به في بعض المهاوي المتلفة).

فبعد أنْ نهى سبحانه عن الشِّرك، وضرب له مثلاً فظيعاً، وحقَّر صاحبه، أمر بتعظيم الشعائر والعبادات التي أوجبها على عباده وأعظمها التّوحيد، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

العبرة من المثل

يجب تعلّم التّوحيد والحرص عليه؛ لأنه هو الذي تُبنى عليه الأعمال،

وهو الفاصلُ بين المسلمين والكافرين، وهو مفتاحُ الجنّة. فالتّوحيد أكبر معروف، وأعظم حسنة يتعبّد بها المسلم لربه؛ فما أرسل الله الرُّسُل ولا أنزل الكُتُب إلا لأجله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وما خلق الله سبحانه الثقلين الجنّ والإنس إلا لأجل أنْ يُعبد بالتّوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالتّوحيدُ شرطُ قَبول العمل ودخول الجنّة.

أما الشِّركُ فهو أكبر ذنب، وأعظم معصية عُصي الله بها، وأظلم الظلم، وهو منافٍ للتوحيد تماماً، وهو محبطٌ للأعمال ماحقٌ لها، ومحرقها ومتلِفها، وجاعلها هباء منثوراً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وصاحب الشِّرك إنْ مات على شركه ولم يتب منه فهو مخلَّد في النار، لا يغفر الله له، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]. فتعلَّم التّوحيد لتنجو به، وتعلَّم الشِّرك لتنجو منه.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: قوله: ﴿حُنَفَآءَ﴾، حالٌ من فاعل (فَاجْتَنِبُوا)، وكذلك (غَيْرَ مُشْرِكِينَ) «غير» وهي حالٌ ثانية مؤكّدة، إذ يلزم من كونهم حنفاء عدم الإشراك.

الثانية: قوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾، (مَن) اسم شرطٍ يفيد العموم، يأتي للمفرد والمثنّى والجمع، والذكر والأنثى، ويشملُ الجميعَ بلا استثناء ولا مجاملة، كلّ مَن يشرك بالله، وعبّر بالمضارع (يُشرك) أي: مستمرّ في شركه ولم يتب منه حتى مات عليه. أمّا مَن تاب إلى الله فقد تاب الله عليه.

الثالثة: قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الأصلُ أنْ الله خلق الناسَ موحدين على الفطرة، وبيّن لهم، فمَن اختار الشِّرك فهو الذي أراد السقوط من السماء في نار جهنم، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

الرابعة: قوله: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾، الخطفُ: الاختلاسُ بسرعة، في قراءة نافع وأبي جعفر (فَتَخَطَّفُهُ) بفتح الخاء وتشديد الطاء، وفيها القوة والمبالغة في الخطف، بحيث من سرعة الخطف وشدته لا يتسنّى له عملُ شيء إلا الاستسلام، وجاء به بصيغة المضارع لتصوير هذه الحالة الهائلة التي وقع فيها المشرك كأنها حاضرة مشاهدة. و(ال) في (الطير) للجنس أي جنس الطيور الجوارح، ولا يُراد به المفرد. أو للعهد أي الطيور المعهودة عند العرب، التي من شأنها الخطف كالصُّقور.

الخامسة: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ فلا يستولي طائرٌ على قطعة منه إلا انتهبها منه آخر، فكذلك المشركُ متى تسنَّى له مصلحة أو هوى عند آخر، ترك الأول وما كان عليه وذهب إلى الآخر. وفيها معنى آخر أنّ الطير التي تخطف الإنسانَ حتماً تأكله ويتوزّع في جسمها، كذلك فكر المشرك وقلبه وعمله منتشر ومتفرق في مجموعة أهواء وشهوات ونزوات لا يتخلّص منها.

السادسة: المثل يصورُ حالة الذُّل والرعب والتمزق والاضطراب والحيرة التي يعيشها المشركُ في الدنيا والآخرة، إذ تختطفه الشياطين، وتتلاعب به الأهواء والأفكار.

السابعة: من مفهوم المخالفة للمثل يتبيّن لك أنّ التّوحيدَ طمأنينةٌ وسلامة وهناء وسمو ورفعة وشرف ونعيم وسعة وكرامة؛ لأنه شبهه بالسماء في سعتها وصفائها ونقائها وجمالها وقوتها.

الثامنة: المثل يعطي إشارةً إلى تمزق أعمال المشرك الصَّالحة التي

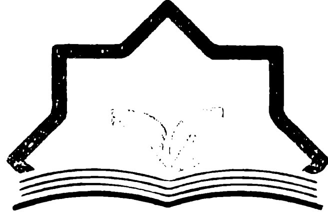
عملها في الدنيا كما تمزق الطيورُ الفريسةَ، فإذا كان المشركُ هو نفسه قد مزقته الطير فمِن باب أولى أنّ أعماله ممزقة، لا فائدة منها.

التاسعة: المثل فيه إشارةٌ أنّ المشركَ يوم القيامة لا يملك لنفسه شيئاً، كمثل الذي يسقطُ من السماء لا يملك لنفسه شيئاً، فهو مستسلمٌ تماماً لِمَا يُلاقيه، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٦].

العاشرة: المثلُ ليس تشبيهاً وتصويراً يقرب المعنى، بل هو على حقيقته، فإنّ روح المشرك تُطرَح من السماء بعد موتها وصعودها إلى السماء، قال رسول الله ﷺ: «**وَأَمَّا الْعَبْدُ الْكَافِرُ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ وَمَعَهُمُ الْمُسُوحُ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَأْتِيهِ مَلَكُ الْمَوْتِ فَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطِ اللهِ وَغَضَبِهِ**». قَالَ: «**فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا، وَمَعَهَا الْعَصَبُ وَالْعُرُوقُ كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُونَهَا فَيَجْعَلُونَهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ**». قَالَ: «**وَيَخْرُجُ مِنْهَا أَنْتَنُ مِنْ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٤٠] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ قَالَ: فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَى، وَأَعِيدُوه إِلَى الْأَرْضِ فَإِنَّا مِنْهَا خَلَقْنَاهُمْ، وَفِيهَا نُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا نُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. قَالَ: فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحاً، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] الْآيَةَ، ثُمَّ تُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ**

لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً مِنَ النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ». قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. قَالَ: فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْه الَّذِي يَجِي بِالشَّرِّ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ» [أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ١٨٥٥٧].

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.



المثل الرابع والعشرون
ضعف الداعي والمدعو من دون الله

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

❖ **شرح المفردات:**

(ضُرِبَ مثل): أي: جُعِلَ مثل، يعني أنّ الكفار جعلوا لله مثلاً بعبادتهم غيره، فكأنه قال: جعلوا لي شبهاً في عبادتي فاستمعوا خبر هذا الشَّبه.

(تدعون من دون الله): الدعاء هو العبادة، أي: تعبدون من دون الله.

(لن يخلقوا ذباباً): لن يستطيعوا خَلْقَ ذبابة حقيقية تأكل وتتكاثر.

(ولو اجتمعوا): على خلقه فإنهم لا يقدرون، فكيف إذا لم يتجمَّعوا فهم أعجز.

(لا يستنقذوه منه): لا يستردّوه منه؛ وذلك لعجزهم.

(يسلب): السلب: اختطافُ الشيء بسرعة.

(ضَعُفَ الطالب والمطلوب): ضَعُفَ العابد والمعبود من دون الله.

❖ **تمهيد:**

بعد أنْ بيّنَ الله تعالى أنه العليم بكل شيء، وأنه الواحد الأحد الفرد

الصَّمد، بيّن أنّ عبادة المشركين لغير الله تعالى لا تعتمدُ على دليل نقلي أو عقلي، وهم مع جهلهم وغباوتهم وسخافة عقولهم إذا أُرشِدوا إلى الحق ودليله، وتُلِي عليهم القرآن، ظهر في وجوههم الغيظُ والغضب، وهمّوا أنْ يبطشوا بمَن يتلو عليهم ويذكّرهم، ولمّا بيّنَ أنهم يعبدون من دون الله مالا حُجَّة لهم فيه ولا علم، وإنما هو تقليدٌ تلقّوه عن آبائهم الضالين، ذكر ما يدلّ على إبطال قولهم وجهلهم بعظمة الإله، وضرب لهم المثل لذلك.

التدبر في المثل

مثلٌ عظيمٌ ضربه الله لقبح الشِّرك وعبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول مَن عبدها، وضعف العابد والمعبود من دونه سبحانه، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هذا خطابٌ للمؤمنين والكفار، المؤمنون يزدادون علماً وبصيرة بالتّوحيد وما هم عليه من الإيمان، والكافرون تقومُ عليهم الحجَّة.

﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ موجزٌ واضحٌ بيّنٌ، ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ أَمَرَ بالاستماع له؛ لأنه مثل عظيم في غاية البيان والوضوح، أي: ألقوا إليه أسماعكم، وتفهّموا وتدبّروا ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلوباً لاهية، وأسماعاً معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع، فإنَّ الاستماعَ بلا تدبر وتعقّل لا ينفع، وهو هذا المثل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، (إنّ) حرف توكيد يؤكّد لهم، وهذا يشملُ كلّ ما يُدعى من دون الله من الأوثان والأحجار والأشجار والأموات والغائبين وغيرهم، ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسّها، فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف، فما فوقه من باب أولى عاجزون عن خلقه، إذاً فالمتبادرُ للذهن السُّؤال: علامَ تطلبون منهم وتدعونهم إذا كانوا بهذا الضعف والعجز؟.

وكذلك العلماء المعاصرون مع ما معهم من تقنية ومختبرات وقدرات

لا يستطيعون ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ واتحدوا متعاونين على خَلْقه، بل أبلغ من ذلك لو ﴿يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، وإنْ يسلب الذبابُ الحقير شيئاً من آلهتكم التي تعظمونها وتعبدونها من دون الله، أو يسلب شيئاً من طعامكم وأرزاقكم لا تستطيعُ آلهتكم ومعبوداتكم التي تدعونها من دون الله أيّاً كانتْ أنْ تستردَّه منه لكمال عجزها وفرط ضعفها، فما أضعفها إذا كان الذباب أقدر منها! وهذا غايةُ العجز.

ثم يُبيّن لك سُبحانه حقيقةَ العابدِ لغيره بقوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾، ضَعُفَ العابد، وبَئِسَ الداعي المستغيث بغير الله، فكان أولى به وأجدر أنْ يتعلَّق بالقوي العزيز، ثم بيَّن لك سبحانه عَجْزَ كلِّ مَن عُبِدَ مِن دونه بقوله: ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ المعبود بالباطل حتماً مِن دون الله، من الأوثان والأموات والقبور، فكلّ منهما ضعيف، وأضعف منهما من يتعلَّق بهذا الضَّعيف، وينزّله منزلةَ ربّ العالمين.

وفي قوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾، فيه إشارةٌ إلى أنّ اللهَ يعجبُ من هؤلاء المشركين كيف يعبدون أوثاناً وأمواتاً فيها العجز والضعف من كلّ وجه لا ينفعون ولا يضرون، ويتركون اللهَ القوي العزيز؟ فلمّا بيّنَ سبحانه ضعفَ العابد والمعبود من دونه، ذكر سبحانه في الآية التي بعد المثل، أنّ الله سبحانه هو القويّ العزيز الغالب المستحقّ للعبادة والتعظيم والدعاء، قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤]. ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره، وهو القوي القادر على كلّ شيء، العزيز الغالب لا يمانَعُ في أمرٍ يريده، فكيف ساغ للمشركين أنْ يؤلِّهوا غيره، ويعبدوه معه، ويجعلوه له مثلاً؟!

العبرة من المثل

التفكر والتدبّر في كتاب الله، وتعظيمه سبحانه، ومعرفة قدره،

وتوحيده، والتعلُّق به، ومعرفة حقارة الشِّرك والأوثان وضعفها وعجزها وضعف عقول عابديها، والعاكفين عندها، والطالبين منها.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: قوله: ﴿ضُرِبَ﴾، بُنِي الفعل «ضُرب» بصيغة المجهول، فلم يذكر له فاعل بعكس ما في المواضع الأخرى التي صرّح فيها بالفاعل؛ وذلك تنبيهٌ للسامعين بأنْ يتهيؤوا لتلقي هذا المثل، لِمّا هو معروف لدى البلغاء من استشرافهم للأمثال ومواقعها، فعبّر عن بيان ذلك بلفظ الماضي لتحقق وُقُوعه.

الثانية: قوله: ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾، الاستماعُ غير السماع، فزيادة المبنَى تدلُّ على زيادة المعنى، فالاستماع يعني عن فهم وتدبر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. والسماع، أي: مجرد سماع بلا تعقل.

الثالثة: أداة النفي (لن) لنفي المستقبل على التأبيد كما دل السياق هنا، فإنها مفيدة لنفي مؤكّد فتدلّ على منافاةٍ بينَ المنفي وهو الخلق والمنفي عنه، وهو المعبودات الباطلة، فتفيد عدمَ قدرتها عليه تماماً في المستقبل، ولأنَّ نفيَ أنْ تخلق في المستقبل يقتضي نفي ذلك في الماضي بالأحرى؛ لأنّ الذي يفعل شيئاً يكون فعلُهُ من بعدُ أيسر عليه.

الرابعة: (لو)، هنا بمعنى وصلية، وليست الامتناعية، أي: أنها لمجرد الوصل والربط في مقام التأكيد، وحرف (لو) يفيد الشَّرط، وحُذِفَ جوابه لدلالة ما قبله عليه، والجوابُ محذوفٌ، وتقديرُ الكلام: ولو اجتمعوا له لن يخلقوه على كلّ حال.

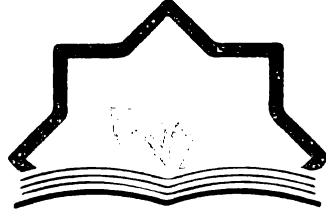
الخامسة: قوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾، وهذه تسويةٌ بين

المشركين والذباب في الضعف، ولو حققت لوجدتَ الطالب أضعف من المطلوب، فإنّ الذبابَ حشرة، وهو غالب وذلك مغلوب مسلوب.

السادسة: تخصيصه الذباب في المثل، «لمهانته، وضعفه، واستقذاره، وكثرته». فكلّ الناس يعرفون الذباب، وهذا من أبلغ ما أُنزِل في تجهيل المشركين.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل الخامس والعشرون
مَثَلُ نور الله في قلب المؤمن

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

❖ **شرح المفردات:**

(الله نور السموات والأرض): أي منوّرهما، فلولاه لما كان نور في السموات ولا في الأرض. وقيل: هادي أهل السموات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون.

(مثل نوره): أي صفة نوره العجيبة الشأن في قلب المؤمن كَمِشْكاةٍ.

(المشكاة): عبارة عن تجويف في الحائط غير نافذ.

(كوكب دري): أي مضيء إضاءة الدرّ الوهّاج.

(لا شرقية ولا غربية): في مكان متوسّط.

(نور على نور): نور النار على نور الزيت.

(يهدي الله لنوره): أي للإيمان به والعمل بطاعته من يشاء له ذلك لعلمه برغبته، وصدق نيته.

(ويضرب الله الأمثال): ويجعل الله الأمثالَ للناس من أجل أنْ يفهموا عنه، ويعقلوا ما يدعوهم إليه.

التدبر في المثل

بعد أنْ بيّن سبحانه الشرائعَ والأحكامَ الجزئية العملية كأحكام الفقه والأخلاق والآداب في الآيات السابقة، انتقل البيانُ الرباني إلى دائرة العقيدة والإيمان، فضرب لها مثلاً قاطعاً على وحدانيته سبحانه، فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الله منوّر العالم كله وهاديه بما أقام فيه من أدلة في الكون على توحيده، وبما أنزل على رُسُلِهِ من الآيات البينات الواضحات؛ وذلك أنه تعالى من صفاته النُّور، والنُّور الذي جعله سبحانه في العالَم على قسمين:

الأول: نُور معنويٌّ، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رُسُله وعباده المؤمنين نور، والحق والعلم والعدل نور، كما نقول ولله المثل الأعلى: فلان نوَّر البيت.

الثاني، نور حسيّ، نور الشمس والقمر والنجوم والكون كله، استنار بنور الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]. ثم أراد سبحانه أنْ يُبيّن مثل نوره في قلب المؤمن، فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ مثل نوره سبحانه الذي نوَّر به السموات والأرض جعل مثله في قلوب المؤمنين وهو نورُ الإيمان والقرآن؛ لأنّ الله سمَّى القرآنَ نوراً، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]. فالمؤمن يمشي بنور القرآنِ بين ظُلمات العالَمينَ، فصفة نور الله في قلب المؤمن: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾، والمشكاة فجوةٌ في الحائط غير نافذة يضعون فيها المصباح، ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾؛ المصباح: الفتيلة المشتعلة، يوضع في المشكاة؛ لأنّ الكوة تجمعُ نور المصباح بحيث لا يتفرق، و﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾، المصباح في قنديل من الزجاج الصافي

الأزهر، ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾، الزجاجة من صفائها وبهائها تُضيء وتتلألأ مثل الدُّر، ﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح؛ الذي في تلك الزجاجة الدرية ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي: يُوقد من زيت الزيتون الذي ناره من أحسن ما يكون، ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمسُ آخرَ النهار، ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس أول النهار، وإذا انتفى عنها الأمران، كانت متوسطة من الأرض، كزيتون الشام، تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب، ويكون أصفى لزيتها، ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ من صفائه وجودته، ﴿يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، من تلقاء نفسه؛ وذلك لنقائه ولمعانه، فإذا مسَّته النار أضاء إضاءة كبيرة، ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: نور النار، ونور الزيت.

فـ(شبَّه الله نوره الذي وضعه في قلب عبده المؤمن بـ: المصباح الوهّاج في كوة داخل زجاجة، تشبه الكوكب الدري في الصفاء والحسن، ووقود المصباح ومداده القرآن).

قال القاسمي في «محاسن التأويل»: (المشكاة) صدر المؤمن، و(الزجاجة) قلبه، و(المصباح) هو نورُ الإيمان في قلبه، و(الشجرة المباركة) هي شجرةُ الوحي المتضمِّنة للهُدَى ودين الحق، وهي مادةُ المصباح التي يتّقد منها، و(النور على النور)، نور الفطرة الصَّحيحة، والإدراك الصَّحيح، ونور الوحي والكتاب، فينضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد العبدُ نوراً على نور. ولهذا يكاد ينطقُ بالحق والحكمة، قبل أنْ يسمع ما فيه بالأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به، فيتفق عنده شاهدُ العقل والشَّرع والفطرة والوحي، فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول ﷺ وهو الحق، فلا يتعارضُ عنده العقل والنقل البتة، بل يتصادقان ويتوافقان، فهذا علامةُ النور على النور.

وقال السَّعدي: ووجهُ هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أنّ فطرته التي فُطِرَ عليها، بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدَّة للتعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعالِ النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءةً عظيمةً، لصفائه من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاجة الدُّرِّية، فيجتمع له نورُ الفطرة، ونورُ الإيمان، ونورُ العلم، وصفاءُ المعرفة، نور على نوره.

ولمّا كان هذا من نور الله تعالى، وليس كلُّ أحد يصلحُ له ذلك، قال: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ يهدي للإيمان والقرآن ممَّن يعلم زكاءه وطهارته، وأنه يزكو معه وينمو، ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ الأشباه والنظائر ليعقلوا عنه ويفهموا، لطفاً منه بهم، وإحساناً إليهم، وليتَّضح الحق من الباطل، فإن الأمثالَ تقربُ المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العباد علماً واضحاً، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، فعلمه محيطٌ بجميع الأشياء، فلتعلموا أنّ ضربه الأمثال، ضرب من يعلم حقائق الأشياء وتفاصيلها، وأنها مصلحةٌ للعباد، فليكنِ اشتغالكم بتدبرها وتعقلها، لا بالاعتراض عليها، ولا بمعارضتها، فإنه يعلم وأنتم لا تعلمون.

الخلاصة من المثل: إنّ الله مثَّلَ لنوره في قلب المؤمن بالمصباح، ولا يُضيء المصباح من غير وَقُود، وهذا الوقود هو القرآن، كذلك القلب لا يُضيء ولا يبصر من غير قرآن، فالقرآن وقود القلب ومداده.

فإذا كان الزيت في المصباح صافياً كانت الإضاءةُ جيدة صافية، وإذا كان الزيتُ رديئاً كانت الإضاءةُ رديئة، وإذا انقطع الزيتُ عن المصباح، انطفأ تماماً. كذلك إذا كان أَخْذُ القرآنِ صافياً جيداً بتدبر يتبعه العمل أضاء

القلبُ إضاءة صافية جيدة، وإذا كان أَخْذُ القرآنِ رديئاً بلا تدبر أضاء القلب إضاءة رديئة، وإذا انقطع القرآنُ عن القلب انطفأ القلب تماماً، وأصبح مأوى للشياطين والشِّرك والبدع والفتن والفساد.

القرآنُ هو نورُ القلوب الذي يحيَا به المؤمن بين الناس ويُضيء له الطريق، ويكون هذا النور في القلوب على قدر القرآن تلاوةً وفهماً وتدبراً وتعظيماً وعملاً. كلّما كثُر القرآن في القلب زاد النور حتى يظهر على وجهه وجوارحه وفي حياته، وكلّما قلّ القرآن قلّ النور، فإذا انعدم القرآن من قلب الإنسان انعدم نوره، وأظلم قلبه تماماً فصار جسداً بلا روح يمشي بين الناس، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالمسلم إذا ملأ قلبَهُ بالغناء والشُّبهات والبدع والشَّهوات والأهواء لم يبقَ مكان للقرآن، فالقرآن عزيزٌ شريف لا يبقى في مكان فيه دنسٌ وقذرٌ، فعلى المسلم أنْ يختار إما الدنيا وإما الآخرة، قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ١٩]. فالدنيا والآخرة، والحق والباطل، والقرآن والغناء والشَّهوات، لا يجتمعْنَ في قلب واحد، فإذا حاول أنْ يجمعَ بينهم صار قلبه مضطرباً متردّداً متحيراً، ليس له قرار.

ولمّا كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه وتحصيله في المساجد، ذكرها منوّهاً بها فقال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٧].

العبرة من المثل

«كِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ

الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

خلق الله جسد الإنسان من التراب ولا يُغَذِّيه إلا ما خرج من التراب من طعام ونبات وأشجار وما خُلِق من التراب كالأنعام؛ لذلك إذا مات الإنسان رجع الجسد إلى التراب إلى أصله الذي خُلِق منه. أما الروح فقد أنزلها الله من السماء فلا يُغَذِّيها وينعشها إلا ما نزل من السماء وهو القرآن، وإذا مات الإنسان رجعت إلى السماء، إلى مكانها الذي نزلت منه، فعليك بغذاء الروح والقلب المناسب وهو القرآن، وإلا بقِيت الروح في جوع وعطش، والقلب في ضيق وتعب. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

مَن أراد نوراً في قلبه يمشي به بين الناس آمناً من جَهْلهم وجهتهم وشركهم وبدعهم، وينجو من الضَّلالات والظُّلمات؛ فعليه أنْ يتعلَّق بالقرآن تلاوة وتدبراً وعملاً، ومَن أراد نوراً يمشي به على الصِّراط إلى جنات النعيم فعليه أنْ يتعلَّق بالقرآن.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: (نُور) من إطلاق المصدر على اسم الفاعل للمبالغة، أي: أنار فهو منوّر كلّ شيء، كأنه عين نوره. ومن فسّر ذلك بأنه هادي أهل السموات والأرض ببراهينه وبيانه، فهو استعارة.

الثانية: عبّر عن المنوّر بالنور، تنبيهاً على قوة التنوير وشدة التأثير، وإيذاناً بأنه تعالى ظاهر بذاته، وكل ما سواه ظاهر بإظهاره، كما أنّ النور نيّر بذاته وما عداه مستنيرٌ به.

الثالثة: الوَقُود مداد المصباح، متى ما انقطع الوَقود انطفأ المصباح، ومصباح المسلم قلبه، ومداده القرآن، فمتى ما انقطع القرآنُ عن القلب انطفأ القلب.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل السادس والعشرون، والسابع والعشرون
مَثَلُ أعمال الكفار في الدنيا، ومصيرها في الآخرة

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩ ـ ٤٠].

❖ **شرح المفردات:**

(كسراب بقيعة): السَّراب: شعاع أبيض كأنه ماء، يُرى في منتصف النهار في وقت الحرِّ في الأماكن المستوية، والقيعة: جمع قاع، وهو ما انبسط من الأرض لا شجر فيها ولا نبات.

(الظمآن): العطشان.

(بحر لجيّ): أي ذو لجج، واللجَّة: غزارة في الماء كما هي الحال في المحيطات. والمقصود: بحر عميق ذو طبقات.

(يغشاه موج): يعلوه ويغطيه موج فوق موج.

التدبر في المثل

لَمّا بيّنَ تعالى حالَ أهل المساجد من المؤمنين في الآية السابقة، وضرب لهم مثلاً، وأنهم في الدنيا يحيون بنور اللّه، وأنه تعالى وفّاهم

أجرهم بأحسن مِمَّا كانوا يعملون، وزادهم من فضله. ذكر هنا حالَ الكافرين، وأنهم في الدنيا في أعظم أنواع الظُّلمات، وفي الآخرة في أشد أنواع الخُسران، وبيّنَ مصير أعمالهم، وضرب لهم مثلينِ لذلك:

فقال في الأول: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بربهم، وكذبوا رُسُلَهُ، ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ مَثَلُ أعمالِهم التي هي من أبواب البرِّ والخير كصِلة الأرحام والتبرعات والصَّدقات وإطعام المساكين وكفالة الأيتام وإغاثة الملهوفين وبناء المدارس والمستشفيات، والاختراعات، هذه الأعمالُ وغيرها من الأعمال التي يحسبونها تنفعهم.

إذا جاء الكفارُ يوم القيامة كان مثلها ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ أي: كسرابٍ مُوهم يخدع الناظرين في أرض منبسطة يُرى من بعيد لا حقيقة له ولا وجود، هذا مثل أعمالهم مثل السَّراب؛ لماذا؟ لأنها ليست على أصل الإيمان بالله ورسوله، ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ يظنّ العطشان ذلك السراب ماءً فيركض وراءه ليزيل ظمأه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾؛ كما كان يراه من قبل، كلما قَرُبَ من السَّراب ابتعد عنه؛ لأنه سرابٌ لا حقيقة له، فَكذلك أعمال الكفار في بطلانها وعدم نفعها، كالسرابِ الذي يراه الظمآن في الفلاة في شدة حرارة الشمس فيسرع إليه، حتى إذا وصله لم يجد الماء الذي رجا أنْ يشرب منه.

هذا مثل أعمال الكفار في البطلان، لماذا لم يجدوا أعمالهم النافعة؟ لأنهم قدموا على الله بغير توحيد وإيمان، فجعلها الله هباء منثوراً، ولكنّ الله تعالى لا يبخس الناسَ جهدهم وخدمتهم لغيرهم، ولا يظلم أحداً فيجزيهم عنها في الدنيا خيراً، قال ﷺ: «**إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقاً**

فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ» [أخرجه مسلم: ٧٢٦٨]. **فالله تعالى لا يضيع عنده** عمل ولو كان لغيره ما دام أنه نافع.

ثم قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾، وهنا أعظم الغُبْنِ والخسران والندم الذي لا رجاء بعده، فوجد الكافر نفسه أنه قائمٌ بين يدي الله للحساب والعقاب والجزاء بعد أنْ أصبحت أعماله التي يظنّ أنها تنفعه سراباً وهباء، فجازاه الله على كفره وعدم إيمانه وتوحيده لله تعالى بالعذاب الأليم، وبتصليته الجحيم، فاجتمعت عليه مصائب: مصيبة الظمأ الذي لم يجد له رِيّاً، ومصيبة ضياع الأعمال، ومصيبة العذاب الذي يعانيه، ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، فلم يمهله حتى ألقاه في جهنم، فلا يستبطئ الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لا بُدَّ من إتيانه.

فشُبِّهَ (الكافر) بـ: الظمآن، وشُبِّهَتْ (أعمالهم) بـ: السراب، وشُبِّهَت (قلوبهم) بـ: الأرض الجرداء التي لا شجرَ فيها ولا نبات، أي قلوبهم خاليةٌ من الإخلاص الذي تُبنَى عليه الأعمالُ الصَّالحة.

وقيل: شُبِّهَ ما يعمله مَن لا يعتقدُ الإيمان، ولا يتبع الحقَّ من الأعمال الصَّالحة، التي يحسبها تنفعه عند اللّه، وتنجيه من عذابه، بسرابٍ يراه الكافر بأرض القيامة، وقد غلبه العطشُ في ذلك اليوم، وفاض منه العرق، فيحسب ما يراه ماء فيأتيه مسرعاً فلا يجد ما رجاه، ويجد زبانية الله عنده، يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والغسَّاق، ويذيقونه ألوانَ العذاب جزاء وفاقاً.

وقال في المثل الثاني: أو تكون أعمال الكفار من الشِّرك والمعاصي والربا والزِّنى وغيرها التي عملوها ولم يتوبوا منها، كمثل: ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾ كثيرة؛ لماذا ظلمات؟ لأنها خالية من نور الإيمان والتّوحيد، وبالإضافة إلى أنّ هذه الأعمال ظلمات كثيرة فهي موضوعة، ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾، بحر كثير

الأمواج، عميق القاع، طويل المدى، واسع الأفق، وهو هنا كنايةٌ عن قلب الكافر، ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ يغشى قلب الكافر بحرٌ هائجٌ من الشُّبهات والشَّهوات والضَّلالات والأهواء والبدع التي تلعبُ به كما تلعبُ الأمواجُ العظيمة بالزورق الصغير ثم تُغْرِقُهُ.

﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ السحاب: كناية عن الرَّان والطبع والختم على قلوب الكفار مع ما فيها من الظُّلمات والشُّبهات والأهواء، فلا يخرجُ منها الكفر، ولا يدخلُ إليها الإيمان، وهذا تصويرٌ لبلوغِ الأمواج إلى السَّحاب؛ لأنه موجٌ مباشرة فوقه سَحاب، أي: وصلت ذنوبهم والظُّلمات التي على قلوبهم إلى السحاب وعنان السَّماء، ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، متراكمة حتى وصلت إلى السَّماء الدنيا، وهذا بيانٌ لكمال شدَّةِ الظُّلمات في قلب الكافر، كما أنَّ قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ بيانٌ لقُوَّةِ النُّورِ في قلب المؤمن.

فأصبحت ظلمةُ البحر اللجيّ، ثم فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة، ثم فوق ذلك ظلمة السّحاب الأسود، ليستر أضواء النجوم والقمر والكواكب، ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمةُ جداً، كذلك الكفار تراكمت الظُّلمات على قلوبهم بعضها فوق بعض، ظلمة الدنيا والطبيعة، التي لا خيرَ فيها، وفوقها ظلمة الكفر والمعاصي، وفوق ذلك ظلمة الجهل، وفوق ذلك ظلمة أعمالهم الباطلة، فبقوا في الظُّلمة متحيرين، وعن الصِّراط المستقيم مدبرين، وفي طرق الغي والضَّلال متردّدين.

هذا هو قلبُ الكافر، في شقاء وتعاسة وظلمة وضيق وهمّ ونكد؛ لأنّ الله تعالى خَذَلهم بذنوبهم وإعراضهم، بحيثُ إنَّ الكائن في تلك الظُّلمات، ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ مع قربها إليه؛ من شدة الظُّلمات، لانعدام النور الرباني؛ لأنه لم يبقَ في قلوبهم مكانٌ للنور من كثرة الظُّلمات

التي أوردوها على أنفسهم، امتلأت قلوبهم عن آخرها، فكيف يرجو الكافرُ النجاة؟!.

لشدة الظلمة التي هم فيها لا يرون الحقَّ الذي عندهم وبقربهم ويرونه ويسمعونه، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾، إيماناً وهداية يسيرُ بهما إلى الله، ﴿فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾، فلا يمكنُ لأحد بعد الله أنْ يهديه ويشرح صدره للإيمان، كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. ويبقى في الظُّلمات ليس بخارج منها؛ لأنّ نفسه ظالمة جاهلة، وقلبه خالٍ من الخير والنور، ورضي بما هو عليه لم يبحث عن الحق والإيمان، لم يسأل الله الهدايةَ بصدق وإخلاص، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

فهذا حالُ أعمال الكفار كحال مَن رَكِبَ بحراً هائجاً في ظلمات شديدة، فكيف يهتدي ويصل غايته؟. فلا انشراح للصدور ولا طمأنينة للقلوب إلا بالإيمان والعمل الصَّالح.

قال البغوي: أراد بـ: (الظُّلمات) أعمال الكافر، وبـ (البحر اللجيّ) قلبه، وبـ (الموج) ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة، وبـ(السحاب) الختم والطبع على قلبه.

العبرة من المثلين

الأصلُ في قَبول الأعمال هو الإيمانُ بالله ورسوله، والنظر في عاقبة الأمور، والعمل على أساس الإخلاص والتّوحيد، والحذر من الكفر والشِّرك والمَنّ والرِّياء؛ لأنها محبطةٌ للأعمال مهما كانت الأعمالُ نافعةً للبشرية، فالاختراعاتُ الطبية والتكنولوجية العلمية من طائرات وقطارات وسيارات وكهرباء وغيرها، التي خدمت البشرية، لا تخدم أصحابها يوم القيامة إذا لم تكنْ على أرض الإيمان والتّوحيد لله سبحانه.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مبتدأ، وخبره جملة ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ. . .﴾ إلخ. وجعل المسند إليه ما يدلُّ على ذوات الكافرين، ثم بُنِيَ عليه مسند إليه آخر وهو ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾. ولم يجعل المسند إليه أعمال الذين كفروا من أول وهلةٍ لما في الافتتاح بذِكْر الذين كفروا من التشويق إلى معرفة ما سيذكر من شؤونهم ليتقرر في النفس كمال التقرر، وليظهر أنّ للذين كفروا حظاً في التمثيل، بحيث لا يكون المشبه أعمالهم خاصة. أفاده ابن عاشور في التحرير.

الثانية: قوله: ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾، ليس الأمر بحسابات الكافر أو المسلم، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤]. وإنما الأمرُ بالإيمان بالله ورسوله، وتحقيق التّوحيد والإخلاص ومتابعة الرسول ﷺ. قال عمرُ رضي الله عنه: (لا عُذر لأحدٍ في ضلالةٍ ركبَها حسبَها هدًى، ولا في هدًى تركَهُ حسبَهُ ضلالةً، فقد بُيِّنت الأمور، وثبتت الحجَّة، وانْقطعَ العُذرُ) [شرح السنة للبربهاري].

الثالثة: قوله: ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾، (شيئاً) نكرة في سياق النفي، فتعمّ بطلانَ جميع أعمال الكفار.

الرابعة: قوله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾، وجد الآمر النَّاهي وهو الله لحسابه، ولم يجد المأمورَ به ولا المنهيَّ عنه، وهي أعمالُه الصَّالحة على تقديره لبطلانها.

الخامسة: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾، (الفاء) للتعقيب والفورية، لم يستعتبه ولم يمهله، بل حاسبه مباشرة وألقاه في النار، وفيها إشارةٌ إلى عذاب القبر.

السادسة: قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، يحاسب الناسَ كلَّهم في وقتٍ واحدٍ، كما يرزقهم في وقتٍ واحدٍ.

السابعة: قوله: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾، (يغشاه) عبّر بالمضارع الذي يدلّ على الحال لتصوّر المشهد، وكأنه واقعةُ عينٍ تحدث.

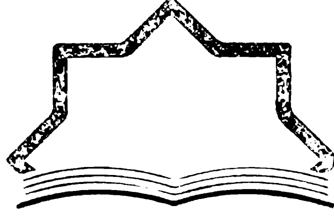
الثامنة: قوله: ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾، (موج) في الموضعين نكرة، والنكرة إذا تكررت تكون الثانية غير الأولى، ففيه بيان أنّ الظُّلمات والشُّبهات التي تردُ على القلوب مختلفة، ومتنوعة، وزيادة في التَّهويل والتفضيع لتنفيرِ الناس من الشِّرك.

التاسعة: قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾، (من فوقه) في الموضعين خبر مقدَّم على المبتدأ وجوباً؛ لأنّ المبتدأ نكرة غير مخصَّص، فدلّ المبتدأ على العموم، فدلّ هنا على التهويل والتكثير، حتى يسرح الذهنُ في تصور كمية الموج والسحاب، الذي هو كناية عن الذنوب والظُّلمات.

العاشرة: جَمَعَ الظُّلمات ووحّد النور؛ لأنّ سُبل الشرّ والشِّرك والباطل كثيرة، وطريق الحقّ واحد، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وصلِّ اللهمّ وسلِّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل الثامن والعشرون

مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دون الله أولياء

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

❖ **شرح المفردات:**

(اتخذوا): طلبوا بقوة.

(من دون الله): غير الله.

(أولياء) الولي: هو المحبُّ والناصر الذي تواليه ويواليك، والمقصودُ بالأولياء هنا: مَن ترجون نفعهم، ودَفْع الضُّرِّ بهم.

(اتخذت بيتاً): صنعت بيتاً لإيوائها.

(أوهن البيوت): أضعف البيوت.

التدبر في المثل

هذا المثلُ من أحسن الأمثال وأبينها وأوضحها، وهو مثلٌ معروف لدى الناس، مشاهد في حياتهم، ضربه الله لكل مَن اتخذ مِن دون الله وليّاً مُعتمِداً عليه، يلجأ إليه، ويحتمي بحماه، يدعوه، ويطلب منه المددَ والعونَ والنفع ودفع الضُّر، شبَّه حاله هذه بحال العنكبوت اتخذت بيتاً؛ لتحتمي به

من الأهوال والأخطار، وتأوي إليه، معتمدة عليه، وهي لا تدري أنّ هذا البيتَ لا يقي حرّاً، ولا برداً، ولا يجير آوياً، ولا يريح ثاوياً.

بعدَ أنْ بيّنَ سبحانه في الآيات السَّابقة أنه أهلك الطُّغاةَ والجبابرة من الأمم الماضية لَمّا أشركوا، وأنّ مآلهم إلى النار يوم القيامة دون أنْ ينفعَهم معبودهم في الدنيا ولا في الآخرة بشيء، شبّه سبحانه حالَ هذا المشرك الذي اتّخذ معبوداً دون الله يريد نفعه وعونه ونصره وحمايته بحال العنكبوت التي اتخذت بيتاً تريد فيه الحماية والسّتر وهو لا يحميها من الأذى، ولا يمنع عنها الحر أو البرد، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾، أي: مثل مَن اتخذ وليّاً من دون الله يواليه، ويتوكَّل عليه في قضاء حاجاته، ويستعين به، ويدعوه طالباً منه العون، ويرجو نفعه من دون الله في ما لا يقدرُ عليه إلا الله، من شفاء الأمراض، وتفريج الكُربات، سواء كان هذا الولي من الجماد أو الحيوان، أو من الأحياء أو الأموات، كان حال الولي ومَن يواليه من دون الله، ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ كحال العنكبوت وبيتها، فإنّ بيتها لا يغني عنها شيئاً لا في حرّ ولا برد ولا مطر، ولا يحميها من عدو، وهو في الأصل ليس بيتاً على الحقيقة، وإنما يُسمّى بيتاً مجازاً؛ لأنّ البيت له جدران وسقف وباب وغيره، وليس ذلك من بيت العنكبوت في شيء، وإنما هي مجموعة خيوط منسوجة، فأيّ ريح أو أي حركة تهدمه، كذلك حال مَن اتخذوا ولياً من دون الله، يدعونه ويرجونه، وينذرون له، ويتقربون إليه، ويطلبون منه العون والمدد والشفاعة، فحال هذا الولي أيّاً كان (نبيّاً مرسلاً أو مَلَكاً مقرباً أو صحابياً من المهاجرين والأنصار أو من آل البيت الكرام الأطهار أو مَن دونهم)، كان هذا الولي في الضَّعف والوهن والعجز في إجابة مَن دعاه من الناس كحالِ بيت العنكبوت في الوهن والضعف وانعدام القدرة، بالنسبة إلينا، أو إلى علمنا به.

فإنَّ هذا الوليَّ لا ينفعهم بوجهٍ من وجوه النفع، ولا يغني عنهم شيئاً

في الدنيا ولا في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ١٠].

فشبَّه اللهُ المتَّخِذ وليّاً مِن دونه بـ: حيوان (العنكبوت)، وشبَّه الولي المُتخَذ من دون الله في الضعف والعجز بـ: (بيت العنكبوت)، يُسمّونه وليّاً لهم، وهو ليس وليّاً لهم بل هو عدوٌّ لهم؛ لأنهم دَعَوهُ مع الله، والوليُّ لا يرضى أنْ يُدعى مع الله، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، حقيقة معروفة لكل الناس، إذ لا بيت أضعف من بيت العنكبوت؛ لأنه بلا أساسٍ ولا جدران ولا سقف، كذلك كلّ مَن اعتُمِدَ عليه من دون الله فحالُه كحال بيت العنكبوت في الوهن والعجز، وكذلك حال الكافر لا أصلَ لشأنه، ولا أساسَ لدينه، فلا يصلح ولا يجوز الاعتماد على الأولياء من دون الله في قضاء الحاجات، كما أنّ العنكبوت لا اعتماد لها على بيتها في حمايتها من الحر والبرد والريح.

بل الأولياءُ المتخذةُ من دون الله في قضاء الحاجات، وتفريج الكُربات، وطلب المدد، هي أهون وأضعف من بيت العنكبوت؛ لأنّ الأولياء لا ينفعون ولا يستجيبون لِمَن يدعوهم بشيء ولا يشعرون به ولا يضرّون مَن تركهم، بل لا يدفعون عن أنفسهم لمَن أرادهم بسوء، أو أرادَ هدم أضرحتهم وقبورهم، أمّا بيت العنكبوت على ضعفه ووهنه فإنه ينفعُ العنكبوت بشيء، فإنه يسكن به، ويصطاد به الحشرات، وينتقل به، وشكله جميل يدلُّ على قدرة الله تعالى، ولكن وجه المشابهة هي الوهن، ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، أي هؤلاء الناس لو كانوا يعلمون أنّ أولياءهم بمنزلة نَسْج العنكبوت في ضعف الحال وعدم القدرة ما اتخذوهم أولياء، ولو علموا أنّ هذا مثلهم، وأنّ أمر دينهم بالغٌ من الوهن هذه الغاية لأقلعوا عنهم، وما اتخذوهم من دون الله أولياء يتوجَّهون إليهم بالدُّعاء، وقضاء الحاجات.

ولكن لا يعلمون أنّ أولياءهم بمنزلة بيت العنكبوت أو أضعف منه بسبب دعاة الشِّرك والضَّلالة الذين يُزينون لهم اتخاذ الأولياء والشفعاء من دون الله، ويأمرونهم بالتوجُّه إليهم وقصدهم والنذر لهم ودعائهم من دون الله ترغيباً وترهيباً مستغلين جهلهم وسذاجتهم. فالعنكبوتُ تصطاد بشبكتها الحشرات الضعيفة وتحنطها وتحقنها بالسموم لتسيطر عليها وتأكلها، أما الحشراتُ القوية فتمزق الشبكةَ وتمرّ بها، بل وتهرب منها العنكبوت ذاتها، كذلك دعاة الضَّلال ينصبون شباكهم، ويصطادون الضعفاء والسُّذج من الناس، ويحقنونهم بالشُّبهات والسموم والخرافات، ويمتصون خيراتهم، ويسلبونهم أوقاتهم، وفي الآخرة جنتهم، ويُبعدونهم عن الله، والتعلق به والافتقار إليه، وعن القرآن وحقائقه وعلومه وإرشاداته؛ لأنها تُبيّن دَجلهم وكذبهم، ويعلّقونهم بالأولياء والصَّالحين من الأموات والأحياء من دون الله، وبخرافات اخترعوها من وحي الشيطان زعموا أنها كرامات للأولياء كعلمهم الغيب، وإغاثة مَن استغاث بهم، إلى غير ذلك من الأمور التي هي من خصائص الله تعالى وحده.

أما الإيمان بكرامات الأولياء الحقّة الصَّحيحة كـ: كرامة مريم عليها السلام وأصحاب الكهف التي جاء ذكرها في القرآن وكرامات الصَّحابة رضي الله عنهم وغيرهم مِمَّن تبعهم بإحسان واجب نؤمن به ونُقِرّه.

لذلك أمر الله نبيّه أنْ يستنكر على مَن اتخذ غيره وليّاً يرغبُ إليه ويدعوه، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. فكيف يليق أنْ أتخذ وليّاً غير الله الخالق الرزاق، الغنيّ الحميد، من تلك المخلوقات أو الأموات التي لا تنفع ولا تضرُّ، فهذا شركٌ كما قال تعالى في نهاية الآية، بل أُمرِنا باتّباع الكتاب والسُّنَّة، ونُهِينا عن اتّباع الأولياء

من دون الله، قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: ٣].

واعلمْ رحمك الله: أنّ حُبّ الأولياء والصَّالحين عبادة واجبة نتعبدُ بها، ونتقرب بها إلى الله، ونرجو أجْرَ محبتهم من الله، ونتّبعهم ونذكرهم، ونتأسَّى بأخلاقهم، ونطلب شفاعتهم من الله، فنقول في دعائنا: اللهمّ نسألك بحبنا لنبيك وبحبنا لأوليائك، وآل بيت نبيك، أنْ ترزقنا الجنّة، أو أنْ ترزقنا شفاعتهم، ونحو ذلك، ولكن لا ندعوهم من دون الله، ولا نستغيث بهم، ولا نستعين بهم، ولا ننذر لهم من دون الله ولا مع الله، فهم لا يرضون بذلك، فـ (الدعاء والاستغاثة والاستعانة والنذر عبادات يحبّ أنْ تُصرف لله وحده) فمحبة الأولياء والصَّالحين شيء، وعبادتهم شيء آخر تماماً.

وقيل: معنى الآية: مثل المشرك الذي يعبدُ الوثنَ بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت تتخذ بيتاً بالإضافة إلى رجل يبني بيتاً بآجرّ وجص، أو ينحته من صخر، وكما أنّ أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت، كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون. أفاده النسفي في «المدارك».

قال ابن عاشور: فالمشركون أشبهوا العنكبوت في الغرور بما أعدُّوه، وأولياؤهم أشبهوا بيت العنكبوت في عدم الغَناء عمَّن اتخذوها وقت الحاجة إليها، وتزول بأقلّ تحريك، وأقصى ما ينتفعون به منها نفع ضعيف، وهو السُّكنى فيها، وتوهم أن تدفعَ عنهم كما ينتفع المشركون بأوهامهم في أصنامهم.

فهؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء، يلوذُون بهم، ويحتمون بحماهم، ويرجون نَفْعَهم، مَثَلُهُمْ في ذلك كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بيتاً واهناً، فكانوا كالعنكبوت في ضعفها وصِغر شأنها؛ بل هم في يد القدرة

القادرة، وإزاء سلطان الله الغالب القاهر أقلّ من العنكبوت شأناً، وأضعف منها حيلة وحَوْلاً.

أما أولياؤهم، الذين دخلوا في حِماهم من الأموات، فهم أوهنُ من بيت العنكبوت ضعفاً وعجزاً؛ لأنّ بيت العنكبوت له حقيقة وانتفاعٌ في الجملة، وأولئك لا حقيقة لهم، ولا نفع؛ لأنهم لا يدفعون عمَّن والاهم أذى، ولا يردون عنهم شرّاً.

ويُعَدُّ هذا المثلُ من أحسن الأمثال، وأدلّها على بطلان الشِّرك، وخسارة صاحبه، وحصوله على ضدِّ مقصوده، لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢].

فلمّا ضرب الله لهم المثلَ في وصف أوليائهم الذين اتخذوهم آلهة من دون الله ببيت العنكبوت، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٤٢]. أي: إنّ الله يعلمُ أنّ الذي تدعون مِن دونه شيئاً معدوماً، لا ينفع إنْ دعوته ولا يضرُّ إنْ تركته، ومَن كانت هذه صفته فهو منزلةُ المعدوم وإنْ كان له حيّز من الفراغ. فكيف يسوغُ للعاقل أنْ يترك عبادة العزيز الحكيم وولايته، ويعبد معدوماً ويتولّاه؛ ولذلك سيعترف الكفار يوم القيامة أنهم كانوا يعبدون معدوماً في الدنيا، كما قال تعالى عنهم: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [غافر: ٧٣ ـ ٧٤]. **الشاهد قولهم**: ﴿لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔاۚ﴾.

وكما قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [يوسف: ٤٠]، أي: تعبدون مجرّد أسماء لا مضمونَ لها ولا محتوى في الخارج لا ينفعون ولا يضرُّون، أنتم مَنْ جعل لهم أسماء

التعظيم والتبجيل، وسمَّيتم الولي الفلاني كذا، والولي الفلاني كذا، وهم ما يدرون عن الدنيا شيئاً لأنهم صاروا إلى عالَم الآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. وتلك الأمثالُ الرائعة التي هي من عيون الكلام لعمق أثرها في النفس، وقوة فعلها في العقل، نضربها للناس لا للبهائم والجمادات، وما يعقلها ويدرك سرها ويقف على إشاراتها إلا العالِمون.

يقول الرَّازي: العلمُ الحدسيُّ التجريبي يعلمه العاقل والعلم الفكري الدقيق يعقله العالم، وذلك كالأمثال، ومن هنا ندرك السِّرَّ في تعبير القرآن ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾.

العبرة من المثل

نهى سبحانه عباده أنْ يتخذوا أحداً من خلقه وليّاً من دونه، يدعونهم، ويستغيثون بهم، وينذرون إليهم، ويطلبون منهم المددَ والشفاعة وقضاءَ الحاجات، ويعتقدون فيهم النفع والضرَّ؛ لأنّ هذا شركٌ بالله وظلم لحق الله جعل البشر إلهاً مع الله وهو لا يستحق إلا أنْ يكون عبداً لله، قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ﴾ [الرعد: ١٦]. فمَن فعل هذا عدَّه الله من الكافرين.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

عبدوا الأولياء من دون الله بحجَّة التقرب بهم إلى الله، فالنجاة والسلامة والأمن هو التعلُّق بالله وحده، والافتقار إليه، والتوكل عليه، وإنزال الحاجات به، واتخاذه وليّاً من دون العالَمين بلا وسائط أو شفعاء

أو أولياء، كما أمر الله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩].

وقال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤].

فولي الله تعالى: هو المؤمن التقي الغني، الذي والى الله تعالى بالطاعة والعبادة، والدعاء والحبّ والخشية، والذل والانكسار، العالِم بالله، المخلِص له، المستقِيم على طاعته سبحانه، القائِم على أمره ونهيه، يحبّ ما يحبّ الله ويوالي عليه، ويكره ما يكره الله ويعادي عليه.

والتنزهُ والابتعادُ عن اتخاذ غير الله وليّاً، فمِن سخف العقول، وحمق الأعمال، رجاء نفع الميت وضرّه. والله ﷻ يقول: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

مَن هو الولي الصَّالح عند الله تعالى

قال العلماء: مَن كان مؤمناً تقيّاً كانَ للهِ وليّاً، لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٣]. فمَن حقّق الإيمان والتقوى للهِ، كانَ مِن أولياءِ اللهِ الصَّالحين.

قال ابنُ حجر في «فتح الباري»: الْمُرَادُ بِوَلِيِّ اللهِ الْعَالِمُ بِاللهِ الْمُوَاظِبُ عَلَى طَاعَتِهِ، الْمُخْلِصُ فِي عِبَادَتِهِ.

ويجب أنْ يكون الوليُّ متّبِعاً للكتاب والسنة لا يخالفهما، قَالَ الإمَامُ الشَّافِعِيُّ رحمه الله: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ، وَيَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ، فَلَا تَعْتَبِرُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِضُوا أَمْرَهُ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ». ذكره ابن أبي العزّ في «شرح الطحاوية».

الموالاة بين المؤمنين

تكون الموالاةُ بين المؤمنين من الأولياء والصَّالحين بالمحبة والنُّصرة، أي: نُحِبُّ الأولياء والصَّالحين، ونتقرَّب إلى الله بحبهم، وندافع عنهم، ونتبعهم، ونذكر فضائلهم، ونتأسَّى بهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، أي: بعضهم يحبّ بعضاً، وبعضهم ينصر بعضاً، وتكون ولايتهم تابعة لولاية الله ورسوله ﷺ، كما قصر ذلك سبحانه فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة: ٥٥].

ولا تكون ولاية الأولياء والصَّالحين بدعائهم من دون الله والتقرب إليهم بالذبائح والنذور وغيرها من العبادات التي هي حقّ الله تعالى. وكذلك يكون دليل موالاة الأحياء من المؤمنين هو الفرح لفرحهم، والحزن لحزنهم، والدعاء لهم وعونهم، وعدم معاونة الكفار عليهم وإنْ كانوا أهل بدع ومخالفات ما داموا مسلمين، فالمسلمون في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد، بل تجب نصرة المسلم على الكافر وإنْ كان مخالِفاً عملاً بقوله ﷺ: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً**».

قال ابن تيمية في «المجموع»: والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها قلوبهم واحدة موالية لله ولرسوله ولعباده المؤمنين، معادية لأعداء الله ورسوله وأعداء عباده المؤمنين وقلوبهم الصادقة وأدعيتهم الصَّالحة هي العسكر الذي لا يغلب، والجند الذي لا يخذل، فإنهم هم الطائفة المنصورة إلى يوم القيامة كما أخبر رسول الله ﷺ.

ولكن ما نراه اليوم من كثير من الناس وهم يمرحون ويلعبون، ولا يهتمون ولا يفزعون لمصاب غيرهم من المسلمين، بل ويقعون فيهم ويعملون على خذلانهم، وهذا يدلّ على ضعف الموالاة والدين والنخوة والغَيرة، بينما نرى أنّ جميع أهل الكفر من اليهود والنصارى وغيرهم

اجتمعوا على المسلمين على اختلاف مللهم وعقائدهم ومذاهبهم، وقد ذكر سبحانه أنّ اجتماعهم وتفرقنا من أعظم الفتن في الأرض، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]. وأما الفرح والشماتة بمصاب المسلمين وخاصة في المعارك مع الكفار فهذه ردّة عن الإسلام.

كيف تكون موالاة المسلم إذا وُجِد فيه سُنة وبدعة؟

يُجيبك الإمام العَلَم ناصر السنة وقامع البدعة ابن تيمية، قال في «مجموع الفتاوى»: إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة، وسُنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشّرّ، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا كاللص الفقير تُقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته. هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السُّنة والجماعة، وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم عليه.

ابن تيمية رحمه الله يقرر قاعدة اتفق عليها أهل السُّنة والجماعة أنّ العالِم والداعية من أهل السنة والجماعة إذا كانت عنده مخالفات وبدع، مِمَّا يسوغ الاجتهاد فيها، أو مخالفات لا تُخرجه عن الملة، وكان من جانب آخر معروفاً بالسنّة والدفاع عنها، مجتهداً فيما قال، لا يهجر بالكلية ولا يسقط من أعين الناس بالكامل، وإنما تُحفظ له كرامته، ويُناصح مع بيان فضله وعلمه، ويُبيّن حال مخالفته بالدليل، لذلك ألف كتاب (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) بَيّنَ فيه عذر أهل العلم المخالفين للسنّة، فقال في أوله: وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع النبي ﷺ، وعلى أنّ كلّ أحدٍ من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، لكن إذا وُجِد لواحد منهم قولٌ قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلا بد له من عذرٍ لتركه.

أما مَن أتى ببدع كفرية وخالف الكتاب والسُّنَّة تعمّداً وعناداً واستكباراً من الفرق والمذاهب فهؤلاء يُهْجَرُون تماماً، ويُحذَر منهم.

عداوة الأولياء مع مَن دعوهم من دون الله في الآخرة

إذا جمع الله الأولين والآخرين، سيسأل كلَّ مَن دُعي من دونه: أأنتَ أمرتهم بدعائك؟ أي: أمرتهم بأنْ يدعوك، ويستغيثوا بك ويتقربوا إليك بالعبادة والذَّبح والنَّذر، كما قال تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. فسيتبرأ عيسى عليه السلام وكلّ مَن دُعي من دون الله مِمَّن دعاه من دون الله، بل يُعاديه أشد العداوة انتصاراً لله، وتنزيهاً له، وتبرئةً لنفسه، كما قال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧ ـ ١١٨].

وكذلك الباقون يتبرؤون مِمَّن عبدوهم من دون الله ودعوهم، وتقع بينهم العداوة والبغضاء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]. بل يقولون: يا ربِّ أصلاً ما كنا ندري أنّ هؤلاء يدعوننا من دونك كما حكى الله قولهم: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨ ـ ٢٩]. ويكذبونهم ويُنكرون عليهم أشدّ النكارة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨٦]. يُكَذِّبون مَن كانوا يدعونهم في الدنيا، ويقولون: يا ربّ لم نأمرهم بذلك ولا نعلم بهم.

وهكذا جميعُ الأولياء والصَّالحين يتبرؤون من كلّ أحد كان يدعوهم من دون الله يوم القيامة، ويثبتون الولاية لله تعالى.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: لماذا قال سُبحانه في هذا المثل: (أولياء) ولم يقل: (آلهة) على عادة القرآن؟ وذلك لمّا كان قبل المثل ذكر الجبابرة بأسمائهم، وكان بعضهم ينصرُ بعضاً، وبعضهم يوالي بعضاً من دون الله، ما نفعهم لمّا جاءهم بأسُ الله حتى يعلموا لا سلطان لغير الله؛ لذلك قال «أولياء» ولم يقل آلهة.

وسببٌ آخر مهمّ: وهو عَلِمَ الله أنه سيأتي أقوام يَدْعُون غير الله ويستغيثون بغير الله، فإذا قيل لهم: لا تتخذوا آلهة غير الله، قالوا: هؤلاء ليسوا آلهة، هؤلاء أولياء الله وشفعاؤنا عنده لهم جاه عند الله ونحن نتقرب بهم إلى الله، فيسمّون ما يعبدون من دون الله أولياء وشفعاء، فسدّ الله عليهم الطريق، وقطع حُجَّتهم وذكر (أولياء) بدل آلهة، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ [يونس: ١٨]. كانت الآلهة قبل الإسلام التي تُعبد من دون الله تُسمّى أصناماً وأوثاناً، وبعد الإسلام صارت تُسمّى أولياء وشفعاء.

الثانية: قوله: ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾، ولم يقل: بنت بيتاً. أو نسجت بيتاً، كما يقتضيه ظاهر اللفظ؛ وذلك لأنّ ﴿ٱتَّخَذَ﴾، لا يقال إلا في الشيء المصطفى المحبوب؛ لذلك قال تعالى عن الكفار: ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾، ولم يقل أخذوا؛ لأنّ الفعل (أخذ) فيه معنى القوة والسيطرة، كقوله: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. أما الاتخاذ على وزن الافتعال فيه معنى الاختيار والمحبة والاصطفاء، كقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. أي: اختاره وأحبه واصطفاه. فهؤلاء الكفار اتخذوا أولياء يقدِّمون محبتهم ونصرتهم على الله ورسوله ودينه، أي: افتعلوا محبتهم

ونصرتهم من الوهم والعدم، ومن لا شيء، والأصلُ أنَّ الذي يُحَب ويُنصَر هو الله العزيز الحكيم المتفضل، لا الولي المُفتَعَل الذي هو أضعف وأعجز من خيط العنكبوت.

الثالثة: قوله: ﴿ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ﴾، تلاحظ الخطاب للعنكبوت بتاء التأنيث في (اتخذتْ)، وقد أثبتَ العلم الحديث أنْ أنثى العنكبوت هي القادرةُ على بناء بيت من خلال الشَّبكة العنكبوتية، وأمّا الذكر فهو فقط يُخرج خيوطاً لِينتقل فيها من مكان لآخر ولا قدرة له على بناء شبكة يتخذها بيتاً.

الرابعة: قوله: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ﴾، فهذا الوهنُ حسيٌّ كما هو معلوم من ضعف بيت العنكبوت، ومعنوي وذلك بتشتت أسرة العنكبوت، فالأنثى تقوم بقتل الذكر بعد التلقيح وإنجاب الأولاد، وإذا كبُر الأولاد قتلوا أمهم، فبيت العنكبوت أسوأ البيوت وأوهن البيوت على الإطلاق من جميع النواحي، وقد أكد سبحانه ذلك بتوكيدين بـ: (إنّ) التوكيدية، وبـ (اللام المزحلقة)، لِترسخ هذه الحقيقة في النفوس.

الخامسة: قوله: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، جواب (لو) محذوف، أي: لما اتخذوا مَن يُضرب له بهذه الأمثال أولياء لحقارته لو كانوا يعلمون، وعدم علمهم ليس لهم بحجة، وليس لهم بعذر عند الله يُنجيهم من عذاب الله إذ هم لا يعيشون على القمر أو في صحراء منقطعة، فلا يُدركون أمر التّوحيد والإخلاص، بل الذي يعيش على القمر أو في صحراء على الفطرة، أما هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء فهم يعيشون في المدن، وعندهم جميع وسائل العلم والمعرفة، ولكنهم عاكفون على القبور، راضون بها، معلّقون رجاءهم عليها.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.



المثل التاسع والعشرون
إثبات الوحدانية لله مِن واقع البشر

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

❖ **شرح المفردات:**

(ضرب لكم مثلاً): أي جعل لكم مثلاً يُبيّن لكم المقصود.

(من أنفسكم): منتزعاً من أموالكم وما تعرفونه من أنفسكم.

(ملك اليمين): العبيد والأرقاء المملوكون لسيدهم.

التدبر في المثل

لَمّا بيّن سبحانه قدرته في إعادة البشر بعد فنائهم، ضَرَب لهم مثلاً من واقعهم في بطلان شركهم، فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾، يتبيَّن به بطلانُ الشِّركِ بوضوح وجلاء، ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، مأخوذاً معناه من أحوالِكم التي هي أقربُ الأمورِ إليكم، وأعرفُها عندكم، وأظهرُها دلالةً على بطلان الشِّرك، ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، هل لكم من عبيدكم الذين اشتريتموهم بأموالكم، أو غنمتموهم بغزواتكم، ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، هل عبيدكم يشاركونكم في رزقكم وتجارتكم وآرائكم وما تملكون، ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، هل ترضَون لأنفسكم والحالُ أنَّ عبيدَكم

أمثالكم في البشريةِ وأحكامها أنْ يشاركوكم فيما رزقناكم، فأنتم وهم فيه سواءٌ يتصرَّفون فيه كتصرّفكم من غير فرقٍ بينكم وبينهم، هل ترضون بهذا؟ ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾، هل تخافون من عبيدكم إذا تصرَّفتم في مالكم ورزقكم دون رأيهم أو موافقتهم، ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، كما تخافون من الأحرار والسَّادة من قومكم وتحسبون لهم الحساب.

والمعنى: هل ترضون أنْ يكون لكم أيها المشركون شركاء في أموالكم وأرزاقكم؟ وهؤلاء الشُّركاء هم عبيدكم الذين هم تحت أيديكم وقهركم يساوونكم في التصرف فيها، وأنتم وهم في المال سواء، تخافون عبيدكم كما تخافون الأحرار والسادة فلا تتصرفون إلا بعد رأيهم ومشورتهم كما تشاورون الأحرار والسادة؟!

وإذا كنتم تأنفون من شراكة عبيدكم وهم بشرٌ مثلكم، ولا ترضونه لأنفسكم، وتحسبونه عاراً وهواناً بكم؛ لأنهم عبيدكم تملكونهم مجازاً، وتستطيعون أنْ تبيعوهم أو تهبوهم متى شئتم، فكيف ترضون أنْ تجعلوا لله الأنداد والشِّركاء والأولياء من خلقه تصرفون لهم العبادة والدعاء، وتنادونهم من دون الله: يا فلان أغثني، يا فلان أعنّي، يا فلان أدركني، وتجعلون عبيده شركاء له وهو خلقهم ويملكهم حقيقة وأرواحهم بيده؟! فإذا كان أحدُكم لا يرضى هذه المساواة لنفسه مع بشر مثله فكيف يرضى هذه المساواة لله الذي خلق ورزق وأحيا وأمات؟!!، كذلك الله لا يرضى أبداً أنْ يكون مخلوق من مخلوقاته ملكاً كان أو نبيّاً أو وليّاً أو وثناً أو صنماً شريكاً له في عبادته، فهذا بهتانٌ عظيم وجرمٌ كبير، كما قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨].

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي مثل هذا التفصيل والتبيان في إلزام الخصم الحجَّة القوية، نفصّل الآيات ونوضِّحها

لقوم يستعملون عقولهم، ويتأملون فيما يُقال لهم، ويذكر من الأدلة المنطقية والحجج الإقناعية. فلمّا بيّنَ سبحانه المثل، ووضح الأمر قال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فهموا المثل، ووضح لهم الأمر، ولكنهم اتّبعوا أهواءهم وشهواتهم ظلماً وبغياً وتعصباً وتقليداً، بغير علم دلَّهم عليه، ولا برهان قادهم إليه، ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، أي لا أحد يقدرُ على هدايته؛ لأنّ هداية التوفيق بيد الله تعالى، فـ: اسم الاستفهام (مَن) يتضمَّن معنى النفي.

قال القرطبي: هذه الآية أصلٌ في الشِّركة بين المخلوقين لافتقار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه؛ وذلك أنه لما قال ﷻ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾، الآية، فيجب أنْ يقولوا: ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقتنا! فيُقال لهم: فكيف يتصوَّر أنْ تنزهوا نفوسكم عن مشاركة عبيدكم، وتجعلوا عبيدي شركائي في خَلْقي، فهذا حكمٌ فاسدٌ، وقلَّة نظر، وعمى قلب!. فإذاً بطلت الشِّركةُ بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة.

والخلقُ كلهم عبيدٌ لله تعالى فيبطل أنْ يكون شيءٌ من العالَم شريكاً لله تعالى في شيء من أفعاله، فلم يبقَ إلا أنه واحد يستحيل أنْ يكون له شريك، إذ الشِّركة تقتضي المعاونة، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضاً بالمال والعمل. وهذه المسألة أفضل للطالب من حفظ ديوان كامل في الفقه، لأنّ جميع العبادات البدنية لا تصحُّ إلا بتصحيح هذه المسألة في القلب، فافهم ذلك.

العبرة من المثل

تعظيم الله تعالى، وتوحيده، وإخلاص العبادة له سبحانه، ونصرة دينه، ونَبْذ الشِّرك وأهله، وبيان حالهم، ومعتقدهم الفاسد بالدليل، والتحذير

منهم، والعمل بالسُّنة، وإظهارها بين الناس والدفاع عنها، وبيان أهل الهوى، وكشف زَيْفهم وباطلهم وشبهاتهم، والاستعانة بالله على ذلك.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: قوله: ﴿هَل لَّكُم﴾، (هل) الاستفهام يفيدُ الإنكارَ ويتضمن معنى النفي، بمعنى: تنفون وتنكرون التسوية بينكم وبين عبيدكم؛ لأنكم تملكونهم، إذاً فلا ترضونها لله مع خلقه؛ لأنه يملكهم وهم عبيده.

الثانية: قوله: ﴿لَكُم﴾، اللام لام التعليل، أي ضرب مثلاً لأجلكم، أي لأجل إفهامكم.

الثالثة: قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ثم قال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ﴾، ثم قال: ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾، فـ (مِن) الأولى للابتداء. والثانية: زائدة لتأكيد الاستفهام. والثالثة: للتبعيض، أي: بعض عبيدكم.

الرابعة: قوله: ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، (أنفسَكم) أي إخوانكم وبني جنسكم، عبّر الله بالنفس عن أخوة الدِّين في مواضع من كتابه، كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، وغيرها؛ لأنّ رابطة الإسلام تجعل المسلم كنفسه؛ ولأنّ المؤمنين كالجسد الواحد، إنِ اشتكى عضو منه تداعى له سائرُ الجسد بالسهر والحمى.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل الثلاثون
الفرق بين عبادة الله، وعبادة غيره

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

❖ **شرح المفردات:**

(شركاء): مجموعة من السادة مشتركون في عبد واحد يخدمهم.

(متشاكسون): متنازعون مختلفون لسوء أخلاقهم، واختلاف مطالبهم.

(ورجلاً سلماً): عبداً يخدم سيّداً واحداً يُخلِص له الخدمة.

التدبر في المثل

بعد بيان صفات القرآن بأنه أَحْسَنُ الحَدِيثِ، وأنه قرآن متلوّ إلى يوم القيامة، وأنه عربيُّ اللسان، غير ذي عوج، وليس فيه تناقض أو خفاء، وهذه منّة من الله على العرب خصوصاً وعلى الناس عموماً، ذكر تعالى أنّ من جملة صفات القرآن أنه يُضرب فيه الأمثال للناس تخويفاً وتحذيراً وبياناً وفرقاناً، فهذا مثلٌ من جملة الأمثال التي ضربها الله للناس لعلهم يتذكرون وهو مثلٌ للمشرك الذي يعبد عدة آلهة، وللموحّد الذي لا يعبد إلا الله، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ يتّضح فيه الشِّرك من التّوحيد والحق من الباطل، ﴿رَّجُلًا﴾ أي: عبداً مملوكاً لعدة رجال قد اشتركوا في شرائه، ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾، وهؤلاء الذين يملكون هذا العبد من ذوي الأخلاق

الشرسة، والطباع الجافة، فهم متشاكسون فيه متعارضون يتنازعونه في الخدمة؛ لأنّ أخلاقهم مختلفة، ونياتهم متباينة، وطلباتهم متنوعة، لا يلقاه رجل إلا جرّه واستخدمه، هذا يقول له: تعالَ، والآخر يقول له: اجلس والثالث يقول له اذهب، فهو في حيرة من أمره لا راحة بدن ولا راحة ضمير ونفس، فهو يلقى منهم العناء والضيق والنَّصب والتعب العظيم، لا يدري يرضي مَن منهم، وهو مع ذلك كلّه لا يرضي واحداً منهم بخدمته لكثرة الحقوق في رقبته والأوامر والطلبات التي عليه، جهده ضائع بينهم، وهم غير راضين عنه، فهذا مثلُ المشرك مع الآلهة المتعدِّدة، والأولياء المتفرِّقة.

تجده كلّ يوم عند واحد من هؤلاء الأولياء يرجوه ويدعوه، ويقدّم له النذور، ويطلب منه العون والمدد وقضاء حاجته، وتفريج كربته، هذا حاله، من التعب، والعناء، والتشتت، والجهد الضَّائع، لا يدري أين يذهب، وعلى أيّهم يعتمد، وفي النهاية لن يستجيبَ له أحدٌ منهم أبداً؛ لأنّ الأمر لله والكون بيد الله، ولا يكشف الضرّ إلا الله، وهؤلاء الأولياء لا يعلمون بأحدٍ من أهل الدنيا؛ لأنهم في عالَم آخر، قد انقطع عملهم من الدنيا، بل هم محتاجون إلى دعاء الأحياء.

ثم لَمّا بيّن سبحانه حالَ المشرك مع الآلهة المتعدِّدة، ذكر حال الموحِّد المخلِص مع الله تعالى فقال: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾، وعبداً يملكه رجل واحد، فهذا العبدُ يعرف ماذا يحبّ سيده وماذا يأكل ومتى يخرج ومتى ينام، إنْ أحسن أكرمه، وإنْ أساء غفر له، لا يلقى تعباً ولا حيرة في خدمته، فهذا مثل الموحِّد مع ربه سبحانه، فالموحد لله المخلِص في عبادته يعرف ماذا يحبّ الله فيفعله، وماذا يكره الله فيجتنبه، يعرف أوقات الصلوات، ويعرف شهر الصيام، ويعرف أنّ الله أمر بالتّوحيد ونهى عن الشِّرك، ثم بعد هذا البيان الواضح بين حال الموحِّد والمشرك، قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: هذان الرجلان، الذي يخدم عشرة والذي يخدم واحداً؟ حتماً

لا يستويان، فكذلك لا يستوي المشرك الذي يعبدُ آلهة كثيرة مع الله فهو في حيرة ودناءة وقلق، والمؤمن المخلِص الذي لا يعبدُ إلا الله وحده لا شريكَ له، فهو في أتمّ راحة، وأكمل طمأنينة وسلامة، فأين هذا من ذاك؟!

قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]. هل يستوي مَن له عدة آلهة وأولياء يستغيثُ بهم، ويتوجَّه إليهم، ويطلب منهم العونَ والمدَد، وفي كلّ يوم هو عند إله أو وليّ يدعوهم، ويتوسَّل إليهم، (هذا الولي لشفاء الأمراض، وذاك لقضاء الحاجات، والآخر لتزويج العوانس، وغيره للمجانين، وغيره للحلف به عند الخصومات والنِّزاعات والسَّرقات؛ لاعتقادهم أنْ له شارة لا تُخطئ، وآخر لتفريج الكُربات، والآخر يعطي الأولاد، ويهب الذرية)، ولا تنتهي هذه القصة، وماذا بقي لله؟ وهل هؤلاء الأولياء والكرماء والعظماء يملكون ذرةً مع الله، وهل أذن الله لأحد من الخلق بدعائهم والطلب منهم؟!

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤]. بل لا يوجد أضلّ مِمّن يدعو غير الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]. فالله لم يأذنْ لأحدٍ من خلقه أنْ يتوجَّه بالطلب إلى غيره، في جَلْب النفع ودفع الضُّر، وقضاء الحاجات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]. بل أمر الله بدعائه، والتوجُّه إليه، وحده في الخير ودفع الشَّر، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

فمَن توجَّه إلى أحد غير الله ودعاه مع الله أو مِن دون الله، فقد عَبَدَ

شيطاناً، واتخذه إلهاً مع الله، وأعطاه صفات الله من السَّمع والبصر والعلم والقدرة على الإجابة. ثمّ قال تعالى في خاتمة المثل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمة التّوحيد والعقل التي مَنَّ بهما على عباده المؤمنين، فله سبحانه الثَّناء الجميل، والذِّكر الحسن على تبيين الحقّ من الباطل، وإرشاد الجاهل. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أكثرهم جهلوا التّوحيدَ تفريطاً منهم، وإعراضاً عنه، مع بيانه وكمال ظهوره، فيبقون في ورطةِ الشِّركِ والضَّلالِ، اتّباعاً لزعاماتهم وسادتهم ومشايخهم، الذين منهم مَن يعلم التّوحيد حقاً، وأشرك عمداً؛ لأنّ مصلحته ومنصبه وجاهه يقتضي ذلك. ثم ذكر الله تعالى أنَّ كلَّ الناس صائرون إلى الله المؤمن والمشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠ - ٣١]. فيحكم بينهم، فيجزي المطيع، ويحاسب العاصي، ولله الحمدُ والمنّة.

العبرة من المثل

الشِّركُ بالله أكبر الكبائر على الإطلاق، وأعظم الذُّنوب بالاتفاق، الذي لا يُكفره شيء، ولا ينفعُ معه شيء من الأعمال الصَّالحة، ولا يغفره تعالى لِمَن مات عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

إنّ الله خلق الإنسانَ وفضّله على كثير مِمَّن خلق، وأكرمه بالعقل، وأرسل إليه الرسل، لِيخرجوا الناس من الظُّلمات إلى النور؛ وليعبدوا الله وحده لا شريكَ له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فيرتفع شأنه، وتسمو مكانته، ويرضى الله عنه، ويُدخله الجنّة، فإذا بالإنسان يركنُ عقله جانباً، ويترك كتابَ الله وسُنَّة رسول الله ﷺ، ويتَّخذ الأندادَ والأوثانَ والأولياء والأموات آلهة مع الله يدعوهم، ويرجوهم، ويطلب منهم، فنزل بنفسه إلى أسفل السَّافلين إلى تحت قيمة

الحيوان الذي سخَّره الله للإنسان، وذلك حين دعا غير الله، وطلب من إنسان مثله أو من الميت الذي غطّاه التراب، وأكله الدُّود. ذلك الإنسان العبد العاجز الضعيف الذي إذا لم يأكل ليوم واحد تلوّى من الجوع، واصفرّ وجهُهُ، وإذا لدغته حيّة قتلتْهُ، وإذا غصَّ بريقه مات، ويترك اللهَ العزيزَ الحكيم العليم القدير.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، جاء بصيغة الماضي والمثل إنما يُعلَمُ عند نزول الوحي؛ وذلك للتَّشويق والتَّنبيه عليه.

الثانية: قوله: ﴿رَّجُلًا﴾، نكرة، فليس المقصودُ رجلاً بعينه، وإنما المقصود المثل والعِبرة منه.

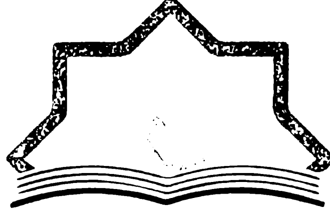
الثالثة: قوله: ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾، (فيه) خبر مقدَّم جوازاً للتوكيد؛ لأنّ المبتدأ مخصَّص بالجملة الفعلية، لِيدلَّ على العناية بمضمون هذا المثل الذي ضربه.

الرابعة: قوله: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾، سؤال للتبكيت؛ لأنه من البديهي لا يستويان، فيجوز في(هل) التقرير في عدم التسوية، ويجوز أنْ تتضمَّن معنى النفي والإنكار والاستبعاد.

الخامسة: قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، جملة اسمية تحتمل الإنشاء، أي: قولوا الحمد لله على نعمته، وتحتملُ الخبر، أي: أنّ الله مستحقٌّ للحمد والثناء الحسن على نِعَمِهِ.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل الحادي والثلاثون
ثناء الله ﷻ على الصَّحابة الكرام ورضاه عنهم في التوراة والإنجيل والقرآن

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

❖ **شرح المفردات:**

(**والذين معه**): أصحابه رضوان الله عليهم.

(**أشداء على الكفار**): غلاظ على الكفار لا يرحمونهم.

(**رحماء بينهم**): متعاطفون متوادّون كالوالد مع ولده.

(**تراهم ركعاً سجداً**): أي في أغلب أحوالهم منشغلون في الصَّلاة.

(**يبتغون فضلاً من الله ورضواناً**): الفضل: الجنة، والرضوان، أي: رضا الله عنهم.

(**سيماهم في وجوههم**): نور وبياض يُعرفون به يوم القيامة.

(**ذلك**): أي الوصف المذكور.

(مثلهم في التوراة): أي صفتهم في التوراة كتاب موسى عليه السلام.

(ومثلهم في الإنجيل): ولهم مثل آخر في الإنجيل كتاب عيسى عليه السلام.

(أخرج شطأه): فروعه، يقال: أشطأ الزرع؛ إذا أخرج فروعاً.

(فآزره): قواه وأعانه، والمؤازرة هي الإعانة، ومنه قوله: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ [طه: ٣١].

(على سوقه): جمع ساق، أي: على أصوله.

(ليغيظ بهم الكفار): قوّى اللهُ الصَّحابة وكثّرهم؛ لِيغيظَ بهم الكفار.

التدبر في المثل

لَمّا أخبر تعالى أنه أرسل رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ذكر سبحانه صفات الذي أرسله ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار الذين سيكون على عاتقهم إقامة الدين ونشره والجهاد من أجله، فذكر سبحانه صفاتِ الصَّحابة الكرام، ومدَحَهم ورضِيَ عنهم ووصفهم بأنهم على أكمل الصِّفات، وأجلّ الأحوال، وبيّن صفاتهم بالأمثال، فمدحهم سبحانه في التوراة والإنجيل، وبيّنَ فضلهم للعالَمين، فأما مدْحُهم في التوراة فقد جاء في ستِّ صفات:

الأولى: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، أي: أصحابه معه لا يفارقونه ولا يتركونه في جميع الظروف والأحوال والأوقات، لا في حرٍّ ولا في برد، ولا في سلم ولا في حرب، ولا في أيِّ أمرٍ من أموره ﷺ، وعلى رأسهم الأئمة الأربعة، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ويدخل في قوله ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، جميع المؤمنين إلى قيام الساعة.

الثانية: قوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: جادّون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم، انتصاراً لله ورسوله ودين الحق

الذي هم عليه، ليس عندهم تملُّق ولا تهاون، ولا لغرض مال أو شهوة، فلم يرَ الكفار منهم إلا الغلظة والشّدة، فلذلك ذلّ أعداؤهم لهم.

الثالثة: قوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: متحابون متراحمون متعاطفون، كالجسد الواحد، يحبُّ أحدُهم لأخيه ما يحبّ لنفسه، لا يميلون إلى الشَّهوات أو العداوات على المؤمنين، هذه معاملتهم فيما بينهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

الرابعة: قوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، وصفهم بكثرة الصَّلاة في الليل والنهار في غالب أوقاتهم، التي أجلُّ أركانها الركوع والسجود، وهذا دليلٌ على أنهم إذا رجعوا من الجهاد انشغلوا بالعبادات وخاصة الصَّلاة، ولم ينشغلوا بعرض الدنيا. فمتى نظرتَ إلى الصَّحابة الكرام رأيتهم ساجدين راكعين متواضعين، لا متكبرين ولا لاهِيْن.

الخامسة: قوله: ﴿يَبْتَغُونَ﴾، بتلك العبادة، ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: هذا مقصودُهم من الصَّلاة هو بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه. وهذه تزكيةٌ لقلوبهم ونياتهم، بأنهم مخلصون في عباداتهم، لا يطلبون دنيا ولا مالاً ولا شهرة.

السادسة: قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾، قد أثرت العبادة من كثرتها وحسنها في وجوههم، حتى استنارت، لما استنارت بالصَّلاة بواطنهم، استنارت بالجلال والنور والبهاء ظواهرهم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من صفاتهم الجميلة ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: هذا وصفهم الذي وصفهم الله به، مذكور بالتَّوراة هكذا، واليهود يقرؤونه ويعلمونه، وبه تمّ الكلام، هذا وصفهم؛ لأنهم صدقوا الله ورسوله، ونصروا الله ورسوله وتمسكوا بكتاب الله ورسوله، واستمروا على ذلك.

وأما مثلهم في الإنجيل: فإنهم موصوفون بوصف آخر، ومدح آخر،

ومثل آخر وهو أنهم في كمالهم وتعاونهم، ﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: أخرج فراخه، فوازرته فراخه في الشباب والاستواء. ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ ذلك الزرع، أي: قوي وغلظ ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ جمع ساق، ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ من كماله واستوائه، وحُسْنه واعتداله.

قال الطبري: هذا مَثَل ضربه الله ﷻ لأصحاب محمد ﷺ بعثه الله وحده، ثم اجتمع إليه ناسٌ قليل يؤمنون به، ثم يكون القليلُ كثيراً، ويستغلظون، ويغيظ الله بهم الكفار.

فالصَّحابة ﵃ كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه قد لحق الكبير السابق، ووازره وعاونه على ما هو عليه، من إقامة دين الله والدَّعوة إليه، كالفرع الصغير من الزرع ينبت فيشتدّ به الأصل الكبير من الزرع؛ ولهذا قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ حين يرى الكفارُ اجتماعَ الصَّحابة وشدّتهم وصلابتهم في دينهم صغيرهم وكبيرهم، يغيظهم هذا المنظر ويؤلمهم، ثم بعد هذا الوصف الجميل والثناء الحسن من الله تعالى على صحابة النَّبي ﷺ قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾، فالصَّحابة ﵃ الذين جمعوا بينَ الإيمان والعمل الصَّالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة؛ التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة. فالصَّحابة كلُّهم موعودون بالجنّة، فمَن عمل بعمل الصَّحابة، أو كان تابعاً لهم بإحسان ألحقه الله بهم، وكان وسطياً معتدلاً.

قال البغوي: (الزرع) محمد ﷺ، و(الشطء) أصحابه والمؤمنون. فرسول الله ﷺ الأصل، والصَّحابة يساندونه ويُؤازرونه. وروي عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾: أبو بكر

الصديق رضي الله عنه، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ عثمان بن عفان رضي الله عنه، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بقية العشرة المبشّرين بالجنّة، رضي الله عنهم.

وقيل: كمثل زرع (محمد ﷺ)، أخرج شطأه (أبو بكر رضي الله عنه)، فآزره (عمر رضي الله عنه)، فاستغلظ (عثمان رضي الله عنه)، للإسلام فاستوى على سُوقه (علي بن أبي طالب رضي الله عنه)، استقام الإسلام بسيفه، يعجب الزرَّاع، قال: (هم المؤمنون).

فضل الصَّحابة في كتاب الله ﷻ

لقد اختار الله سبحانه لصحبة نبيه ﷺ نماذجَ فذَّةً من البشر تفتخرُ بهم الإنسانية، آمنوا برسولِ الله، وصدَّقوه، ونصروه، واتبعوا النورَ الذي أُنزِل معه، فكانوا من المفلحين في الدنيا والآخرة، بذلوا أنفسهم وأموالهم لنشر دعوةِ الإسلام، والذَّود عنه، وضحّوا بكل شيء عندهم من أجل الله ورسوله، فاستحقوا من الله عظيم الثواب، وحُسْن المآب، وحُقَّ لهم أنْ يُخلَّد ذكرُهم في قرآنٍ يُتلى إلى يوم القيامة.

إنهم جميعاً شموسٌ أشرقت في سماء الإنسانية، فأناروا الدنيا، وملؤوها عدلاً ورحمةً، بعد أن مُلِئت جوراً وظلماً، فكانوا خيرَ صَحْبٍ لخير نبيّ، أُرسِل لخير أُمَّةٍ أُخرِجت للناس.

فمِن الواجب على الذين يأتون بعد الصَّحابة أنْ يردِّدوا بألسنتهم وجوارحهم وقلوبهم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. فلولا الصَّحابةُ الكرامُ ما وصلنا الدين وما كنّا عرفنا الإسلام رضي الله عنهم.

قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: إنَّ أصحابَ محمدٍ ﷺ كانوا أفضلَ هذه الأمة،

وأبرّها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلّها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، ولإقامة دينه، وقد أثنى الله ﷻ عليهم، ورضي رسول الله ﷺ عنهم، وثبتت عدالةُ جميعهم بثناء الله ﷻ عليهم، وثناء رسوله ﷺ. (جامع بيان العلم وفضله: ٢/ ٩٤٧).

ومحبةُ الصَّحابة الكرام وتقديرهم أصلٌ عظيم يجبُ على المسلمين معرفته؛ لأنّ ذلك من الإيمان، وبغضهم أو بغض واحد منهم من الكفر والنفاق، وذلك أنّ حبَّهم من حُبِّ النبي ﷺ، وبغضهم من بغض النبي ﷺ. وهي من الأمور الواجب الإيمان بها في عقيدة أهل السنة والجماعة. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ الأَنْصَارَ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَ الأَنْصَارَ أَبْغَضَهُ اللهُ**». [رواه أحمد وابن ماجه وغيرهما]. وقال ﷺ: «**آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ**» [أخرجه البخاري].

ثناء الله تعالى على الصَّحابة الكرام

١ ـ قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أُمِّ مُبَشِّرٍ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدُ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**». قَالَ الْعُلَمَاء: مَعْنَاهُ لَا يَدْخُلهَا أَحَد مِنْهُمْ قَطْعاً، وَإِنَّمَا قَالَ: «إِنْ شَاءَ الله» لِلتَّبَرُّكِ، لَا لِلشَّكِّ،

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟

وَنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]. فقد وصف الله الصَّحابة الكرام بأنهم حقَّقوا تمام الإيمان.

٤ ـ قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وأول المقصودين بهذه الآية هم الصَّحابة الكرام.

٥ ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]. والمؤمنون المخاطبون بهذه الآية هم الصَّحابة الكرام، ومَن سار على نهجهم.

العبرة من المثل

ثناءُ اللهِ على الصَّحابة ورضاه عنهم، وضَرْبُ الأمثالِ في مدحهم في التوراة والإنجيل والقرآن، يدلُّ على محبة الله لهم ورضاه عنهم وعظيم فضلهم، وعلوّ شأنهم عند الله تعالى، وهو مِمّا يدعو إلى تمام الطمأنينة والرَّاحة في تلقي الدين عنهم، وأنهم نقلوه بكل صدقٍ وأمانةٍ وإخلاص، وبذلوا الأرواح والأموال في إيصاله إلينا، فالواجبُ الترضي عنهم، ومعرفة فضلهم، والدفاع عنهم، والتعبد لله بحبهم واتباعهم، وكلُّ ما ذُكر من فضل للصَّحابة الكرام يدخل فيه آل بيت النبي الكرام عليهم السلام، وعلى رأسهم سيدنا عليّ رضي الله عنه، الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ**»، فنحن نحب مولانا علياً ونتبعه وننصره، ولكن لا نؤلهه ولا ندعوه من دون الله.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، يشمل كلّ مَن مع النبي ﷺ على دينه

وسُنَّته إلى قيام الساعة وأولهم الصَّحابة الكرام. وقيل: المراد بـ: «الذين معه» جميع المؤمنين.

الثانية: قوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾، تكميل، لو لم يذكر لربما توهم أنهم لاعتيادهم الشِّدة على الكفار قد صار ذلك لهم سجيَّة في كلّ حال، وعلى كلّ أحد. فلما قال: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ اندفع ذلك التوهُّم، فهو تكميلٌ واحتراس، كما في آية المائدة، فإنه لما قيل: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ربما توهم أنّ مفهومَ القيد غير معتبر، وأنهم موصوفون بالذل دائماً، وعند كلِّ أحدٍ، فدفعه بقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ذكره القاسميُّ.

وفي الجمع لهم بين هاتين الخلَّتين المتضادتين الشِّدة والرحمة إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرَّفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرّشد فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى، ولا يندفعون إلى العمل بالجبلّة وعدم الرؤية. أفاده ابن عاشور في تحريره.

الثالثة: الخطاب في ﴿تَرَىٰهُمۡ﴾، لغير معيّن بل لكلِّ مَن تتأتى رؤيته إياهم، أي يراهم الرائي على هذه الحال. وإيثار صيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك، أي تراهم كلّما شئتَ أنْ تراهم ركعاً سجداً. وهذا ثناءٌ عليهم بشدَّة إقبالهم على أفضل الأعمال المزكِّية للنفس، وهي الصلواتُ مفروضها ونافلتها في الليل والنهار، وأنهم يطلبون بذلك رضا الله.

الرابعة: قوله: ﴿مِنۡهُم﴾، (مِن) لبيان الجنس، أي: جنس العمل، أي: مَن عمل بعمل الصَّحابة من الإيمان والعمل الصَّالح بإحسان فهو أيضاً مشمول بمغفرة الله وأجره إلى قيام الساعة.

الخامسة: قال الطبري: (الهاء والميم) في قوله: ﴿مِنۡهُم﴾، عائد على معنى الشطء لا على لفظه، ولذلك جمع فقيل: (منهم)، ولم يقل (منه). وإنما جمع الشطء لأنه أريد به من يدخل في دين محمد ﷺ إلى يوم القيامة

بعد الجماعة الذين وصف الله صفتهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ .

الأمر باتّباع الصَّحابة الكرام

الصَّحابةُ الكرام تلكم الكوكبةُ النيّرة، والأقمار المضيئة، والنفوسُ الزاكية، والقلوب الطاهرة، والهمم العالية، والإرادة الصَّادقة، من أصحاب النبي ﷺ الذين شهدوا الوحيَ والتنزيل، وصاحبوا رسولَ الله ﷺ بأرواحهم وأنفسهم، وآمنوا به وصدقوا رسالته، وصبروا معه على الأذى والكيد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، وجاهدوا معه بكلِّ مقوِّمات الجهاد، من جهادٍ بالكلمة والبيان، وجهاد بالسيف والسِّنان، وجهاد بالأموال والأنفس.

إنهم الذين رأتْ أعينُهم خيرَ المرسلين ﷺ، وصحبت أنفاسُهم أنفاسَه، وكلماتهم كلماته، وآثارهم آثاره، وخطواتهم خطواته رضي الله عنهم.

فهم المبلِّغون عن الله ورسوله ما جاء من شريعة الإسلام، ومِن ثَمَّ فإنّ فهمهم لنصوص الوحيين الكتاب والسُّنَّة مقدّم على فهم غيرهم، وعلمهم بالكتاب والسُّنَّة وتأويلهم مقدّم على عِلْمِ غيرهم وتأويلهم؛ لأنهم أول من تلقّوا الوحي، وشهدوا التنزيل، ولأنهم كانوا ولا ريبَ أحرصَ الناس على التلقي من ذلك المورد العذب، فقد آتاهم الله تعالى حفظاً وفهماً، ودعا لهم النبي ﷺ.

فقد أوجب الله تعالى اتّباع الصَّحابة رضوان الله عليهم، ولزوم طريقتهم، وتوعّد مَن يخالف سبيلهم بالعذاب الأليم، ويدخل في الصَّحابة آل بيت النبي ﷺ وعلى رأسهم إمامنا ومولانا عليّ رضي الله عنه، فمِن الأدلة على وجوب اتّباع الصَّحابة:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ

ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]. والمؤمنون المخاطبون بهذه الآية هم الصَّحابة الكرام ومَن سار على نهجهم، فمَن خالف سبيلهم ضلَّ عن الصِّراط المستقيم، واستحق العذابَ الأليم.

٢ - قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]. هذا دليلٌ صريحٌ في أنّ الذي كان عليه الصَّحابة ﷺ هو الهدى والحق، ومن اهتدى به فإنه على هدى وعلى صراطٍ مستقيم. فالصَّحابةُ هم المعنيّون بما في الآية أولاً، ثم مَن سار على دربهم.

٣ - قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]. والصَّحابةُ ﷺ هم أول أتباع النبي ﷺ، فهم على سبيل النبي ﷺ يدعون إلى الله على بصيرة.

٤ - قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]. فمَن أراد أنْ يرضى الله عنه وينجو فعليه باتّباع الصَّحابة الكرام في الدين.

٥ - وتزكية الرسول ﷺ لهم، فقال ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**» [متفق عليه].

فالصَّحابةُ هم خيرُ الناس بعد الأنبياء، وهذه الخيريةُ لهم إنّما جاءتهم بسبب دينهم واتّباعهم لنبيّهم، فمَنْ أراد اللحوق بركبهم فعليه باتّباعهم.

٦ - قول النبي ﷺ: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا**

عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» [رواه أبو داود وغيره].

ففي الحديث التمسك بما كان عليه الصَّحابةُ الكرام؛ للنجاة من الاختلاف والفتن.

٧ - قوله ﷺ: «**وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**» [رواه الترمذي وغيره].

فمَن أراد أنْ يكون من الفرقة النَّاجية فعليه بالتمسك بهدي الصَّحابة الكرام. فكلُّ مَن خالف هدي الصَّحابة الكرام فليس من الفرقة النَّاجية.

❖ حكم مَن طعن بالصَّحابة وسبَّهم ولعنهم:

إنّ الله مَدَح الصَّحابة الكرام، وزكَّاهم، ووصفهم بالإيمان، ووعدهم الجنّة، فقال عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال: ٧٤].

ونهى النبيُّ ﷺ عن التعرض للصحابة أو سبّهم فقال ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**» [متفق عليه].

وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اتَّقُوا اللهَ فِي أَصْحَابِي، لا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً، مَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ، وَمَنْ آذَى اللهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ**» [أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما].

فالطعن بالصَّحابة الكرام هو طعن برسول الله ﷺ بأنه لم يؤدِّ الأمانة، ولم يبلِّغ الرسالة، ولم يُحسن اختيار أصحابه وأنصاره وأعوانه.

ثم الطعن بالصَّحابة الكرام هو طعن بكتاب الله ﷻ؛ لأنّ الله زكّاهم ورضي عنهم واختارهم لصحبة نبيه.

حُكْم مَن سبَّهم أو طعن بهم بعد تزكية الله لهم، ومدح النبي ﷺ لهم:

الحكم معروفٌ عند أهل السُّنة والجماعة، فإنه مَن استحلَّ سبَّ الصَّحابة، أو تعبّد لله بسبِّهم والطعن بهم فقد كفر؛ لأنه من إنكار ما عُلِمَ من الدين بالضرورة، لأنه معارض لكتاب الله ولسُنَّة رسول الله ﷺ.

فقد اتَّفق الفقهاءُ على أنَّ مَن رأى أنَّ سبَّ الصَّحابةِ جائزٌ شرعاً؛ فإنّه يكفر لاعتقاده بذلك؛ لأنّه بذلك يكون منكراً لأمرٍ معلوم من الدين بالضَّرورة؛ وهو وجوبُ تقدير الصَّحابة وتعظيم منزلتهم، وهو حكمٌ عامٌّ في مَن سبَّ الصَّحابة جميعاً أو سبَّ أكثرهم، أو حتى صحابياً واحداً معتقداً حلَّ سبّه. وإليك بعض أقوالهم:

قال الإمام السبكي: إنّ سبَّ الجميع بلا شكّ أنه كفر، وهكذا إذا سبَّ واحداً من الصَّحابة حيث هو صحابي؛ لأنّ ذلك استخفافٌ بحقِّ الصُّحبة، ففيه تعرض إلى النبي ﷺ، فلا شكَّ في كفر السَّاب... إلى أنْ قال: ولا شك أنه لو أبغض واحداً منهما ـ أي الشيخين أبي بكر وعمر ـ لأجل صحبته فهو كفر، بل من دونهما في الصحبة إذا أبغضه لصحبته كان كافراً قطعاً. [فتاوي السبكي ٢/ ٥٧٥].

وقال ابن تيمية: وأما مَن جاوز ذلك إلى أنْ زعمَ أنهم ارتدّوا بعد رسول الله ﷺ، إلا نفراً قليلاً لا يبلغون بضعة عشر نفساً، أو أنهم فسقوا عامتهم، فهذا لا ريب في كفره؛ لأنه مكذّب لما نصّه القرآنُ في غير موضع من الرضا والثناء عليهم، بل مَن يشكّ في كفر مثل هذا فإنّ كفره متعيّن. [الصارم المسلول: ٥٨٦].

ونقل الخلّال: عن الإمام أحمد أنه سئل عمَّن يشتم أبا بكر وعمر وعائشة رضي الله عنهم أجمعين فقال: ما أراه على الإسلام. [السُّنة للخلال: ٤٩٣].

وقال القاضي عياض: وكذلك نقطع بتكفير كلّ قائل قولاً يتوصّل به إلى تضليل الأمة، وتكفير جميع الصَّحابة. [الشفا ٢/ ١٠٧٢].

وقال الذَّهبي: فمَن طعن فيهم أو سبَّهم فقد خرج من الدِّين، ومرق من ملة المسلمين؛ لأنّ الطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مساويهم، وإضمار الحقد فيهم، وإنكار ما ذكره الله في كتابه من ثنائه عليهم وما لرسول الله ﷺ من ثنائه عليهم، وبيان فضلهم ومناقبهم. [الكبائر للذهبي: ٢٨٥].

وذكر ابن كثير: في تفسير آيات الإفك من سورة النور: أجمع العلماء على أنَّ مَن رمى أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها بما برّأها الله منه في حادثة الإفك؛ فإنّه يكون كافراً أيضاً؛ لتكذيبه لصريح كتاب الله وما جاء في تبرئتها، فيكون بذلك مخالفاً لما ثبت في القرآن الكريم.

وقال أبو زرعة الرازي: إذا رأيت الرجلَ ينتقصُ أحداً من أصحاب النبي ﷺ فاعلم أنه زنديق؛ لأنّ علامةَ الزندقة الولوغُ في أعراض صحابة رسول الله ﷺ.

وذلك أنّ الرسولَ ﷺ حق، والقرآن حق وما جاء به حق، وإنما نقل إلينا ذلك كله صحابة رسول الله ﷺ، فقد نقلوا إلينا أحاديثَ النبي ﷺ والقرآن وأفعاله ﷺ، وهؤلاء يريدون أنْ يطعنوا في شهودنا ليبطلوا كتاب الله وسُنَّة النبي ﷺ، وأنْ يجرحوا شهودنا، والجرح بهم أولى وهم زنادقة. [الكفاية للخطيب البغدادي: ٩٧].

الأسماء والمصاهرات بين آل البيت عليهم السلام والصَّحابة الكرام

❖ **أولاً: تسمية آل البيت أبناءهم بأسماء الصَّحابة الكرام:**

إطلاقُ آل البيت أسماء أبي بكر وعمر وعثمان وأمهات المؤمنين وكبار

الصَّحابة على أولادهم يعطي صورة أعمّ وأشمل للروابط والصِّلات التي كانت تجمعُ بين آل بيت النبي ﷺ وصحابته الكرام.

أولاً: أسماء آل البيت الذين تسمّوا باسم أبي بكر رضي الله عنه:

١ ـ أبو بكر بن علي بن أبي طالب.

٢ ـ أبو بكر بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

٣ ـ أبو بكر عبد الله بن جعفر، وهؤلاء الثلاثة قد استشهدوا مع الحسين رضي الله عنهم أجمعين في كربلاء.

٤ ـ أبو بكر علي بن الحسين زين العابدين.

٥ ـ أبو بكر علي الرضا .

ويعتبر (أبو بكر) أحد أسماء المهدي المنتظر عند الشيعة، وقد ذكر ذلك النوري الطبرسي في كتابه «النجم الثاقب في ألقاب وأسماء الحجَّة الغائب».

ثانياً: أسماء آل البيت الذين تسمّوا باسم عمر رضي الله عنه:

١ ـ عمر الأشرف بن علي بن أبي طالب، وأمه أم حبيب الصهباء التغلبية من سبي الردّة.

٢ ـ عمر بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

٣ ـ عمر الأشرف بن علي بن الحسين.

٤ ـ عمر بن يحيى بن الحسيين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

٥ ـ عمر بن موسى الكاظم.

ثالثاً: أسماء آل البيت الذين تسمّوا باسم عثمان رضي الله عنه:

١ ـ عثمان بن علي بن أبي طالب، قُتِل مع الحسين في كربلاء.

٢ ـ عثمان بن عقيل بن أبي طالب.

رابعاً: أسماء آل البيت الذين تسمّوا باسم عائشة رضي الله عنها:

١ ـ عائشة بنت موسى الكاظم بن جعفر الصادق، ومن دليل شدّة حبِّ الإمام الكاظم لعائشة رضي الله عنها أنّ له من الولد سبعاً وثلاثين ذكراً، وأنثى واحدة سمّاها عائشة.

٢ ـ عائشة بنت جعفر بن موسى الكاظم.

٣ ـ عائشة بنت علي الهادي بن محمد الجواد.

وهذه الأسماء وغيرها كثير من أسماء الصَّحابة الكرام وردتْ في كثيرٍ من كتب الشيعة، كـ: بحار الأنوار للمجلسي، والإرشاد للمفيد، وتاريخ اليعقوبي، ومنتهى الآمال لعباس القمي، والنجم الثاقب للنوري الطبرسي وغيرها.

❖ ثانياً: المصاهرات بين آل البيت عليهم السلام والصَّحابة الكرام:

أ ـ المصاهرات بين آل البيت وآل الصديق مِن بني تيم:

١ ـ النبي محمد بن عبد الله ﷺ وهو سيد بني هاشم تزوج عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها.

٢ ـ موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب تزوج أم سلمة بنت محمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق.

٣ ـ إسحاق بن جعفر بن أبي طالب تزوج أم حكيم بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر.

٤ ـ محمد الباقر بن زين العابدين تزوج أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصِّديق.

٥ ـ الحسن بن علي بن أبي طالب تزوج حَفْصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر.

ب ـ المصاهرات بين آل النبي ﷺ وآل الزبير:

١ ـ صفية بنت عبد المطلب عمّة النبي ﷺ تزوجها العوام بن خُويلد، وولدت له الزبير أحد العشرة المبشَّرين بالجنة.

٢ ـ أم الحسن بنت الحسين بن علي بن أبي طالب تزوَّجها عبد الله بن الزبير بن العوام.

٣ ـ رقية بنت الحسن بن علي بن أبي طالب تزوَّجها عمرو بن الزبير بن العوام.

٤ ـ مليكة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب تزوّجها جعفر بن مصعب بن الزبير.

٥ ـ موسى بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب تزوّج عبيدة بنت الزبير بن هشام بن عروة بن الزبير بن العوام.

٦ ـ سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب تزوَّجها مصعب بن الزبير بن العوام، وغير ذلك الكثير.

ج ـ المصاهرات بين آل البيت وآل الخطاب من بني عدي:

١ ـ تزوج النبي ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وعن أبيها.

٢ ـ تزوج عمر بن الخطاب رضي الله عنه أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهي من أعظم الزيجات التي تؤكد الصفاء والحبّ بين الصَّحابة الكرام وآل البيت الأطهار.

٣ ـ الحسن الأفطس بن علي بن علي زين العابدين تزوج من بنت خالد بن أبي بكر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

٤ ـ الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب تزوج رملة بنت سعيد بن زيد بن نفيل.

د ـ المصاهرات بين آل البيت وبني تيم:

١ ـ الحسن بن علي بن أبي طالب تزوج أم إسحاق بن عبيد الله التيمي.

٢ ـ الحسين بن علي بن أبي طالب تزوج أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله، وقد أوصاه أخوه الحسن بنكاحها قبل موته، وولدت له فاطمة بنت الحسين.

هـ ـ المصاهرات بين آل البيت وبني أمية:

١ ـ رقية وأم كلثوم بنتا رسول الله ﷺ تزوّجهما عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولذلك لقب بذي النورين.

٢ ـ زينب بنت رسول الله ﷺ تزوّجها أبو العاص بن الربيع، وهو ابن خالتها، فأمه هالة بنت خُويلد، وولدت له زينب بنتاً هي أُمامة، وقد تزوّجها علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة رضي الله عنها.

٣ ـ خديجة بنت علي بن أبي طالب تزوّجها عبد الرحمن بن عامر بن كريز الأموي.

٤ ـ رملة بنت علي بن أبي طالب تزوّجها معاوية بن مروان بن الحكم.

٥ ـ زينب بنت الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب تزوّجها الوليد بن عبد الملك بن مروان.

٦ ـ فاطمة بنت الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب تزوّجها عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وغير ذلك الكثير.

آل البيت الأطهار ينهون عن سبّ الصَّحابة الكرام

١ ـ عن الإمام جعفر الصّادق عن آبائه عن علي عليه السّلام أنه قال:

«أوصيكم بأصحاب نبيّكم لا تسبّوهم، الذين لم يحدثوا بعده حدثاً، ولم يؤووا مُحدِثاً، فإنّ رسول الله أوصى بهم الخير». [البحار للمجلسي: ٢٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦].

٢ ـ أنكر عليٌّ رضي الله عنه على مَن يسب معاوية ومَن معه فقال: «إنّي أكره لكم أنْ تكونوا سبّابين، ولكنّكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إياهم: اللّهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم». [نهج البلاغة: ٢/ ١٨٥٠].

٣ ـ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال لأصحابه: «أوصيكم في أصحاب رسول الله ﷺ، لا تسبوهم، فإنهم أصحاب نبيكم، وهم أصحابه الذين لم يبتدعوا في الدين شيئاً، ولم يوقروا صاحب بدعة، نعم! أوصاني رسولُ الله ﷺ في هؤلاء». [حياة القلوب للمجلسي ٢/ ٦٢١].

٤ ـ قال الحسن العسكري الإمام الحادي عشر: «إنّ رجلاً مِمَّن يبغض آل محمد وأصحابه الخيرين أو واحداً منهم يعذبه الله عذاباً لو قسم على مثل عدد خلق الله لأهلكهم أجمعين». [بحار الأنوار: ٢٦/ ٣٣١].

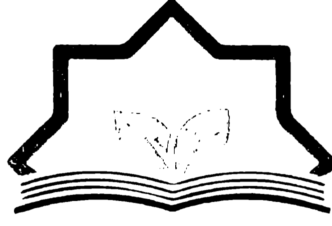
٥ ـ وفد نفرٌ من أهل العراق على الإمام زين العابدين، فقالوا في أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فلما فرغوا من كلامهم، قال لهم: ألا تخبروني: أنتم المهاجرون الأولون الذين قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]؟ قالوا: لا، قال: فأنتم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ [الحشر: ٩]؟ قالوا: لا، قال: أما أنتم قد تبرأتم أنْ تكونوا من أحد هذين الفريقين، وأنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] اخرجوا عني، فعل الله بكم. [كشف الغمة للإربلي: ٢/ ٢٩١].

٦ ـ روى الصدوق في «الخصال» عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا عملت أمتي خمسة عشر خصلة حل بها البلاء، قيل: يا رسول الله وما هي؟ قال: إذا كانت المغانم دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً، وأطاع الرجل زوجته، وعقّ أمه، وبرّ صديقه، وجفا أباه، وكان زعيمُ القوم أرذلهم، وأكرمه القومُ مخافة شره، وارتفعت الأصوات في المساجد، ولبسوا الحرير، واتخذوا القينات، وضربوا بالمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقب عند ذلك ثلاثة: الريح الحمراء، أو الخسف، أو المسخ**». [الخصال للصدوق: ٥٠١].

وغير هذه الروايات الكثير والكثير في مدح الصَّحابة في كتب الشيعة المعتمدة.

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد، والحمد لله ربِّ العالمينَ.





المثل الثاني والثلاثون
مثل العالِم الذي لا يعملُ بعلمه

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

❖ شرح المفردات:

(حُمِّلوا التوراة): أي كُلِّفوا بالعمل بها اعتقاداً وعباداتٍ وقضاءً وآداباً وأخلاقاً.

(ثم لم يحملوها): أي لم يعملوا بما فيها.

(أسفاراً): كُتُباً كبيرة.

(آيات الله): دلائل الله على وحدانيته وقدرته، وعلى نبوة رسول الله ﷺ.

❖ تمهيد:

بعد أنْ أثبت الله تعالى التّوحيد، وأخبر أنه بعث الرسولَ العربيّ الأميّ إلى الأميين العرب، قالت اليهود: إنّ محمداً ﷺ بُعِث إلى العرب خاصة، ولم يُبعث إلينا، وهذا بمفهوم الآية، ردَّ الله عليهم بأنهم لم يعملوا بالتوراة، وأنهم لو عملوا بمقتضاها وما تضمَّنته من البشارة بهذا الرسول، لانتفعوا بها وآمنوا به، ولم يقولوا هذا القولَ أو يُوردوا هذه الشُّبهة، ثم وبخهم وذكر مثلهم في عدم الانتفاع بتوراتهم وترك العمل بها مثل الحمار

الذي يحملُ الكُتب الكثيرة الكبيرة النافعة، ولم يصبْه من حملها إلا العناء والتعب.

التدبر في المثل

مثل ضربه الله تعالى لبيان صفة علماء السوء الذين يكتمون العلمَ، ولا ينتفعون به وقد تقدَّم قبله مثل الكلب اللاهث الذي ضُرِب للعالِم المنتكس المتبع لهواه بعد علمٍ ونعمة، والذي رضِي بالدُّنيا من الآخرة.

وهذا المثل يُبيّن صفةً من صفات اليهود وهي عدمُ صيانة الأمانة، وكتمان العلم، وعدم العمل بالتوراة، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾، مثل أحبار اليهود ورجال دِيْنهم الذين كُلِّفوا القيامَ بالتوراة والعمل بما فيها من الأوامر والنواهي، وبيان ما فيها من الحقائق للناس، ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾، أي لم يعملوا بموجبها، ولم يحملوها على المحمل الذي أمر الله به، ولا أطاعوا ما أُمِروا به فيها، وليس ذلك من الحمل على الظَّهر، وإنما الحملُ هنا نَشْرُ العلم الذي في التوراة والعمل به، ومن أعظم هذا العلم الذي أُمِروا بنشره هو توحيدُ الله تعالى، وإظهار نبوة رسول الله ﷺ، وعدم كتمانها حسداً وبغياً، والتي بشّر الله بها في التوراة.

فلمّا كتموا العلمَ ونبوة رسول الله ﷺ ولم يعملوا بالتوراة، صار مثلهم ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾، أصبح مثل اليهود كمثل الحمار، وشُبِّهوا بالحمار الذي تُوضع عليه الأحمالُ والأثقال، ويتعب بحملها وهو لا يدري ما يحمل كُتُباً أم ذهباً أم زبلاً، فالحمار لا ينال من الكُتب التي يحملها إلا التعب كذلك اليهود؛ لأنهم لم ينتفعوا من التوراة إلا قيام الحجَّة عليهم، فهذا مثل مَن لم ينتفع بالعلم.

وكذلك كلّ مَن عَلِمَ ولم يعمل بعلمه، أو تيسر له العلم، فأعرض عنه، فهو ينطبق عليه المثل، مع قيام الحجَّة عليه، بل هم أسوأ حالاً من الحمير؛

لأنّ الحمار لا فهمَ له وغير مكلَّف بالفهم، وهؤلاء لهم فهومٌ ومكلَّفون بالفهم ولم يستعملوه؛ ولهذا قال الله تعالى عن هذا الصِّنف من الناس: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. ثم قال تعالى: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: ما أقبح ما يُمثَّل به للمكذِّبين.

وما أشنع هذا التشبيه، وهو تشبيهُ علماء اليهود وأحبارهم ورجال دينهم بالحمار، وهو مثالٌ وعِبرة وتحذير لعلماء هذه الأمة وأهل دينها، أنْ يعملوا بعمل اليهود فينطبق عليهم مثلهم، ويلحق بحال اليهود في المثل والصِّفة المقلِّدون المعطّلون لعقولهم التابعون لكل ناعقٍ بلا دليل، وكذلك الذين يحملون القرآنَ في قلوبهم ولم يعملوا به، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ما هداهم إلى الإسلام؛ لتوغُّلهم في الظلم والكفر والشَّر والفساد، فلم يكونوا أهلاً لهداية الله تعالى، وكذلك كلّ ظالم.

قال ابن القيم في «إعلام الموقعين»: فقاس مَن حَمّلَه سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدبّره ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا على ظَهْر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تفهّم ولا اتّباع له، ولا تحكيم له، وعمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها، وحظّه منها حملها على ظهره ليس إلا. فحظُّه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل، وإنْ كان قد ضُرِبَ لليهود، فهو متناولٌ من حيث المعنى، لِمَن حَمَلَ القرآن، فترك العمل به، ولم يؤدِّ حقه، ولم يرعه حقّ رعايته.

العبرة من المثل

ختم الله تعالى الأمثالَ بهذا المثل؛ ليقول لك أنّ ما عَلِمْتَهُ وتعلمتَهُ مِن ما مضى من كتاب الله لا ينفعك إذا لم تعملْ به، بل يكون حُجَّة عليك، فالسَّبيلُ الوحيدُ للنجاة هو الإخلاص في طلب العلم، ثم العمل بمقتضاه لله

ﷺ لأجل نُصْرة الدين، وإلا كان العالِم الذي لا يعملُ بعلمه أو يكتمه كمثل الحمار الذي يحملُ الكُتُب ولا يدري ما فيها، أو الكلب اللاهث، فأحبارُ اليهود أضلّوا أمة موسى عليه السلام بكتمان نبوة نبينا ﷺ، وكذلك مَن يعلم التّوحيد والسُّنة ويكتمهما، ولا يعمل بهما، لأجلِ مصلحته يكون كاليهود الذين علموا ولم يعملوا. نسأل الله العافيةَ.

متى يكون القرآن نافعاً شفيعاً لأهله؟

يجيبُ النبي ﷺ عن هذا السؤال. قال رسولُ الله ﷺ: «**يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا**» [صحيح مسلم: ١٩١٢]. قال: «الذين كانوا يعملون به» فمَن عملَ بالقرآن كان القرآن نافعاً شفيعاً له، وإلا فلا.

نسأل الله تعالى أنْ يرزقنا العلمَ النافع والعملَ الصَّالح والإخلاصَ والصِّدقَ في القول والعمل.

وقفات تدبرية وبلاغية

الأولى: اختير الحمار في هذا التمثيل لإظهار الجهل والبلادة، والذل والحقارة، والتعيير لِمَن عَلِمَ ولم يعمل، فالتشبيهُ به لزيادة التحقير والإهانة ولنهاية التهكم والتوبيخ بالبلادة. قال أبو إسحاق الإلبيري:

إذا ما لَم يُفِدكَ العِلمُ خَيراً   فَخَيرٌ مِنهُ أَنْ لَو قَد جَهِلتا
وَإِنْ أَلقاكَ فَهمُكَ في مَهاوٍ   فَلَيتَكَ ثُمَّ لَيتَكَ ما فَهِمتا

الثانية: جملة ﴿يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ في موضع الحال من الحمار أو في موضع الصِّفة؛ لأنّ تعريفَ الحمار هنا تعريف جنس فهو معرفةٌ لفظاً نكرة

معنى، فصحّ في الجملة اعتبار الحالية والوصف. ولقد استوفيتُ هذه الفائدة وما في معناها في كتابي: «تسهيل النحو والإعراب».

الثالثة: قوله: ﴿مَثَلُ﴾، فاعلُ بِئْسَ والمخصوصُ بالذمِّ الموصولُ بحذفِ المضافِ أو بئسَ مثلُ القومِ المكذبينَ مثلُ هؤلاءِ، على أنَّ الموصولَ صفةُ القومِ والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ، وهم اليهودُ الذينَ كذَّبُوا بمَا في التوراةِ من الآياتِ الشاهدةِ بصحةِ نبوةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وفي ختام هذا الكتاب أحمد الله أولاً وآخراً حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه على فضله ومنّهِ وكرمه، فقد بيّن سبحانه من خلال أمثال القرآن الكريم الحقائقَ الساميةَ، والدَّلائلَ الواضحة على توحيده وإفراده بالعبادة والدعاء، كما بيّن سبحانه بطلان الشِّرك، ووهن حُجته، وضلال أهله، كما ذكّر سبحانه بحقيقة الدنيا وحقارتها، وقلة أيامها، وسوء عاقبة أصحابها، من خلال المعاني البليغة التي أبرزها في الأمثال القرآنية، والحمد لله رب العالمين.

تمَّ بحمدِ اللهِ ومَنِّهِ وكرمِهِ

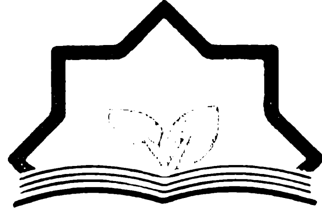
نسألُ اللهَ الإخلاصَ والقَبولَ

وصلِّ اللهمّ وسلّمْ على نبيّنا محمّد وعلى آله وأصحابه،

والحمد للهِ ربِّ العالمينَ

الفقير إلى عفو ربه

محمد جبّار خلف سالم العامري



فهرس الموضوعات

